جذور العنف والعنصرية

فى الفكر الدينى اليهودى
وامتداده إلى الدولة الإسرائيلية

دكتور
أحمد لطفى عبد السلام







هذا الكتاب



يتناول أثر المعتقدات الدينية اليهودية فى دفع اليهود إلى معاداة الشعوب الأخرى واستحلال سفك دمائهم وسلب أموالهم وتدمير كيانهم ونشر الفساد والحروب فى كل مكان .

فمنذ إنشاء دولة إسرائيل حتى الآن ، ارتكب حكام هذه الدولة وعصاباتها وجيشها من جرائم الإبادة والعنف والتطهير العرقى البشع ضد الشعب الفلسطينى ما تقشعر منه الأبدان ، وكان لجميع زعماء هذه الدولة وحكامها دور مميز من أدوار الإبادة الجماعية لسكان القرى والمدن العربية .

والكل ما زال يذكر المذابح التى ارتكبها إريل شارون فى معسكرات اللاجئين فى صبرا وشاتيلا بعد إحتلاله لبيروت ، وترددت أصداء بشاعة هذه الجريمة فى كل أنحاء العالم ، حتى أن بعض الصهاينة أنفسهم قد هالهم ما حدث وطالبوا سفاحهم بالإستقالة .

وهذا شمعون بيريز الذى يدعى أنه حمامة السلام والحاصل على جائزة نوبل للسلام كان هو منفذ مذبحة قانا للمدنيين اللبنانيين منذ عهد قريب ، وباراك أيضاً هو صاحب المذابح الرهيبة ضد الشعب الفلسطينى الثائر ، ودوره معروف فى قصف المدن والقرى الفلسطينية براً وبحراً وجواً ، وحملات التجويع والحصار التى فرضها على الشعب الأعزل .

يلقى هذا الكتاب الضوء على حقيقة مصدر هذه القسوة الشديدة والعنف الدموى الذى اتصف به اليهود فى معاملة الشعوب الأخرى فى كل عهود التاريخ .

والله من وراء القصد ...؛







٥٣٦١٧

ACADEMIC BOOKSHOP
EGYPTIAN JOINT-STOCK CO. CAIRO 2002




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



المكتبة الأكاديمية
شركة مساهمة مصرية
الحاصلة على شهادة الجودة
ISO 9002
Certificate No.: 82210
03/05/2001



جذور العنف والعنصرية في الفكر الديني اليهودي وامتداده إلى الدولة الإسرائيلية

تأليف

دكتور/ أحمد لطفي عبدالسلام

الأستاذ بجامعة الأزهر



الناشر

المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

٢٠٠٢

حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٢م - ١٤٢٢هـ

المكتبـــة الأكاديميـــة

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمدفوع ٩,٩٧٣,٨٠٠ جنيه مصرى

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون : ٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس : ٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

محتويات الكتاب

مقدمة

منذ إنشاء دولة إسرائيل حتى الآن، ارتكب حكام هذه الدولة وعصاباتها وجيشها من جرائم الإبادة والعنف والتطهير العرقى البشع ضد الشعب الفلسطينى ما تقشعر منه الأبدان، وكان لجميع زعماء هذه الدولة وحكامها دور مميز من أدوار الإبادة الجماعية لسكان القرى والمدن العربية، واعتقال الشبان والفتيات وتعذيبهم فى معسكرات الاعتقال الرهيبة التى كانت تجرى فيها عمليات التعذيب بوحشية وفظاعة فاقت بكثير كل ما قيل عن ارتكاب الألمان النازيين لمثل هذه الجرائم، وعند بدء ظهور دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ دمر الصهاينة ٤٨٦ قرية عربية تدميرا تاما، بعد إعمال المذابح الجماعية لسكانها وتشريد ما تبقى منهم على قيد الحياة وسلب كل ممتلكاتهم وأموالهم، ولم ينج من هذه الجرائم البشعة طفل ولا شيخ ولا إمرأة، ولم تنج الأقطار العربية المجاورة لفلسطين من مثل هذه الإعتداءات البشعة على أهلها، والكل مازال يذكر المذابح التى إرتكبها إريل شارون فى معسكرات اللاجئين فى صبرا وشاتيلا بعد إحتلاله لبيروت، وترددت أصداء بشاعة هذه الجريمة فى كل أنحاء العالم، حتى أن بعض الصهاينة أنفسهم قد هالهم ما حدث وطالبوا سفاحهم بالاستقالة، وربما كانت هذه لعبة دنيئة من ألعابهم ليمتصوا الأصداء العالمية لهذه المذبحة وإلا لما عادوا وانتخبوا هذا السفاح بأغلبية كبيرة ليستأنف إسالة حمامات دم الشعب الفلسطينى المجاهد من جديد، ويطفىء شعلة إنتفاضة الأقصى التى أوقد هو شرارتها الأولى عند دخوله إلى المسجد الأقصى مع آلاف من جنده المجرمين، حتى الذين يلقبون بالحمائم من زعمائهم، لهم فى سجل الاجرام صفحات طويلة، فهذا شمعون بيريز الذى يدعى أنه حمامة والحاصل على جائزة نوبل للسلام كان هو منفذ مذبحة قانا للمدنيين اللبنانيين منذ عهد قريب، وباراك الحمامة الأخرى صاحب المذابح الرهيبة ضد الشعب الفلسطينى الثائر، ودوره معروف فى قصف المدن والقرى الفلسطينية براً وبحراً وجواً، وحملات التجويع والحصار التى فرضها على الشعب الأعزل.

وفى النهاية نريد أن نصل إلى حقيقة مصدر هذه القسوة الشديدة والعنف الدموى الذى اتصف به اليهود فى معاملة الشعوب الأخرى فى كل عهود التاريخ.

لذلك سوف أتناول فى هذا الكتاب أثر المعتقدات الدينية اليهودية فى دفع اليهود الى معاداة الشعوب الأخرى واستحلال سفك دمائهم وسلب أموالهم وتدمير كيانهم ونشر الفساد والحروب فى كل مكان.

الفصل الأول

تكون المجتمع العبرى فى مصر
في عهد الهكسوس
ثم خروجهم من مصر في عهد الرعامسة

الفصل الأول

تكون المجتمع العبرى فى مصر
فى عهد الهكسوس
ثم خروجهم من مصر في عهد الرعامسة

بدأ تاريخ بنى إسرائيل فى مصر فى عهد الهكسوس عندما دخل يوسف عليه السلام إلى البلاد كعبد رقيق، باعة تجار الرقيق إلى الوزير الأول فى دولة الهكسوس والمسمى فوطيفار، وقد ورد اسم يوسف فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة، خمسة وعشرون منها فى سورة يوسف وحدها، كذلك ورد اسم يوسف فى التوراة فى (إصحاحات ٢٧ ، ٤٨ تكوين) وقصة يوسف معروفة جيدا حيث دبر له إخوته مؤامرة وألقوه فى قاع جب للماء فى الصحراء، ثم ادعوا أمام أبيهم أنهم تركوه عند متاعهم أثناء تجوالهم لرعى الغنم، ولما رجعوا إليه وجدوا أن الذئب قد أكله، وحينما التقطه من الجب ساقى إحدى القوافل التجارية التى كانت تتردد بين مصر والشام، باعوه بعد ذلك إلى وزير الهكسوس الأول (رئيس الوزراء)، وكان عمر يوسف عندما حضر الى مصر ١٥ سنة، وقد وقعت هذه الحادثة عام ١٥٠٠ ق.م*

وكان ملك الهكسوس حينئذ هو الملك خيان أحد ملوك الأسرة السادسة عشر، وأمر الوزير فوطيفار زوجته أن تعتنى بيوسف وتكرمه، فعاملته معاملة الأم لولدها حيث أنها كانت عاقرا لم تنجب أبناء، ولما بلغ يوسف أشده وكان عمره آنذاك ٣٥ عاما، آتاه الله الحكمة وخصه بتأويل الأحاديث، فأمر الملك بترقيته إلى رتبة نائب للوزير الأول، ثم حدث ما حدّث به القرآن الكريم من محاولة إمرأة الوزير- أو العزيز- كما كان يلقب وقتئذ- غواية يوسف إلى إرتكاب الفاحشة معها، ورفض يوسف ذلك وإعتصم منها بإيمانه بالله الواحد الأحد، ثم دخول يوسف بعد هذه الحادثة إلى السجن بتوجيه من هذه المرأة درءاً للفضيحة، ومكوثه فى السجن تسع سنين كان فيها مركزا لثقة زملائه المساجين وداعيا بينهم إلى الإيمان بالله ونبذ

* كتاب قصص الأنبياء. د. رشدى البدراوى- الجزء الثانى.

عبادة الأصنام، ثم الإفراج عنه بعد تأويله لرؤيا الملك وثبوت براءته من التهمة التى ألصقتها به المرأة وإعترافها بذلك، ثم توليه بأمر من الملك بعد ذلك منصب الوزير الأول ووزير الزراعة والتموين، ثم ما تلا ذلك من زيادة فيضان نهر النيل سبع سنين متتالية غمر فيها الأراضى الزراعية وزاد فيها الخير، فأمر يوسف عليه السلام الشعب بإدخار ما يفيض عن حاجته من محصول القمح وتخزينه فى مستودعات ضخمة أمر هو ببنائها حتى يستفاد منه فى السنين السبع العجاف التالية التى تنبأ بحدوثها بعد تفسيره لرؤيا الملك، وفعلا حل الجفاف بمصر سبع سنوات متتالية. تدهورت فيها غلة الأرض من الحاصلات ومنها القمح، ويبدو أن هذا الجفاف كان عاما فى منطقة الشرق الأدنى، حيث عانت فلسطين هى الأخرى من الجفاف، لهذا كانت القوافل تأتى إلى مصر من الأقطار الآسيوية المجاورة طلبا للتزود بالقمح المصرى ونقله إلى المستهلكين فى تلك البلاد، ثم ما حدث من حضور إخوة يوسف الأحد عشر الى مصر فى قافلة لابتياع القمح وتعرف يوسف عليهم، وهى قصة معروفة ذكرها القرآن الكريم بالتفصيل، وفى نهايتها حضرت إلى مصر أسرة يوسف كلها ومعهم أبوه نبى الله يعقوب عليه السلام واستقروا فيها، وكان عددهم سبعون نفسا وهم أبناء يعقوب الأحد عشر وزوجته ليئة خاله يوسف وأبناء اخوته.

*** إستقرار بنو إسرائيل في شرقي الدلتا وتكون أول مجتمع عبري:-**

إستأذن يوسف عليه السلام الملك فى اسكان أفراد أسرته فى مصر، وكانوا قوما من الرعاة، فأذن لهم الملك بالإستقرار فى منطقة تسمى جاسان شرقى الدلتا، وهى منطقة كان يكثر بها العشب الصالح للرعى، ومكانها الآن محافظة الإسماعيلية، وتكاثر بنو إسرائيل فى مصر وكونوا تجمعا كبيرا حتى بلغ عددهم عند الخروج كما تقول التوراه ستمائة ألف – وهو رقم مبالغ فيه إلى حد كبير– مقسمين الى ١٢ قبيلة أو سبط، ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ *(الأعراف ١٦٠)*، وعاش يعقوب (الذى سمى إسرائيل) فى مصر سبعة عشرة سنة ثم مات فى عمر يناهز ١٤٧ عاما، وقبل مماته، جمع يعقوب عليه السلام بنيه وأوصاهم بعبادة الله وحده على ملة إبراهيم عليه السلام، ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ *(البقرة- ١٣٣)* .

*** تأثر بني إسرائيل بالديانة المصرية وإنحرافهم عن ديانة التوحيد:-**

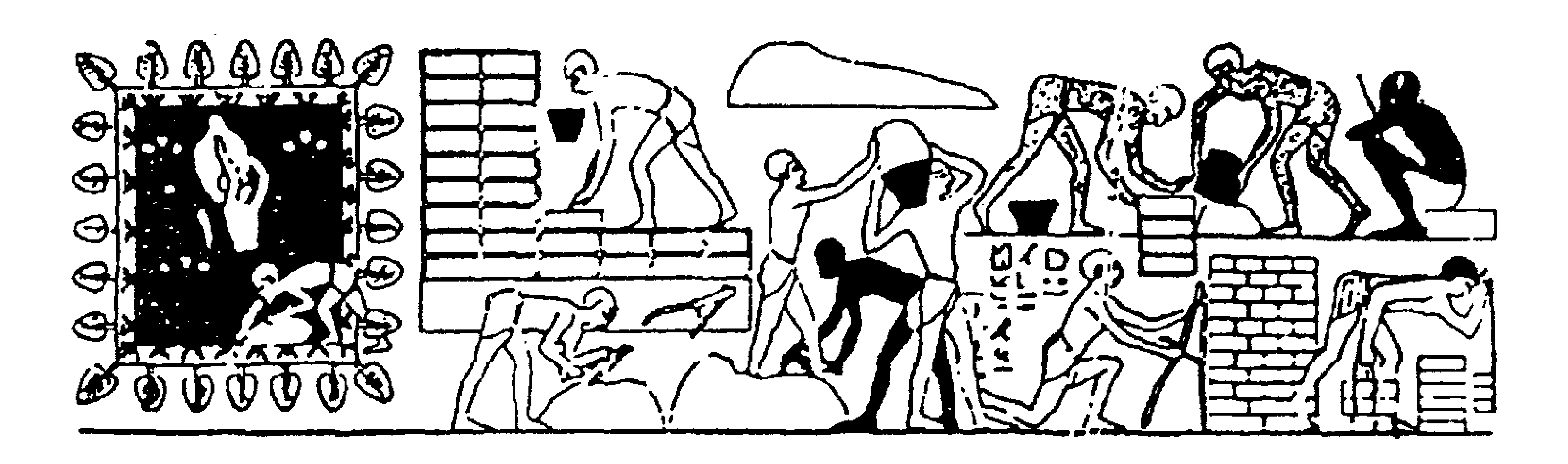
بعد موت يوسف عليه السلام، تكاثر بنو إسرائيل فى أرض جاسان، وكونوا مجتمعا كبيرا مغلقا وعاشوا منعزلين فى هذه المنطقة من أرض مصر مثل عادتهم إلى اليوم فى كل مكان يحلون به من بلاد الدنيا، أن يتجمعوا ويعيشوا فى مناطق منعزلة خاصة بهم تسمى الجيتو، وبعد طول إقامتهم فى مصر، إستهوتهم عبادة بعض الآلهة المصرية، وكانوا أشد ميلا لعبادة العجل أبيس معبود الدلتا، وقد حدد الكهنة المصريون علامات معينة يولد بها هذا النوع من العجول، فكان بنوا إسرائيل إذا ولدت لهم ماشيتهم مثل هذا العجل يرعونه ويقدسونه ويعبدونه، ثم يبيعونه للمصريين بأثمان باهظة، وعاش بنو إسرائيل فى مصر فى رغد من العيش فى ظل حكم الهكسوس، وكثرت أموالهم وزاد ثراؤهم، وكان الهكسوس ينظرون إليهم كحلفاء لهم لأنهم أسيويون، ورعاة مثلهم، بعكس المصريين الذين كانوا يرون أنهم أولياء للهكسوس الأعداء الذين احتلوا مصر وحكموها وسلبوها استقلالها ونهبوا خيراتها وأذلوا أهلها.

بنو إسرائيل في مصر بعد طرد الهكسوس منها:-

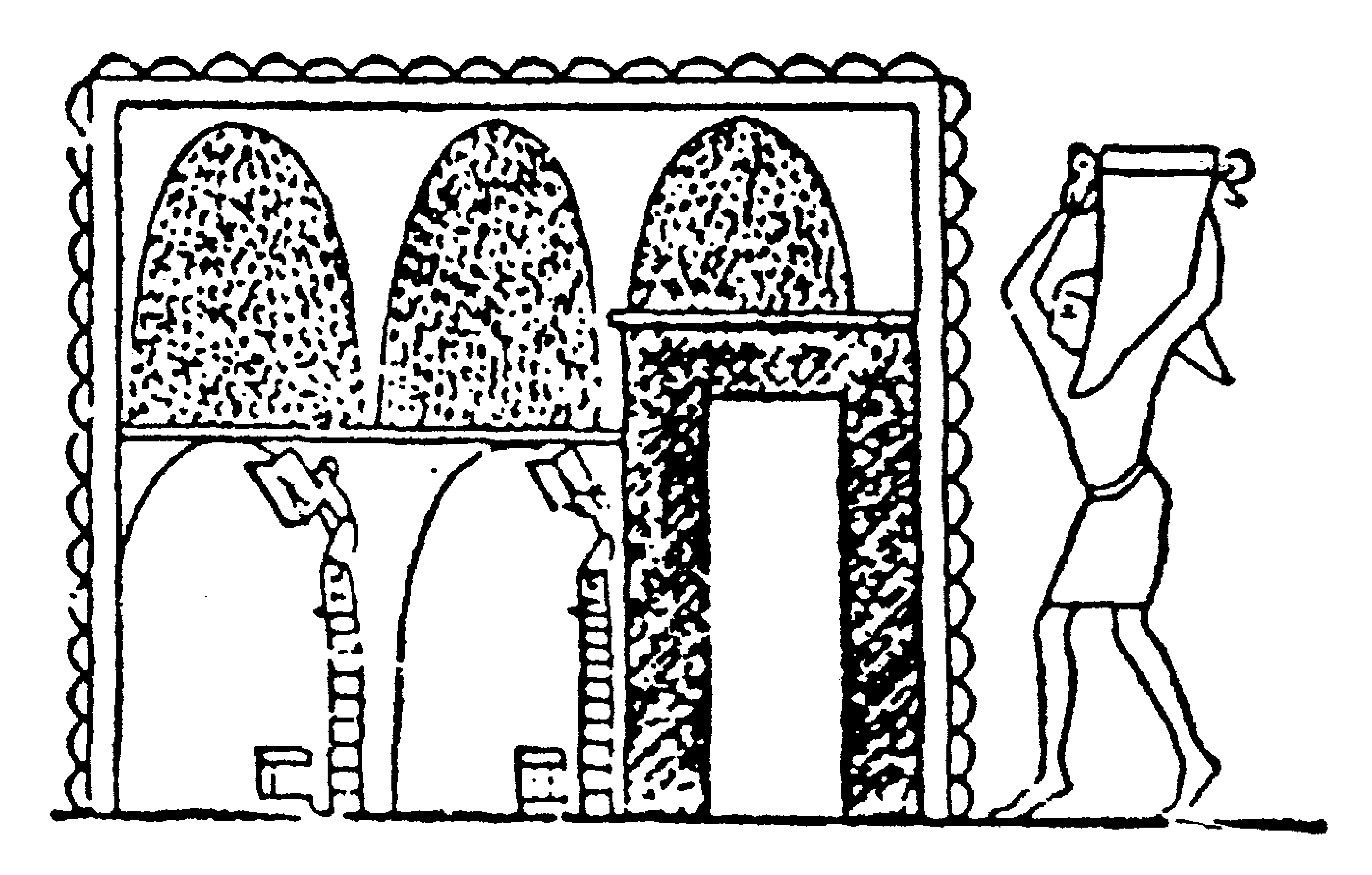
بقى بنو إسرائيل فى مصر بعد طرد الهكسوس منها فى عهد الأسرة ١٧، ولكن المصريين كانوا دائما يخشون خيانتهم وغدرهم، وتعاونهم مع فلول الهكسوس الذين فروا إلى فلسطين ويتطلعون إلى إعادة إحتلال مصر، لهذا كان أحمس (الفرعون الذى طرد الهكسوس) يراقب بنى إسرائيل بحذر شديد ويدس عيونه بينهم خوفا من خيانتهم، ثم عزل الملوك الفراعنة الذين حكموا مصر بعد أحمس المنطقة التى كان يعيش فيها بنو إسرائيل وضيقوا عليهم الخناق، وسخروهم فى القيام بالأعمال الشاقة مثل ضرب الطوب اللازم لبناء المدن فى الدلتا وحمل الأحجار والأثقال، واستمر الحال هكذا حتى عهد رمسيس الثانى، وكان نفر من بنى اسرائيل قد خرجوا مع الهكسوس عند خروجهم من مصر وإستقروا فى بلاد الشام، وأطلق

عليهم المصريون كلمة (عابيروا)، وفى عهد رمسيس الثانى قاد هذا الفرعون جيشاً ضخماً ذهب به لغزو أرض الشام، وكانت حينئذ تحت حكم الملك خيتا ملك الحيثيين، وبعد وصوله إلى هناك وقبل بدء معركة قادش الشهيرة، دخل معسكر رمسيس إثنان من البدو العابيرو، وإدعيا أنهما مندوبان عن رجال القبائل التى تسكن تلك المنطقة، وأنهما حضرا لدعوة رمسيس لعمل حلف مشترك مع هذه القبائل لطرد الحيثيين من الشام، وأدليا بمعلومات مزيفة عن جيش الحيثيين وأماكن تواجده، فصدقهما المصريون، وعندما بدأت المعركة، تبين أن هذه المعلومات كانت مزيفة، وكادت تلحق بالمصريين هزيمة ساحقة، لولا شجاعة رمسيس وحنكته الحربية وجرأته والتفافه من الخلف حول جيوش الأعداء وهزيمتهم، وأثرت هذه الخديعة تأثيرا شديداً فى نفس رمسيس الثانى وأمر بالقبض على هذين الجاسوسين وتعذيبهما ثم إعدامهما، وعندما عاد إلى مصر، صمم على الانتقام من بنى اسرائيل لكونهم من نفس جنس العابيرو (العبريين) فضيق الخناق عليهم وأمعن فى إضطهادهم وقتل الذكور من مواليدهم وترك الإناث، ثم حدث ما كان عند ولادة موسى عليه السلام من خوف أمه عليه من بطش رجال فرعون، فأوحى الله إليها أن تضعه فى تابوت خشبى وتلقى به فى مياه النيل، وعند رسو التابوت على شاطىء النيل الذى يطل عليه قصر رمسيس، رأته زوجة رمسيس الملكة «إست نفر»، وأمرت جواريها بإحضاره، وقصر فرعون هذا كان يوجد فى العاصمة الجديدة التى بناها رمسيس على النيل فى شرقى الدلتا وسماها «بررعمسيس»، وعندما فتحت الملكة التابوت وجدت بداخله طفلا جميلا هو موسى عليه السلام، فألقى الله محبته فى قلبها، وقررت أن تتوسل إلى رمسيس الثانى ألا يقتله لتتخذ منه ولدا لها خصوصا وأنها لم تنجب من رمسيس وقد مضى على زواجها سبع سنوات، وحقق رمسيس هذه الرغبة، وتربى موسى فى قصر فرعون تربية الأمراء، وعندما شب أرسله فرعون إلى معهد أون (عين شمس) ليتلقى فيه العلم مع أبناء الأمراء والكهنة، وكان هذا المعهد مشهورا فى ذلك العصر بتدريس علوم اللغة المصرية والكتابة والحكمة والفلسفة والتشريح والتحنيط والرسم والنحت، وفيه نبغ موسى فى هذه العلوم، ويقول القرآن الكريم ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ *(القصص ١٤)*.

ويعتبر رمسيس الثانى الذى ربى موسى عليه السلام من أعظم الفراعنة وأطولهم عمرا، وطالت مدة حكمه حتى بلغت ٦٧ عاما، ونال شهرة كبيرة عند تصديه للحيثيين وهم أكبر قوة عسكرية فى عصره، وإستطاع رمسيس أن يهزمهم وينتزع منهم بلاد الشام وجزءاً من بلاد ما بين الرافدين (العراق)، ودانت له الشعوب الآسيوية المجاورة بالولاء والطاعة، لذلك كان من أكثر الفراعنة إعتدادا بذاته وفخرا بنفسه وبأعماله، وكانت العاصمة الجديدة التى بناها فى شرق الدلتا وسماها (بررعمسيس) أى دار رمسيس من أهم عواصم الشرق الأدنى القديم، وأقام رمسيس عددا كبيرا من المعابد فى طول البلاد وعرضها من بلاد النوبة فى الجنوب حتى حدود فلسطين. وأقام لنفسه عددا كبيرا من التماثيل لم تكن أبدا لفرعون من قبله، كما شيد عدداً ضخماً من المسلات التى بلغ ماشيده منها عشرة أمثال ما شيده جميع الفراعنة من قبله، وكان هذا من أسباب صلفه وغروره، وزاده غرورا ما قرره الفلكيون فى عهده من حسابات فلكية تدعى أن إقتران ظهور النجم الذى يحدد قدوم فيضان النيل مع الكواكب التى تحدد بدء السنة المصرية وبداية السنة الزراعية أمر لا يحدث إلا مرة واحدة كل ١٤٦١ سنة، وأن هذا الإقتران الثلاثي ينبيء عن حدث مهم سوف يحدث على الأرض، وكان رمسيس الثانى كثيرا ما يفتخر بأن هذا الإقتران قد حدث فى سنة ١٣١٧ ق. م. وهى السنة التى ولد فيها، وأن فيضان النيل فى العام الذى سبق مولده كان وافرا وغزيرا غمر البلاد بالرخاء وملأ البيوت بالحبوب وعمت البهجة القلوب، كذلك سجل رمسيس إفتخاره بأنه ولد من الإله آمون نفسه الذى تقمص جسد سيتى الأول والده فأنجبه من الملكة تويا والدته، هذا مما دفع رمسيس الثانى الى الاعلان بأنه إله وابن إله، وحمل الناس بالقوة على تصديق هذا الزعم، وقد شارك رمسيس أباه فى الحكم منذ أن كان طفلا، وفاخر رمسيس بأنه توج فرعونا فى حضرة والده الفرعون سيتى الأول، وكان تتويجه على يد الإله آمون (والده الحقيقى) فى مدينة القرنة، ثم توج ثانيا فى مدينة هليوبوليس على يد الإله «أتوم»، وأمر رمسيس بنقش نص على جدران معبد سيتى الأول يقول «رفع من شأنى رب الكون نفسه (أى الإله رع) منذ كنت طفلا حتى أصبحت ملكا، منحنى الأرض وأنا مازلت فى البيضة، وقبل العظماء التراب أمام وجهى، ثم عينت بصفتى الابن العزيز لآمون أميرا ووراثيا على العرش، وأنا طفل صغير، وكنت أقدم التقارير عن حالة الأرضين بوصفى قائدا للمشاة



شـكل (١) تسخير العبريين فى ضرب الطوب وأعمال البناء لاحظ أن العمال ذوى البشرة البيضاء هم العبريون.
ملاحظة العامل المصرى ذو اللون الأسمر والذى يمسك عصا بيده يجلس فى أقصى اليمين (الملاحظ) وهناك مصريان أخرين ذوى بشرة سمراء يشرفان على تنفيذ العمل (لوحة فى مقبرة الوزير ،رخ مى رع، (عن وانر كيللر)



شـكل (٢) أحد العمال العبريين يحمل غرارة حبوب على كتفه، وفى الداخل أحد العمال يصعد السلم ليفرغ الغراره فى الصومعة المفتوحة من أعلى– الصومعة فى مدينة الصوامع فينوم (عن وارنر كيللر)

والعجلات، ولما كان أبى سيتى الأول فى قمة مجده وكنت طفلا، قال أمام شعبه، توجوه ملكا حتى أشهد بهاءه وأنا على قيد الحياة».

مما سبق يتبين أن موسى عليه السلام تربى وعاش فى قصر هذا الفرعون المستبد المتأله، المغرور بقوته وغناه وخضوع البلاد والشعوب الموجودة فى منطقة الشرق الأدنى لحكمه الذى طال حتى بلغ ٦٧ عاما، وكان رمسيس الثانى ينظر إلى بنى إسرائيل الموجودين فى شرق الدلتا على أنهم عبيد جاء بهم الهكسوس فى أثناء إحتلالهم لمصر وتركوهم وراءهم بعد هزيمتهم ورحيلهم من البلاد لتفاهة شأنهم، ومما زاد من كراهية رمسيس لبنى إسرائيل خيانة إثنين من بدو العابيرو له فى الشام أثناء قيامه بغزو لبنان حتى كاد جيشه أن ينهزم بسبب هذه الخيانة، لذلك كرر بعد عودته إلى مصر أن يسوم جنس العابيرو (العبرانيين) الموجودين فى مصر سوء العذاب، وأخذ يسخرهم فى الأعمال الشاقة، ثم أمر بقتل ذكورهم وإستبقاء نسائهم، زيادة فى إذلالهم، وكان من العجيب أن يتولى هذا الفرعون تربية موسى عليه السلام بنفسه رغم علمه بأنه من بنى إسرائيل، فتلك حكمة الله وتقديره.

*** وقوع حادثة مثيرة أوغرت صدر فرعون وحاشيته علي موسي:-**

وقعت هذه الحادثة يوم عيد الحصاد، وهو من أهم أعياد المصريين القدامى، وفى هذا اليوم كان الإحتفال يبدأ بموكب عظيم من الأمراء وسادة القوم يتقدمه الكهنة ويسير الموكب حتى يصل الى قصر فرعون، ويتجمع فى ساحة الاحتفالات الكبرى كبار رجال الدولة، وتتجمع جماهير الشعب الغفيرة فى الساحة للفرجة على الإحتفال، وكان أربعة من الكهنة فى هذا الإحتفال يحملون تمثالا للإله (مين) إله الحصاد، والخصب، وهو منصوب على منصة لها أربعة قوائم ترمز إلى أولاد الإله حورس الأربعة، ثم تطلق أربعة من الحمائم البيضاء تطير فى الأركان الأربعة للبلاد تحمل معها الخصب والنماء، ويسير فى مقدمة الموكب أيضا ثور أبيض مع عدد من رجالات الدولة يحملون لافتات من قماش الكتان مكتوب عليها ألقاب الفرعون، وعدد آخر من الكهنة يحملون لفائف من الخس الأبيض وهو النبات المقدس الذى يعشقه الإله مين، كانت مدينة رعمسيس، العاصمة تكاد تخلو فى هذا اليوم من الناس الذين يتوجهون جميعا الى هذا الإحتفال، وكان موسى بالطبع لا يشارك فى هذا اليوم المصبوغ

بالوثنية والضلال ودخل موسى المدينة وهى شبه خالية من سكانها، فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما إسرائيلى والآخر مصرى، فاستغاث الإسرائيلى بموسى لينصره على غريمه، فلكم موسى المصرى بقبضة يده فمات المصرى لتوه، وكان موسى معروفا بالقوة وشدة البأس، ولكنه لم يكن يقصد من تدخله هذا قتل المصرى، لذلك ندم على ذلك ندما شديدا، وفى اليوم التالى مباشرة رأى موسى نفس الرجل الإسرائيلى يتعارك مع مصرى آخر، وتكرر المشهد السابق ودعا الإسرائيلى موسى للتدخل، ولكن موسى أدرك أن هذا الإسرائيلى رجل مشاغب دائم العراك، فأراد أن يلقنه درسا فى الأدب، لكن الإسرائيلى صاح بالناس قائلا هذا الرجل يريد قتلى كما قتل مصريا بالأمس، وهنا أدرك موسى خطأه، فى مناصرة الإسرائيلى وطلب من ربه المغفرة، وتقول التوراة أن الشخصين اللذين كانا يتعاركان فى اليوم الثانى كانا من بنى إسرائيل ،**ثم خرج فى اليوم التالى وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان، قال للمذنب لماذا تضرب صاحبك؟ فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا، أتقتلنى اليوم كما قتلت مصريا بالأمس؟ فخاف موسى وقال حقا قد عرف الأمر، فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى»** *(إصحاح ٢- خروج)*. والصحيح هو ما ذكره القرآن الكريم من أن العراك كان بين إسرائيلى الأمس ومصرى آخر، إذ قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ ***(سورة القصص ١٩)***، ثم جاء رجل من أقصى المدينة حيث البلاط الملكى وأخبر موسى أن فرعون قد أصدر أمرا باعتقاله، فخرج موسى مسرعا من المدينة هربا من بطش فرعون، وأسرع فى السير حتى وصل إلى أرض مدين قرب مدينة العقبة فى سيناء، وكان ما كان من مقابلة موسى لبنتى نبى الله شعيب عليه السلام عند ماء مدين، ثم إستضافه شعيب له وإستئجاره إياه للعمل فى رعى غنم شعيب، ثم زواج موسى من بنت شعيب بعد أن دفع مهرها بعمله فى رعى غنم شعيب لمدة سبع سنين.

رجوع موسي الى مصر

بعد قضاء موسى لعشر سنين فى ارض مدين، قرر إصتحاب زوجته والرحيل بها للعيش فى مكان آخر، وكانت الزوجة حاملا، وكان ما هو معروف من رؤية موسى لنار تغشى

شجرة فى الوادى المقدس طوى، وعندما جاءها كلمة الله سبحانه وتعالى وأمره أن يتجه إلى مصر ويذهب إلى فرعون ليرده عن ظلمه وجبروته ووثنيته ويهديه إلى عبادته سبحانه وتعالى وحده دون أن يشرك به أحدا، ثم يطلب من فرعون الكف عن إيذاء بنى إسرائيل واضطهادهم، واستشعر موسى مدى عظم هذه المهمة وعدم قدرته وحده على مجابهة فرعون، خصوصا وأنه متهم بقتل مصرى، فضلا عن عدم فصاحة لسانه وتلعثمه عندما يتكلم، لذلك طلب من الله سبحانه وتعالى أن يشرك معه فى هذه المهمة أخيه هارون فهو أفصح منه لسانا ولاسيما وأنه سوف يكون رسولا إلى أعظم طاغية فى عصره، وصاحب أكبر قوة مادية وعسكرية فى العالم فى ذلك الوقت، وطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره ويعينه فى هذه المهمة، فأجابه الله تعالى إلى طلبه ووافق على إشراك هارون معه فى هذه المهمة الصعبة، وطمأنه بأنه سوف يكون معهما دائما ولن يتركهما وحدهما أمام هذا الطاغية المتأله، وسوف يؤيده بالمعجزات المبهرة التى يعجز أن يأتى بمثلها أى كاهن أو ساحر.

لقاء موسي وهارون بفرعون

بعد عودة موسى عليه السلام إلى مصر، إنضم إليه أخوه هارون بوحى من الله تعالى، وتوجها أولا إلى قومهما بنى إسرائيل، وأخبراهم بتكليف الله تعالى لهما بتوصيل رسالة التوحيد إلى فرعون، فتخوف القوم من تلك المهمة، وكانوا قد تعودوا على الذل واستعذبوه، وانحرفوا عن ملة أبيهم إبراهيم وقدسوا بعض آلهة المصريين مثل العجل أبيس، لذلك كانت مهمة موسى الاولى هى حث قومه على العودة إلى دين أبيهم إبراهيم الحنيف، والإيمان بأن الله أقوى من فرعون وقوى الشر فى الأرض جميعا، وأخبرهم بأن الله قد وعده بالنصر على فرعون، وأنه سوف يكافئهم إذا صبروا ويخرجهم من أرض الذل فى مصر إلى أرض الحرية والكرامة أرض كنعان التى تفيض لبنا وعسلا، وسوف يكونون لهم دولة خاصة بهم فيها، دولة حرة تحكم بشريعة الله ويسود فيها العدل، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ *(سورة إبراهيم ٥)* وبعد لقاء موسى بقومه، ذهب مع أخيه لمقابلة فرعون مصر

رمسيس الثانى، وفى هذا اليوم، كان فرعون يحتفل بالعيد الثلاثينى الحادى عشر لجلوسه على كرسى الملك، أى أنه كان يحتفل بمرور ٦١ عاما على بداية حكمه، وكان عمره آنذاك ٨٤ عاما (كان ذلك فى عام ١٢٣٢ ق.م)، وكان يحتفل بهذا العيد كل ٣ سنوات من حكم فرعون، وكان عمر موسى وقتئذ ٥٥ عاما، وفاجأ موسى فرعون فى أثناء هذا الإحتفال المهيب، وفى حضور جمع كبير من الأمراء والنبلاء وعلية القوم، والكهنة، وأعلنه موسى بالدعوة إلى عبادة الله الواحد القهار، وترك الظلم والطغيان، وثارت مناقشة حامية بين فرعون وموسى حول رسالة التوحيد التى حملها موسى إليه، وطبعا إستنكر فرعون هذه الدعوة، إذ كيف يجرأ موسى أن يدعى ذلك أمام فرعون مصر وهو إله وابن الإله آمون، ثم أنب موسى على ذلك مذكرا إياه بأنه هو الذى رباه وعلمه، وذكره بهروبه من العدالة بعد أن قتل مصريا، فكيف يجحد موسى كل ذلك ويتجرأ على فرعون ويطالبه بعبادة إله آخر غير آلهة مصر وهو يعلم أن فرعون نفسه هو إله وابن اله.

وهدد فرعون بسجن موسى إن هو تمادى فى هذا القول، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)﴾ *(الشعراء ١٨-١٩)*.

ولكن موسى أخبر فرعون بأنه يملك الدليل على صدقه ويستطيع أن يقوم ببعض المعجزات الربانية أمامه، وهذه المعجزات لا يستطيع القيام بها إلا من أيده الله وكلفه بالرسالة، فرد عليه فرعون قائلا أرنا ما تدعيه إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه فتحولت أمام فرعون إلى ثعبان رهيب ثائر بث الرعب فى قلوب الحاضرين، ثم تناولها بيده ثانية فتحولت فى يده إلى عصاة من جديد، وأدخل موسى يده فى جيبه ثم أجرجها فإذا هى بيضاء ناصعة لها ضوء يخطف الأبصار، ثم وضعها فى جيبه وأخرجها فيه ثانيا فعاد لونها كما كان، ذهل فرعون كما ذهل جميع الحاضرين لهذا الإحتفال، ولكن فرعون أخرج نفسه من هذه الورطة التى وضعه فيها موسى بمعجزاته والتفت إلى قومه وقال لهم ان هذا الرجل ساحر ضليع فى فنون السحر ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ

أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ *(الشعراء ٣٤- ٣٥)* . شاور فرعون قومه فى الأمر وإستقروا على دعوة موسى وأخاه فى يوم الزينة وهو عيد شم النسيم، وأن يجمعوا السحرة من كل مكان فى مصر، وأن يحضر موسى وأخيه ويجروا مباراة فى السحر مع السحرة أمام جموع الشعب ليثبت هو فى تلك المباراة أن ما يقوم به موسى لا يعدو أن يكون ضربا من السحر لا أكثر، وحضر السحرة فى اليوم الموعود ومعهم جميع أدوات السحر، من العصى والحبال، وألقوا بها فى ساحة المباراة أمام الناس، فسحروا أعين الناس وظن الناس من سحرهم أن العصى والحبال قد تحولت إلى حيات تسعى، ثم جاء دور موسى وألقى عصاه التى تحولت الى ثعبان عظيم ضخم ثائر ابتلع كل الحبال والعصى التى ألقى بها السحرة، وترك فرعون ومن معه من جموع الشعب فى ذهول تام من هول ما حدث، وهنا نذكر دقة القرآن الكريم فى وصف تلك الواقعة ووصفه لفعل السحرة بأنه ليس إلا خداع بصرى كما يفعل السحرة اليوم من ألعاب تعتمد على خفة اليد والصنعة، وكانت النتيجة غير المتوقعة لهذه المباراة إيمان السحرة كلهم برب العالمين وجهرهم بإيمانهم دون أى خوف من فرعون، ثم قرار فرعون بإعدامهم جميعا وصلبهم على جذوع النخل، وثبات السحرة على إيمانهم وترحيبهم بالإستشهاد فى سبيل الحق، وفى النهاية أيقن موسى أن فرعون لن يسمح لأحد من رعاياه باعتناق دين التوحيد، ولن يسمح كذلك بخروج بنى إسرائيل من مصر بصحبة موسى إلى أرض فلسطين، فقرر موسى الخروج بقومه من مصر خلسة حتى لا يمنعهم فرعون.

- الخـــــروج -

يعتبر خروج بنى إسرائيل من شرقى الدلتا وعبورهم البحر إلى أرض سيناء بداية عهد جديد ومرحلة هامة من مراحل تكوين الشعب الإسرائيلى، بهذا الخروج إنتقلوا من عهود العبودية والذل والضلال إلى عهد الحرية والهدى، ولهذا خصصت التوراه سفرا هاما من أسفارها لهذه المناسبة المصحوبة بالمعجزات الربانية الخارقة هو (سفر الخروج)، ويعتبر يوم الخروج من أهم أعياد اليهود ويسمى هذا العيد بالعبرية «عيد الفصح» والفصح معناه العبور، وقد تم الخروج فى يوم ١٤ من شهر أبيب بالتقويم المصرى القديم، لذلك جعل اليهود هذا اليوم بداية للسنة اليهودية، ويقومون فيه بطقوس خاصة إبتدعوا فيها الكثير، وجاء وصف

هذه الطقوس فى «الإصحاح ١٢ - خروج» ومن المعروف أن التوراه الأصلية كانت قد فقدت بعد هزيمة بنى إسرائيل وسبى شعبهم جميعه وترحيله إلى بابل، وعند إعادة كتابتها بعد ذلك بمئات السنين، حرف الكثير من أسفارها، وزيد عليه من الأفكار الوثنية للشعب البابلى الذى عاش بنو إسرائيل تحت أسره، ومن هذه الأساطير إضفاء الصفات البشرية على صفات الرب عز وجل أسوة بالآلهة الوثنية التى كان يعبدها البابليون، وعلى أى حال، فسوف نكتب هنا ما جاء فى إصحاح الخروج عن عملية الخروج وما تم قبلها من إستعدادات لهذا اليوم وما ورد فيها عن الله سبحانه وتعالى من أقاويل لا يصدقها عاقل، ويقال إن العدد الكلى لبنى إسرائيل عند خروجهم من مصر كان ٦٠٠ ألف نسمة، وبدأ الاستعداد للخروج قبل هذا اليوم بأربعة أيام حسب ما جاء فى التوراة، وذلك حينما إستأذن موسى من فرعون بالخروج مع شعبه إلى الصحراء للعبادة والدعاء إلى الرب ليكشف عن المصريين ما حل بهم من بعض الكوارث، وأوهم موسى فرعون بأنهم سيمكثون فى الصحراء أربعة أيام للعبادة، وننقل هذا ما جاء بشأن الخروج فى «الإصحاح ١٢- خروج» :-

(وكلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلا:- «هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور وهو لكم أول شهور السنة، كلما كل جماعة إسرائيل قائلين لهم فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء، وإن كان البيت صغيرا عن أن يكون كفؤا لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب النفوس شاة صحيحة ذكرا إبن سنة، تأخذونه من الخرفان أو الماعز ويكون عندكم تحت الحفظ الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ثم تذبحونه فى العشية، ويجمع دم الذبيحة فى طشت ويعمل من نوع من الحشائش شبه فرشاة وتدهن قائمتى البيت والعارضة العليا من الخارج بالدم») .

وجاء فى التوراة «خروج - ١٢: ٧» ما يلى **(ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها)** وفى الفقرة ١٢ **(فإنى أجتاز أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم، ويكون الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر) .**

وفى الفـقـرة ٢٢ : **(وخـذوا باقـة من نبـات الزوفـا واغـمـسـوها فى الدم الذى فى الطست ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فى الطست،)**.

وتعليقا على ما جاء فى التوراة بشأن هذا الإستعداد للخروج والكلام الذى ذكروه عن أمره سبحانه وتعالى لهم بطلاء عتبات البيوت العليا وقوائم الأبواب بالدم حتى يستطيع سبحانه وتعالى أن يميز بيوتهم عن بيوت المصريين عند ضربه لأبكار المصريين وأبكار مواشيهم فنقول:- هل الرب تعالت قدرته يحتاج لهذه العلامات الدموية ليميز بها بيوتهم وكأنه بشر يخطأ ويصيب؟ وكيف ينزل الرب بنفسه ويمر على البيوت ليضرب الأبكار فى بيوت المصريين ويترك البيوت التى صبغ الإسرائيليون عتباتها بالدم؟ سبحانه وتعالى عما يقولون وتعالى علوا كبيرا، أين هذا من التوحيد الخالص والتنزيه المطلق للخالق جل شأنه كما جاء فى القرآن الكريم فى سورة الأنعام- ٥٩»، وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ صدق الله العظيم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ما هذه الطقوس الوثنية من ذبح للشياه وحفظ دمها فى الطسوت وتلطيخ البيوت به؟ ثم ما ذنب أفراد الشعب المصرى الذين لا حول لهم ولا قوة ولا دخل لهم فى ظلم فرعون لغيرهم، وهم كذلك أذلاء ضعفاء، ما ذنبهم حتى يقتل الرب أبكارهم وأبكار مواشيهم حتى تكون مصر كلها فى مأتم وحزن وعويل كما تقول التوراة بهذا الخصوص فى «سفر خروج ١٢ : ٢٩».

(فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه الى بكر الأسير الذى فى السجن، وكل بكر بهيمة، فقام فرعون ليلا هو وعبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميتا، فدعا موسى وهارون ليلا (أى فرعون)، وقال فرعون أخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعا واذهبوا واعبدوا الرب كما تكلمتم، خذوا غنمكم أيضا وبقركم وأذهبوا وباركونى أيضا، فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم وصروره فى ثيابهم على أكتافهم).

فأنظر معى، أى قسوة هذه القسوة التى تتمنى أن يكون شعب مصر كله فى مأتم، رغم أن النساء الإسرائيليات كانوا قد طلبن جاراتهن المصريات إستعارة حليهن الذهبية ليلبسنها أثناء توجههن إلى الصحراء للعبادة ثم يرجعنها إليهن بعد عودتهن، وهو مالم يحدث، فلو كان أفراد الشعب المصرى يكن لهؤلاء الإسرائيليين أى عداوة أو حقد ما قبلت المصريات إعارة حليهن الذهبية لنساء إسرائيل عن طيب خاطر وبساطة وحسن نية وزيادة فى الود والتسامح كعادة المصريين دائما حتى يومنا هذا، وهل تكافأ هاتيك النسوة على كرمهن وسماحتهن بموت أبكارهن وتحويل كل أرض مصر إلى مآتم؟ وهل هناك غدر أبشع من هذا الغدر؟.

وكذلك، ما هذه الطباع الدموية التى تجعل من الدم دليلا الى بيوت الإسرائيليين حتى يميزها الرب؟ ألم تكن هناك وسيلة أخرى لتمييز البيوت؟ وهل الرب سبحانه وتعالى محتاج لدليل يستدل به على بيوتهم حتى لا يخطؤها؟ وعليه نستطيع أن نقول ان هذه الروايات الدموية التى كتبها كاتبوا التوراة فى أثناء وجودهم فى الأسر البابلى هى البداية الى اعتناق اليهود بعد ذلك لمبادىء العنف الدموى والغدر، ولو كانت هذه الأمور قد حدثت أثناء الإستعداد للخروج لذكرها رب العزة فى القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكما سبق لنا أن ذكرنا فإن الخروج قد تم فى شهر أبيب «يوم الرابع عشر وليلة الخامس عشر» وهو الشهر قبل الأخير من شهور السنة المصرية، وهو المقابل لشهر إبريل فى السنة الميلادية، وهذا اليوم هو عيد الفصح عند اليهود، لذلك جاء «فى سفر الخروج – ١٢ : ١٥» **(هى ليلة (أى ليلة العيد) تحفظ للرب تذكارا، وتعبدونه عيدا للرب، فى أجيالكم تعبدونه فريضة أبدية، وهى ليلة تحفظ للرب لإخراجه إياكم من أرض مصر، هذه الليلة هى للرب تحفظ من جميع بنى إسرائيل فى أجيالهم).**

ويستمر عيد الفصح عند اليهود سبعة أيام من اليوم الرابع عشر حتى الحادى والعشرين، ويحرم فيه أكل خبز من عجين مخمر، بل يصنع فطير ويؤكل سبعة أيام العيد ويسمى عيد الفطيرة.

طريق الخروج واجتياز بني إسرائيل للبحر:-

بعد أن إنخدع فرعون بحيلة موسى وأنه سوف يقود شعبه إلى البرية للقيام بالصلاة الى الرب عدة أيام ثم يرجع بهم إلى أرض جاسان التى كانوا يقيمون بها فى مصر (وهى مكان محافظة الإسماعيلية حاليا)، قام موسى بقيادة بنى إسرائيل فى طريق الخروج التى أوصى له بها الله سبحانه وتعالى، وكان تعداد بنى إسرائيل وقتئذ ٦٠٠ ألف، وخرجوا جميعا بصحبة أغنامهم ومواشيهم وساروا فى طريقهم إلى طرف خليج السويس حيث لا يتعدى عرض هذا الجزء من الخليج عشرة كيلومترات، وكان الخروج هذا فى فصل الصيف حيث تشتد حرارة الشمس، لذلك كان من رحمة الله بهم أن ظلل عليهم الغمام ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴾ «الأعراف ١٦٠»، وكان الغمام يظللهم أينما ساروا طوال رحلتهم إلى شاطىء خليج السويس التى إستغرقت نحو أسبوع، وتم كل ذلك بوحى من الله تعالى إلى موسى عليه السلام، ولكن كاتبوا التوراة إفتروا على الله فى هذه الواقعة إفتراء كبيرا، وكما سبق أن ذكرنا فإنهم كثيرا ما يضفون على الخالق جل وعلا من صفات البشر كما كان يفعل الوثنيون الذين كانوا يعيشون بينهم فى بابل فى فترة السبى البابلى، والتى أعادوا فيها كتابة التوراه، إذ يقول كاتبوا التوراة فى «سفر خروج ١٣ : ٢١»

(وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من سحاب ليهديهم فى الطريق نهارا، وليلا كان على هيئة عمود من نار ليضىء لهم لكى يمشوا نهارا وليلا).

فتأمل معى كيف ينزل الله سبحانه وتعالى من عليائه ويسير أمام هؤلاء عشرة أيام لكى يصلوا إلى شاطىء البحر ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾. *(الكهف ٥)*.

ولما وصلت الأخبار إلى فرعون بخديعة بنى إسرائيل له وخروجهم فى طريق شاطىء خليج السويس، شعر بغضب شديد، وأقسم أن يعيدهم ثانيا إلى مصر ويذيقهم العذاب الشديد، وأخذ بجمع جيشه ويستعد للزحف خلفهم، ويقول الله تعالى فى: «سورة الشعراء ٥٣- ٥٥» ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ . وخرج فرعون فى جنوده فى صبحة اليوم العاشر مع جيش كبير، مزود بعدد كبير من المركبات الحربية والخياله، وتقول التوراة فى «سفر خروج ١٤ : ١٦».

(فشد مركبته وأخذ قومه معه، وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنود مركبية على جميعها، وأسرع جيش فرعون فى الزحف حتى قطعوا المسافة كلها فى يوم واحد، وأصبحوا على مرمى البصر من بنى إسرائيل، ففزع هؤلاء فزعا شديدا، وقالوا لموسىٰ إن القوم سوف يلحقون بنا، وأخذوا يلومون موسى على إخراجهم من أرض مصر)، وتقول التوراة فى ذلك فى «إصحاح ١٤ خروج: ١٠» **(فلما إقترب فرعون، رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم، ففزعوا فزعا شديدا، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب، وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور فى مصر فأخذتنا لنموت فى البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية، فقال موسى للشعب لا تخافوا. قفوا وأنظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم. فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم إلى الأبد. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون. فقال الرب لموسى مالك تصرخ إلى. قل لبنى إسرائيل أن يرحلوا وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه. فيدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءكم فأتمجد بفرعون وكل جيشه ومركباته وفرسانه فيعرف المصريون أننى أنا الرب)** .

ويذكر القرآن الكريم إنشقاق البحر فى إعجاز شديد وبساطة مذهلة حيث يقول: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ «*الشعراء*: ٦٢» . ولكن كاتبوا التوراة رجعوا بعد ذلك وأوردوا فقرة لا يصدقها عاقل نقضت ما كتبوه فى الفقرات السابقة إذ جاء فى الفقرة «٢١ من سفر خروج» ما يلى:-

(ومد موسى يده على البحـر فأجرى الرب بريح شرقية شديدة طول الليل وجعل البحـر يابسـة، وإنشق الماء فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحـر على اليـابسـة والماء وسور لـهم عن يمينهم وعن يسارهم).

فكيف ينتظر بنو اسرائيل طوال الليل حتى تجفف لهم الريح مجرى فى البحـر ولا تدفع الماء إلى الثورة وتحدث به «أمواجا شديدة» وهذه الفقرة العجيبـة نقضت ما ذكر فى الفقرات السابقة من أمر الله لموسى بأن يضرب بعصاه البحر فينفلق فلقين.

سار مـوسى وقـومـه فى الطريق اليـابس الذى شقـه الله له فى قـاع خليج السـويس الى شاطىء سيناء قرب الفجر، وتبعهم فرعون وجنوده عند إنبلاج نور الصبـاح وساروا فى نفس الطريق بعرباتهم الملكية تتقدمهم عربة فرعون وتسير من خلفهم الخيالة حتى إذا توسطوا الخليج إنطبق عليهم الماء فأغـرقـهم أجـمعين، ووقف مـوسى وقـومه يشاهـدون فرق فرعـون وجيشه وما كان ليظنون أبدا أنه سوف يلاقى هذا المصير لولا تدبير المولى سبـحانه وتعالى وحكمتـه، ويقول الله تعالـى فى القرآن الكريم فى وصف ما حـدث ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِيـنَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِيـــنَ (٦٦) ﴾ «الشعراء ٦٤ : ٦٦»، وبعدها ينفرد القرآن الكريم بذكر معجزة أخرى كبرى حـار المفسرون فى تفسيرها حتى تم الكشف عنها فى بداية القرن العشرين.

وقد ذكـر القـرآن الكريم مـحاولة فـرعـون الخداع والمراوغة حـتى ينجيه الله تـعالى من الغـرق، اذ نطق فـرعـون وهو فى حـالة الغـرغـرة بصـيغـة ملتوية يعلن بهـا إيمانه بإلـه بنى إسرائيل ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنـــتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيـــلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنـتَ مِنَ الْمُفْسِدِيـنَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيـكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيـــرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ «يونس ٩٠-٩٢»، هذا ولـم يقـبل الله سبحـانه وتعالى منه شهـادته هذه بل أغرقـه مع من معه، ثم أمر سبحـانه البـحر فـألقى بجثته على الشاطىء. وقد حاول المفسرون الأقـدمون للقرآن الكريم تفسير الآيتين السابقتين تفسيرا لم يكن أبدا مقنعا، فالبعض ذكر أن إلقاء البحـر لجثة فرعون على الشاطىء آية لبنى إسرائيل



شــــكل ٣: مومياء رمسيس الثانى- منظر أمامى



شــــكل ٤: مومياء رمسيس الثانى- منظر جانبى وقد إرتفعت يده اليسرى إلى أعلا الدليل على المعجزة القرآنية.

الذين رأوا جيش فرعون وهو يغرق، ولكن هذا التفسير يشوبه القصور، فكيف يتسنى لبنى إسرائيل بعد أن عبروا البحر أن يروا جثة فرعون على الشاطىء الآخر، وتذكر الآية أن وجود جثة فرعون سوف تكون آية للأجيال التى تأتى بعد ذلك (**لتكون لمن خلفك آية**)، و الراجح أن المصريين نقلوا جثة فرعون من على شاطىء البحر وحفظوها كما كانوا يحنطون جثث الفراعين ثم دفنت فى مقبرة الدير البحرى بالصعيد وظلت هناك حتى تم إكتشافها فى سنة ١٩٠٢، ثم أودعت بعد ذلك فى المتحف المصرى بالقاهرة، ويذكر بعض المؤرخين أن خبير الآثار إبراهيم النواوى ذكر أنه بعد نقل مومياء رمسيس الثانى إلى متحف بولاق، قام بفك اللفائف الكتانية لإجراء الكشف الظاهرى على المومياء ولمعرفة ما يوجد تحت لفائف الكتان من تمائم أو جواهر ونمو ذلك، ولكن بمجرد فك لفائف الكتان القديمة، إرتفعت اليد اليسرى لرمسيس الثانى فجأة بمجرد فك اللفائف وهى حال غير مألوفة مما أصاب الحاضرين بالذعر والذهول، والوضع المألوف أن تبقى يد المومياء بعد فك اللفائف فى وضع متقاطع فوق صدرها، ودهش العلماء الأجانب الذين حضروا هذه الواقعة، إذ كيف ترتفع يد الملك إلى أعلى بعد أن تيبست عضلاته، وظل على هذا الوضع لمدة ثلاثة آلاف سنة، وكأن رمسيس الثانى يشير بيده إلى المعجزة القرآنية ويقول أنا المقصود بالآية التى ذكرها الله فى القرآن الكريم، وقد بقى بدنى لتشاهده الأجيال التى تأتى من بعدى وترى قدرة الله تعالى وكيف ينكل بالطغاة الظالمين مهما بلغت قوتهم وطال أمد طغيانهم ولكن الكثير من الناس قد غفلوا عن مغزى هذه الآية العظمى التى ذكرها القرآن الكريم قبل الكشف عن مومياء فرعون بأكثر من ثلاثة عشر قرنا، ومازال الكثيرون غافلون عن مغزى هذه الآية القرآنية العظمى (**وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون**) صدق الله العظيم.

ومما يجدر الإشارة إليه أن غرق فرعون وجيشه كان فى عام ١٢٢٥ ق.م أى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وأن عمر فرعون حينما غرق كان تسعون عاما قضى منها ٦٧ عاما فى حكم مصر.

الفصل الثاني

بنو إسرائيل فى سيناء
نزول التوراه وتمرد بنى إسرائيل

الفصل الثانى

بنو إسرائيل فى سيناء

نزول التوراه وتمرد بنى إسرائيل

بعد عبور موسى بقومه إلى سيناء وغرق فرعون وجنده، أخذت النشوة بنى إسرائيل، وصاروا يترنمون بترنيمة النجاة كما ورد فى «إصحاح ١٥ خروج» ومن يستعرض تلك الترنيمة التى جاءت فى الإصحاح المذكور، يجدها فى أبياتها الأولى تمجد الرب على خلاص بنى إسرائيل من جيش فرعون، ولكنها فى نهايتها تفيض حقدا وبغضا على الشعوب المجاورة فى فلسطين، وكأن الرب سبحانه وتعالى هو رب خاص بهؤلاء دون باقى البشر، وينبغى عليه أن يهلك الجميع فى سبيل بقائهم هم، ونسوا أن الله هو رب العالمين جميعا، ومن هذه الترنيمة تتضح لنا بداية نشوء النزعة العنصرية الدموية فى بنى إسرائيل وسبب كراهيتهم للناس وكره الناس لهم، ونذكر على سبيل المثال الأبيات التالية من الترنيمة:-

* من مثلك بين الألهة يارب، ومن مثلك معتزا بالقداسة محاطا بالتسابيح.
* صانعا عجائب تمد يدك فتبتلعهم الأرض.
* ترشد برأفتك الشعب الذى إفتديته.
* تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك.
* يسمع الشعب فيرتعدون. وتأخذ الرعدة سكان فلسطين.
* حينئذ يندهش أمراء أدوم* . أقرياء مؤاب تأخذهم الرجفة.
* يذوب جميع سكان كنعان. تقع عليهم الهيبة والرعب.
* بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يارب.
* حتى يعبر الشعب الذى إفتديته.

---

* «أمراء أدوم أقرياء نواب هم سكان الأردن، وهم أبناء عم لبنى اسرائيل لأن جدهم هو عيسو أخو إسحاق وتوأمه».

* تجيىء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك.
* المكان الذى صنعته يارب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يارب.
* الرب يملك إلى الدهر وإلى الأبد.

ولعل سائل يتساءل، لماذا كان الخروج إلى سيناء بالذات ولم يكن إلى فلسطين؟

وللرد على ذلك أن فلسطين فى ذلك الزمان كانت واقعة تحت حكم المصريين، ومن المحتمل أن يلاحقهم فيها فرعون الجديد وينتقم منهم، وكذلك، كانت سيناء فى هذا الزمان جرداء قاحلة بعيدة عن السلطة المباشرة للفراعنة لأنهم كانوا يعتبرونها معبرا يعبرون منها لغزو الشعوب الآسيوية، وفى هذه الأرض القاحلة، أراد الله تعالى أن يعيش هذا الجيل من بنى إسرائيل الذين تربوا على الذل والعبودية للغير، ثم يأتى الجيل اللاحق منهم وقد تربى على الحرية وتعود على خشونة العيش بعيدا عن الأصنام والألهة التى يعبدها الوثنيون والتى تشبع بحبها جيل العبور، وبذلك يستطيع هذا الجيل اللاحق أن ينفذ شريعة الله ويدخل إلى الأرض المقدسة ويحارب ساكنيها دون خوف أو وجل.

وكان إله القمر هو الإله الذى يعبده بدو سيناء، لذلك إشتق اسم سيناء من إسمه «الإله سين»، وشيد البدو لهذا الإله معابد فى سيناء، وصوره هؤلاء على هيئة بقرة يزين رأسها قرص الشمس بين قرنيها.

وبعد يومين من مسيرة بنى إسرائيل فى سيناء مروا على قوم من البدو يعكفون على عبادة تمثال الإله سين وغيره من التماثيل المصرية فى أحد المعابد، وأيقظ هذا فى نفوسهم ولعهم بالوثنية، وتناسوا المعجزات التى خصهم به الله سبحانه وتعالى وشاهدوها بأنفسهم، وأن نجاتهم من ذل فرعون لم يأت إلا بعد حدوث معجزات إلاهية عظيمة كان آخرها إنشقاق البحر وغرق فرعون وجيشه، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها كما لهؤلاء القوم آلهة مما جعل موسى يستشيط غضبا، وأخذ يعنفهم ويوبخهم على هذا الجهل والجحود ولما يمض على إنشقاق البحر ونجاتهم سوى يومان، ويقول القرآن الكريم فى ذلك ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ «الأعراف ١٣٨ - ١٤١».

ثم سار موسى بقومه الى جنوب سيناء حتى وصل إلى جبل الطور، وهنا طلب منه القوم السقيا، وقالوا لقد نفذ الماء الذى كان معنا وكاد العطش أن يفتك بنا، حينئذ أوحى الله إلى موسى أن يضرب الجبل بعصاه، فأنفجرت من الصخر إثنتا عشرة عينا من المياه العذبة الباردة، لكل قبيلة من قبائل بنى إسرائيل عين منها، وهذه هى عيون موسى الموجودة حتى الآن، وقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ وإذا إستسقي موسي لقومه فقلنا إضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم. كلوا وأشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾.

كان بنو إسرائيل كعادتهم سريعوا التذمر والثورة على موسى ناكرون للجميل ومبالون للغدر لأتفه الأسباب، وهذا هو طبعهم دائما حتى هذه الساعة. فبعد فترة من مسيرتهم فى سيناء، أخذوا يثورون على موسى ويبدون له الندم على مسيرتهم معه، ويحنون لحياة العبودية والذل، وتقول التوراة فى ذلك فى «سفر خروج ١٦ : ١».

[وأتى كل جماعة بنى إسرائيل إلى برية سين (أى سيناء) فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثانى بعد خروجهم من أرض مصر. فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية وقال لهما بنوا إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع. فكلم الرب موسى قائلا سمعت تذمر بنى إسرائيل، كلمهم قائلا: «فى العشية تأكلون لحما وفى الصباح تشبعون خبزا وتعلمون أنى أنا الرب إلهكم»، وفى المساء جاءت ريح تدفع معها أعداد كبيرة من طائر السمان حتى غطت المكان كله وتساقط عليهم فأمسكوا به وذبحوه وطبخوه وأكلوا، وأمروا أن يأخذ كل واحد كفاية يومه ولا يدخر شيئا لأن كل يوم سيأتيهم مثله إلا يوم السبت فلن يأتيهم ولكن يوم الجمعة سيأتيهم ضعف ما يأتى كل يوم حتى يمكنهم أن يدخروا ليوم السبت. وفى الصباح الباكر وجدوا أن سطح الأرض قد تغطى بمادة بيضاء شديدة الحلاوة، فسألوا عنها موسى فقال إنه الخبز الذ أعطاكم الرب لتأكلوه، وأمرهم أن يأخذوا منه مقدار عمر لكل فرد، «والعمر مكيال يوازى ٨,٥

لتر، ولكن لا تختزنوا منه أو تدخروا لليوم التالى لأنه سيأتيهم كل صباح ماعدا يوم السبت، فيدخروا مما يأتيهم منه فى يوم الجمعة) وحلوى المن هذه موجودة حتى الآن فى العراق ويجمعونها فى الصباح من بعض النباتات، ويصنعون منها أصابع تشبه أصابع الملبن بعد خلطها بالفستق، وقد أهدى لى منها ملأ علبة من الورق عند زيارتى للعراق، ويقول القرآن الكريم فى ذلك ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ ***«الأعراف ١٦٠»***.

والسلوى هى طائر السمان. ومع هذا الرزق الكريم فإن أقواما من بنى إسرائيل عصوا الأوامر وخرجوا يوم السبت يبحثون عن المن والسلوى فلم يجدوا شيئا، وفى ذلك تقول التوراة «خروج ١٦: ٢٧» [**ستة أيام تلتقطونه أما اليوم السابع ففيه سبت لا يوجد فيه لأن للرب اليوم سبتا. وحدث فى اليوم السابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوه فلم يجدوا شيئا، فقال الرب لموسى: إلى متى تأبون أن تحفظوا شرائعى ووصاياى، أنظروا إلى الرب أعطاكم السبت. لذلك يعطيكم فى اليوم السادس خبز يومين. إجلسوا كل واحد فى مكانه لا يخرج أحد من مكانه فى اليوم السابع. فاستراح الشعب فى اليوم السابع)**].

وتعليقا على ما جاء فى «إصحاح خروج» عن هذه الأحداث يتبين أن الإيمان لم يدخل إلى قلوب الغالبية العظمى من بنى إسرائيل رغم وجود نبى الله موسى معهم ورغم المعجزات المتلاحقة التى أظهرها الله تعالى لهم والدالة على بالغ قدرته جل وعلا، وعلى كرمه المتواصل وعطاءاته التى أفاضها عليهم، لذلك تجدهم دائما ميالين للتمرد ناكرين للجميل مولعين بالشر.

وبعد مدة من الزمن وتمتعهم بما ينزل الله عليهم من المن والسلوى، بدأ التذمر يدب فى صفوفهم وذهبوا إلى موسى عليه السلام وإشتكوا له سوء الحال وأنهم قد عافوا المن والسلوى، وأنهم إشتاقوا إلى ما تعودوا عليه من طعام فى مصر مثل البقل والقثاء والفول والعدس والبصل، ولكن موسى عليه السلام ثار فى وجوههم ورد عليهم بقوة قائلا: من يريد مثل هذا فليرجع إلى مصر ليذوق هناك الذل والعبودية، ويذكر الله ذلك فى «سورة البقرة ٦١».

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ .

ميقات الجبل ونزول التوراة:-

أوصى الله موسى عليه السلام أن يترك قومه ويذهب إلى جبل سيناء المقدس، ويذكر البعض أن هذا الجبل هو الجبل الذى يوجد فوق سفحه الأن دير سانت كاترين، ولقد جاء فى (سفر خروج ٩ : ١٢).

(ذكر الله لموسى أن هذا الجبل مقدس، وأمره أن يقيم عليه حدودا من كل ناحية وأن يحذر الشعب من أن يصعدوا الجبل. كل من يمس الجبل يقتل قتلا لا تمسه يد بل يرجم رجما أو يرمى رميا. بهيمة كان أو إنسان لا يعيش). ويذكر البعض أن هذا الجبل هو جبل الطور لا جبل سانت كاترين، وأوحى الله إلى موسى أنه يمكث فوق الجبل ثلاثين يوما يتلقى فيها الشريعة مكتوبة على ألواح فيها كل ما أحل الله لبنى إسرائيل وما حرمه عليهم ونحو ذلك من الوصايا التى يعمل بها فى الدنيا ونظام عبادة الله سبحانه وتعالى، ومن لحظة نزول التوراة أصبح بنو إسرائيل يهودا لأنهم إعتنقوا الدين اليهودى الذى أنزل الله فى التوراه على موسى عليه السلام، وأصبحوا بذلك أهل كتاب، وقبل صعود موسى إلى الجبل إستخلف أخاه هارون على بنى إسرائيل حتى يرجع، وأمره بالعدل والإصلاح ولم شمل الشعب، ولقد جاء فى كتب تفسير القرآن لكل من البيضاوى والنسفى والخطيب والألوسى عن هذه الواقعة تفسيرات متطابقة وملخصها أن موسى عليه السلام كان قد وعد بنى إسرائيل وهم فى مصر أنه ان أهلك الله فرعون فإنه سوف يأتيهم بكتاب من عند الله فيه ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره أن يصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه فاستاك أو أكل بعض النباتات، فقالت الملائكة كنا نشم من فمك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأعراف- ١٤٢،

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وبعد تمام الأربعين ذهب موسى إلى البقعة المقدسة المحددة له فى الجبل لميقات ربه، ولكن فرط شوقه لهذا الميقات جعله يطلب من الله سبحانه رؤياه، فرد الله سبحانه عليه بأن الرؤية شيء مستحيل لا يستطيع بشر أن يتحمله ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ «الأعراف- ١٤٣».

هذا ما ذكر فى القرآن الكريم عن هذه الواقعة وفيها إظهار لعظمة الله تعالى جلت قدرته، ولكن رواية التوراه لهذه الواقعة فيها زيغ كبير وبعد عن تقديس الله جل وعلا، وكعادة كاتبوا التوراة أضفوا على صفات الله صفات بشرية، إذ جاء فى «إصحاح خروج ٣٣: ١٨».

(فقال موسى أرنى مجدك قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش. وقال الرب هو ذا عندى حل، فتقف على الصخرة، ولكن متى أجتاز مجدى أضعك فى حفرة فى الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز، ثم أرفع يدى فتنظر ورائى وأما وجهى فلا يرى) . وفى «إصحاح خروج ٣٤: ٥»: **(فنزل الرب فى السحاب فوقف عنده هناك ونادى موسى باسم الرب. فاجتاز الرب قدامه. ونادى: الرب إله رحيم ورءوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء حافظ الإحسان الى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطيئة فأسرع موسى وخر إلى الأرض وسجد)** .

وبعد أن أفاق موسى من غشيته خاطبه الله تعالى وبلغه بأنه قد إصطفاه على الناس برسالاته وكلامه، وأنزلت التوراه عليه مكتوبة على عدد من الألواح فيها كل ما يحتاج إليه بنى إسرائيل من بيان الحلال والحرام ومواعظ وأحكام وتفصيل لكل شيء، وأمر الله فيها بنى

إسرائيل بأن يأخذوا بأحسنها. وتحتوى التوراة بأحكامها على منهاج التوحيد والإيمان الذى أنزله الله على جميع الرسل ليهديهم بها إلى سواء السبيل. ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾ «الأعراف ١٤٤-١٤٥».

وقيل إن عدد الألواح كان عشرة، وإنها كانت مصنوعة من الحجر، ولكن التوراة الحالية تقول إنها كانت مكتوبة فى لوحين إثنين فقط، وعندما ألقاها موسى على الأرض بعد عودته لقومه وغضبه من عبادتهم للعجل فى غيابه، إنكسر اللوحان، فأمر الرب موسى أن يقطع لوحين آخرين من الحجر ويكتب فيهما ما كان مكتوبا على اللوحين المكسورين، وهذا كلام لا يعقل، فلا يمكن أولا أن تكون التوراة ذات الأسفار الخمس مكتوبة على لوحين فقط، وكيف يستطيع موسى أن يصنع لوحين مماثلين وينسخ عليهما ما كان مكتوبا على اللوحين الأصليين المكسورين؟ ويناقض هذا القول ما جاء فى الآيات السابقة من سورة الأعراف.

(وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء) فالألواح هنا جمع، والجمع فى اللغة العربية ثلاثة أو أكثر، أما ما ذكر فى التوراة التى أعيد كتابتها فى فترة السبى البابلى فلا يصدقه عقل، فقد جاء «فى سفر خروج ٣٤: ١» **(ثم قال الرب لموسى إنحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما).**

هل ألواح التوراة كانت من الحجر؟

يقول بعض العلماء أنه لا يعقل أن تكون مادة ألواح التوراة من الحجر، فكيف يقوى موسى على حمل مثل هذه الألواح الحجرية، ولتقدير ذلك فلابد أن نعرف أسفار التوراة الخمسة الأولى التى أنزلت على موسى مكتوبة الآن فى مائة صفحة بالخط الصغير، فلا يعقل إذا أنها كانت مكتوبة على لوحين إثنين من الحجر أو أكثر من إثنين، بل المعقول أنها كانت مكتوبة على مادة رقيقة خفيفة الوزن حيث يقول الله تعالى فى القرآن الكريم، **(والطور**

وكتاب مسطور فى رق منشور) «الطور ١-٣» ويقول المفسرون إنها التوراة لأن القسم كان بجبل الطور الذى نزلت فوقه التوراة، والرق هو رقائق من الجلد أو الورق أو ما شابه ذلك.

التوراة والعهد القديم:

التوراة هى التى أنزلت على موسى عليه السلام، وتشمل الأسفار الخمسة الأولى فقط من العهد القديم، وهى:- التكوين وخروج والعدد واللاوين والتثنية. أما باقى أسفار العهد القديم فقد كتب بعضها أنبياء من بنى إسرائيل الذى أتوا بعد موسى عليه السلام مثل مزامير داوود وأسفار أخرى كتبها حفاظ التوراة والحاخامات حتى يصل مجموع أسفار العهد القديم -بما فيهم التوراة- بعد هذه الإضافات إلى ٣٩ سفرا، ويجمع اليهود أن الأسفار الخمسة الأولى فقط هى التوراة أو الشريعة التى أتى بها موسى عليه السلام، وأما الأسفار التالية التى كتبت على مر العصور فلها نفس قداسة التوراة، لذلك إعتبرت الأسفار التسع وثلاثون كلها كتاب واحد مقدس يطلق عليه العهد القديم، كذلك يطلق على هذا الجزء الملحق بالتوراة التلمود، وتم جمعهما فى كتاب واحد كما سبق أن ذكرنا فى عام ١٠٥ ميلادية باسم العهد القديم.

التوراة في القرآن الكريم

ذكر الله تعالى التوراة فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ككتاب سماوى فيه هدى ورحمة للمؤمنين، ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ «*الأعراف من الآية ١٤٥*»، كذلك يقول الله تعالى فى «سورة البقرة- ٥٣» ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

علي ماذا تحتوي أسفار التوراة ؟:-

تشتمل التوراة (الأسفار الخمسة الأولى فقط) على أجزاء ثلاث:-

الجزء الأول منها يشمل الوصايا العشر (خروج ٢٠) وهى:-

١ - أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر بيت العبودية. لايكن لك آلهة أخرى أمام وجهى (وهذه هى الدعوة للتوحيد).

٢ - لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض ولا تسجد لهم ولا تعبدهن لأننى أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من أعدائى، وأصنع إحسانا إلى ألوف من أحبائى وحافظى وصاياى (وهذه دعوة لنبذ كل أصناف الوثنية).

٣ - لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرىء من ينطق باسمه باطلا.

٤ - أذكر يوم السبت لتقدره، فى ستة أيام تعمل وتنجز كل أعمالك، واليوم السابع سبت للرب ألهك لا تصنع فيه عملا أنت وإبنك وبنتك وعبدك وبهيمتك وأمتك ونزيلك الذى دخل أبوابك لأن الرب خلق السموات والأرض والبحر وكل ما فيها فى ستة أيام وفى اليوم السابع استراح لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه.

٥ - أكرم أباك وأمك لكى يطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك.

٦ - لا تقتل

٧ - لا تزن

٨ - لا تسرق

٩ - لا تشهد على قريبك شهادة زور

١٠ - لا تشته قريبتك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما هو لقريبك.

الجزء الثاني من التوراة يشمل مواصفات بيت العبادة:-

لم يكن بيت العبادة فى ذلك الزمان مبنيا من الطوب أو الحجارة لأن بنى اسرائيل كانوا بدوا رحل لم يدخلوا أرض فلسطين بعد، لذلك كان بيت العبادة متنقلا يفك ويركب فى أى وقت وفى أى مكان، وكان هذا البيت حسب مواصفات التوراة مكونا من:-

١ – الفناء الخارجى يحيط به سور ويوجد بالفناء المحرقة والمغسلة.

٢ – خيمة الاجتماع وبداخلها المسكن الذى يتكون من المَقْدَس وبه المنارة والمائدة ومذبح البخور.

٣ – قدس الأقداس وبه التابوت

٤ – تعليمات خاصة باختيار الكهنة وهيئة ملابسهم ومواردهم.

والجزء الثالث من التوراة هو الشريعة اليهودية:-

وتحتوى على ما يلى:

١ – الإعتراف والتطهير

٢ – الحلال والحرام فى الأكل والشرب وفى الذبائح وكيفية الذبح والتسمية.

٣ – الزواج والطلاق

٤ – الأعياد

٥ – الزكاة

٦ – الصوم

٧ – الصلاة

٨ – زيارة بيت المقدس (الحج).

تمرد بني إسرائيل علي موسي بعد نزول التوراة:-

بالرغم من الآيات والمعجزات التى أجراها الله على يد نبيه موسى وتمتع بها بنو إسرائيل بدءً من تلك التى حدثت أمام فرعون وقومه فى مصر وما حل بالمصريين من كوارث بسبب جحود فرعون وقومه لهذه المعجزات، وبالرغم من المعجزة الكبرى التى تجلت فى إنشقاق البحر ونجاة بنو إسرائيل وغرق فرعون وجيشه وما إلى ذلك من معجزات عظيمة أخرى مثل إنزال المن والسلوى وتظليل الغمام، إلا أنهم دأبوا على التمرد والعصيان والخروج عن طاعة الله، مثل عبادتهم للعجل الذهبى عند ذهاب موسى لميقات ربه لتلقى ألواح التوراة

حـتـى إنهم كـادوا أن يـفـتكوا بـهـارون لما أراد أن يردهـم إلى الصـواب، وهـذا دليل علـى تمكن الوثنية من قلوب هذا الجيل من الإسرائيليين وحبهم للذهب وعبادتهم له.

ولكن العصيان الأكبر لموسى حدث عندما أخبرهم أن الرب يدعوهم إلى دخول الأرض المقدسـة فى فلسطين وإنتـزاعـهـا من سكانهـا، وأنه سوف يؤيدهم وينصـرهم، ولكن الـعـبـودية والذل الفرعونى كان قد تمكن من نفوسهم، وتملكهم الجبن فرفضوا أمر موسى وتمردوا عليه، فحكم الله عليهم بالتيـه فى صـحـراء سـيناء لمدة أربعين عـامـا حـتـى ينتـهـى أجل هـذا الجيل السىء من بنى اسرائيل ويظهر جيل جديد تعود على الحرية والكرامة والشجاعة، ونسرد هنا هذا الحدث بالتفصيل إستنادا إلى ما جاء عنه فى التوراة والقرآن الكريم، وقد بدأت فصول هذا الحدث كما يلى:-

١ - إخـتـار موسى من قـومـه إثنى عـشر نقيبا يمثلون قبائل بنى إسرائيل الإثنى عشر وأرسلهم الى فلسطين للإستطلاع ومعرفة الأحوال بها قبل دخول بنى إسرائيل إليـها، ولما أتم النقباء مهمتهم عادوا بعد أربعين يوما، وتذكر التوراة ذلك فى «عدد ١٣ :٢٦».

(فساروا حتى أتوا موسى وهارون (أى النقباء) وكل جماعة بنى إسرائيل فى قادش برنـبـع فى برية فاران، وردوا إليـهـمـا خبرا وإلى كل الجـمـاعـة وأروهـم ثـمـرة الأرض وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التى أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا، وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن فى الأرض قوى والمدن حصينة عظيمة جدا. وأيضـا قد رأينا بنى عناق هناك. العمـالقة سـاكنون فى أرض الجنوب والحـيـثـيـون واليبوسيون والأموريون ساكنون فى الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانبى الأردن. ولكن كالب بن يفنة (نقيب سبط يهوذا) قال إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرون عليها. وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا لا نقدر أن نصعد لأنهم أشد منا. وأشـاعوا مـذمـة الأرض التى تجـسّسوها فى بنى إسرائيل قـائلين الأرض التى مررنا بها لنتجسسها هى أرض تأكل سكانها. وجميع الشعب الذى رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق، فكنا فى أعينهم كالجراد، وهكذا كنا فى أعينهم).

٢ - التمرد: والمطالبة بخلع موسى: تصنف التوراة حالة التمرد على موسى التى قام بها شعب إسرائيل فيما يلى فى «عدد ١٤» (**فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب فى تلك الليلة وتذمر على موسى وعلى هارون. وقال لهما كل الجماعة:- ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر. لماذا أتى الرب بنا إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف. تصير نساؤنا وأطفاالنا غنيمة. أليس خيرا أن نرجع الى مصر؟ فقال بعضهم نقيم رئيسا ونرجع به إلى مصر. فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بنى إسرائيل. ويشوع بن نون وكالب بن يفنة من الذين تجسسوا الأرض مزقا ثيابهما، وكلما كل جماعة بنى إسرائيل قائلين: الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها أرض جيدة جدا جدا. إن سرنا الرب يدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها أرضا تفيض لبنا وعسلا. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا (أى سنلتهمهم إذا ما حاربناهم) وقد زال عنهم ظلمهم والرب معنا سيهزمهم. لا تخافوهم. ولكن جماعة بنى إسرائيل هددوا يشوع بن نون وكالب بالرجم بالحجارة لموقفهما وتحبيذهما إقتحام الأرض. وكان جل خوف بنى إسرائيل من بنى عناق وذريته ويسمون العناقيون، وكانوا يوصفون بالجبابرة لطول قاماتهم وشدة بأسهم فى الحرب، وكانوا يسكنون جنوب فلسطين بين القدس والخليل، وتعب موسى كثيرا فى حث قومه على دخول الأرض والرضوخ لأمر الله سبحانه وتعالى الذى نجاهم من فرعون وجيشه وقد كانوا أكثر قوة وبطشا من هؤلاء العماليق، ولكن القوم ثاروا عليه ورفضوا الإستجابة له، فبشرهم موسى بالخزى والخسران المبين**)، ويذكر القرآن الكريم ذلك فى (سورة المائدة «٢١ - ٢٦»: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي

فافْرُقْ بَيْنَنا وبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيـهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾. وهذه الآيات القرآنية الكريمة هى أبلغ تصوير لهذه الأحداث مرت ببنى إسرائيل ووصف معجز لعصيانهم وتمردهم. وتقول التوراة أيضا فى وصف رد الله سبحانه وتعالى على هذا التمرد المخزى وجحود نعمة الله عليهم فيما جاء فى «عدد ١٤:١١»:- **(وقال الرب لموسى:- حتى متى يهيننى هذا الشعب وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم. إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم (أى شعبا من ذرية موسى). ولكن موسى راح يتوسل الى الله ألا يهلك بنى إسرائيل فقال: فالآن لتعظم قدرة سيدى. الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة. إصفح عن ذنب هذا الشعب لعظمة نعمتك. فقال الرب قد صفحت حسب قولك ولكن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم. وجميع الذين أهانونى لا يرونها. قل لهم حى أنا. يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم فى أذنى (عندما قالوا ليتنا متنا فى هذا القفر). فى هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من إبن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمروا على. لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها ماعدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون. وأما أطفالكم الذين قلتم يكون غنيمة فإنى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى إحتقرتموها. فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر وبنوكم يكونون رعاة من القفر أربعين سنة. أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة. فى هذا القفر يفنون ويموتون. فمات الرجال الذين أشاعوا المذمة الرديئة على الأرض بالوباء. وأما يشوع بن نون وكالب بن يفنة فعاشا).**

وهكذا حكم الله على هذا الشعب الكثير التذمر والتمرد ونكران الجميل والعصيان بالتشرد فى دروب سيناء القاحلة أربعين سنة حتى يفنى هذا الجيل السيء من بنى إسرائيل ويبرز الجيل التالى الذى يكون قد تشرب بالحرية وتربى على التوحيد والعبودية لله تعالى وعدم الخوف من الناس مهما بلغت سطوتهم وقوتهم ماداموا على الحق والطاعة لله والعمل بالمنهاج

الربانى الذى هو ميراث جميع الأنبياء. ومات هارون فى سيناء ولم ير الأرض المقدسة، أما موسى فإن الله تعالى كان قد وعده برؤية هذه الأرض المقدسة دون أن يدخلها، وحدث ذلك عندما وقف موسى على ربوة عالية ونظر منها إلى أرض فلسطين ودعا للإسرائيليين الذين كانوا يوشكون على إقتحام الأرض بقيادة فتى موسى يشوع بن نون، وتقول التوراة فى وفاة موسى «تثنية ٣٤».

(وصعد موسى من عربات مواب إلى رأس الفسجة التى قبالة أريحا (جبل ينبو) فأراه الرب جميع الأرض وقال له الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا: لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكن إلى هناك لا تعبر. ومات موسى هناك حيث عبد الرب). ولا يعرف أحد مكان قبره حتى اليوم، ويقال إن موسى حينما مات كان قد بلغ من العمر ١٢٠ عاما وكان ذلك فى سنة ١١٦٠ ق.م.

النشيد الختامي لموسي عليه السلام

تقول التوراة إن موسى قبل أن يموت أنزل الله عليه نشيدا وأمره أن يعلمه لبنى إسرائيل. ونورد هنا ما جاء فى هذا النشيد الأخير وهو آخر ما بلغه موسى عن ربه لقومه:-

(وقال الرب الآن أكتبوا لأنفسكم هذا النشيد، وعلم بنى إسرائيل إياه. صنعه فى أفواههم لكى يكون هذا النشيد شاهدا على بنى إسرائيل لأنى أدخلتهم الأرض التى أقسمت لأبائهم تفيض لبنا وعسلا فيأكلون ويشربون ويشبعون ويسمنون ثم يلتفتون الى آلهة أخرى ويعبدونها ويزدرون بى وينكثون عهدى. فمتى أصابته شرور كثيرة وشدائد يجاوب هذا النشيد أمامه شاهدا لأنه لا ينسى من أفواه نسله. فكتب موسى النشيد. ونطق فى مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد الى تمامه:-

أنصتى أيتها السموات لأتكلم. ولتسمع الأرض أقوال فمى

إنى باسم الرب أنادى

أعطوا عظمة لإلهنا. إن جميع سبله عدل. إله أمانة لا جور فيه وعادل هو ياشعبا غبيا غير حكيم. الرب تكافؤن بهذا؟ أليس هو تحملك وأنشأك؟ أذكر أيام

القدم. وتأملوا سنى دور فدور (أى أيام اللف والدوران والتيه فى سيناء) أسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولون لك.

هكذا الرب وحده إقتاده. أركبه على مرتفعات الأرض. فأكل ثمار الصحراء
وأرضعه عسلا من حجر وزيتا من صخر الصوان
سمنت وغلظت واكتسيت لحما وشحما
فرفض الإله الذى عمله. ذبحوا لأوثان ليست آلهة
فرأى الرب وقال أحجب وجهى عنهم.
أجمع عليهم شرورا. وأنفذ سهامى فيهم اذ هم حادون من جوع ومنهكون من حمى.
أرسل فيهم أنياب الوحوش
إنهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم
لو عقلوا لفطنوا لهذه وتأملوا آخرتهم
كيف يطرد واحد ألفا لولا أن الله سلمهم
لأن من جفنة سدوم جفنتهم، ومن كروم عمورة عنبهم. عنب سم لهم وعناقيد مرارة ان يوم هلاكهم قريب لأن الرب يدين شعبه وعلى عبيده يشفق.
أسمعوا قوله: أنا هو وليس معى إله. أنا أميت وأحيى وإنى لأشقى
إنى أرفع يدى الى السماء وأقول حى أنا إلى الأبد
أرد نعمتى على أعدائى وأجازى بيغضى
فهللوا أيها الأمم لأنه يصفح عن شعبه

ومن يستعرض هذا النشيد يجد أنه يدور فى مجمله حول توحيد الله وإخلاص العبودية له، ويحذر من عصيان أوامره أو الإشراك به، ثم تنبأ بما سوف يحدث لدولة إسرائيل عندما يتمادوا فى العصيان حيث يبددهم الله وينكل بهم ويشردهم، وعندما يعودون لطاعته يصفح عنهم ويعيدهم الى الأرض، وإن رجعوا الى العصيان ثانيا ينكل بهم من جديد، ويذكر هذا النشيد مدى عناء شعب إسرائيل ونكرانه لجميل الله سبحانه وتعالى وإستعداده دائما للنكوص والفساد.

الفصل الثالث

الشريعة اليهودية وأسفار التلمود
وتشويه أحكام الشريعة اليهودية

الفصل الثالث

الشريعة اليهودية وأسفار التلمود
وتشويه أحكام الشريعة اليهودية

سبق أن ذكرنا هنا أن العهد القديم يتكون من ٣٩ سفرا، وهو ينقسم إلى قسمين، القسم الأول هو التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام، وهى مكونة من خمسة أسفار هى:- تكوين- خروج - لا ويون عدد- تثنية، وتسمى الأسفار الخمس هذه أيضا أسفار الشريعة، أما باقى أسفار العهد القديم فلم تنزل على موسى، ولكنها كتبت عن أنبياء بنو إسرائيل بعد الذين ظهروا بعد موسى عليه السلام وكذلك ما كتبه بعض كبار الحاخامات، وتسمى هذه الأسفار التلمود، وتتميز بالسرد التاريخى للأحداث لذلك تسمى أيضا بالأسفار التاريخية، وبعض من هذه الأسفار يحتوى على ما يسمى كتب الحكمة وتشمل مزامير داوود وأمثال سليمان ونشيد الإنشاد وهى أسفار يغلب عليها الطابع الأدبى.

هذه هى أسفار الكتاب المقدس التسع والثلاثون، ويعتبر ما جاء بها أخبارا وتاريخا لشعب إسرائيل خلال ألفى سنة قبل الميلاد منذ أن هاجر إبراهيم عليه السلام من أور الكلدانيين (فى العراق) إلى أرض كنعان (فلسطين) وإستقر بها نهائيا بعد عودته من رحلته إلى مصر حيث أهداه فرعونها السيدة هاجر المصرية التى أنجبت له إسماعيل جد العرب، ولم تلبث زوجته سارة أن أنجبت له يعقوب الذى يسمى إسرائيل وهو حد بنى إسرائيل.

وباختصار شديد، فبعد غزو بنى إسرائيل لأرض فلسطين بقيادة يشوع بن نون أقاموا فيها بعد مدة مملكة بلغت ذروة إزدهارها فى عهد سليمان وداوود عليهما السلام، ثم إنقسمت دولة إسرائيل بعد موت سليمان إلى دولتين فى عام ٩٢٢ ق. م، دولة فى الشمال تضم العدد الأكبر من أسباط بنى إسرائيل (عشرة أسباط) وكانت عاصمتها مدينة شكيم وسميت هذه الدولة إسرائيل، ودويلة صغيرة أخرى فى الجنوب عاصمتها أورشليم سميت دولة يهوذا، ثم سقطت دولة إسرائيل الشمالية على يد الأشوريين فى عهد الملك سرجون الثانى سنة ٧٢١

ق.م وضربت وزالت نهائيا من الوجود، ولكن دويلة يهوذا ظلت موجودة فى الجنوب إلى أن حاصرها نبوخذنصر (بختنصر) ملك بابل واستولى عليها سنة ٥٨٦ . ق.م، وأخذ جميع سكانها أسرى ورحلهم الى بابل وعاشوا أسرى فى بابل وعبيدا على مدى مائة وخمسون عاما حتى إنتصر قورش ملك الفرس على بابل فى القرن الرابع قبل الميلاد وأعاد اليهود إلى فلسطين تحت رعايته وسيادته، وكان هذا الملك قد تزوج زوجة جميلة من اليهود هى التى أثرت عليه ودعته إلى إرجاعهم إلى فلسطين، وسمح لهم قورش بإعادة بناء الهيكل ولكنهم فى هذه المرة لم تكن لهم مملكة بل كانوا محكومين بالفرس ومن بعدهم الإغريق ثم الرومان، وإنتهى أمرهم فى عهد الإمبراطور الرومانى هادريان فى سنة ١٣٥ م. الذى هدم الهيكل وضرب مدينة أورشليم وحرقها وحرث أرضها، وتفرق أهلها فى مشارق الأرض ومغاربها.

وفى أثناء النفى إلى بابل، أحرقت التوراة ثم أعيد كتابتها بعد مائة عام على يد عدد من الحاخامات برئاسة أليعازر الذى يعتبره اليهود نبيا بل كادوا ليؤلهونه، وفى هذه المرة كان يعتمد فى كتابة التوراة إلى حد كبير على ما تناقلته أجيال الحاخامات الذين تأثروا كثيرا بالحياة فى بابل الوثنية، وما كان معروفا بها من أساطير وأقاويل وثنية لا تمت إلى التوراة بأى صلة، ولذلك تميزت التوراة المكتوبة فى هذا العهد بتسرب الكثير من هذه الأساطير والتعاليم الوثنية إليها، ومن ذلك تجسيد الرب سبحانه وتعالى وإضفاء صفات بشرية عليه كما كان الحال بالنسبة لألهة البابلين، كما دخلت فيها الكثير من العبارات التى تنضح بالحقد على جميع الشعوب، ولكن الأسفار الخمسة الأولى منها لم يدخلها الكثير من التحريف، لذلك سوف نركز على ما جاء فيها من أحكام وأمور تتصل بالعبودية لله تعالى والتوحيد، وقد إمتدح الله سبحانه وتعالى توراة موسى فى الكثير من آى الذكر الحكيم ووصفها بالهداية والنور لإنها تحتوى على نفس الناموس والنهج الذى أنزل على جميع الأنبياء عليهم السلام، و إليك بعض ما جاء فى آى من القرآن عن التوراة:-

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ *المائدة ٤٤*.

هذا ويعتبر الأنبياء جميعا فى حكم شريعة الإسلام مسلمون، لأن الإسلام معناه أن يستسلم الفرد لله تعالى ويلتزم بكل أوامره ونواهيه، كذلك يأمر الإسلام أتباعه بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل السابقين على بعثة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، دون تفرقة بين أحد منهم، كذلك من أركان الإيمان الأساسية فى الإسلام أن يؤمن المسلمون بجميع الكتب السماوية السابقة، التى يعتبرها الإسلامى ناموسا ربانيا واحدا يكمل بعضها بعضا، ويقول الله تعالى فى ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ «النساء ١٣٦».

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ «آل عمران ٦٤».

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ «البقرة ٥٣».

وترك الإسلام للناس حرية إعتناقه باختيارهم دون إكراه، فقط يطلب من الإنسان أن يحكم عقله فى معطيات القرآن الكريم ومبادىء الإسلام القويمة وله بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن. ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ «البقرة ٢٥٦».

أنظر معى كيف كرم الله فى القرآن جميع الرسل والكتب المنزلة وكيف وصف التوراة بالنور والهداية، وأنها هى الدستور التى يحكم به فى الدنيا حتى نزول القرآن الكريم بالشريعة الإسلامية السمحة الشاملة الصالحة لكل زمان ومكان، ويقول الله تعالى فى ذلك ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

ولَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة ٤٨).

وأهم ما جاء فى توراة موسى هى الوصايا العشر التى سبق لنا ذكرها فى مكان آخر، وهذه الوصايا مماثلة لما جاء فى القرآن الكريم من وصايا ذكرت فى أكثر من موضع وأجملت فى سورة الأنعام حيث يقول تعالى:-

قل تعالوا أقل ما حرم ربكم عليكم:-

١ - ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

٢ - وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً.

٣ - وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.

٤ - وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

٥ - وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٦ - وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

٧ - وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا.

٨ - وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى.

٩ - وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

١٠ - وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام ١٥١-١٥٣).

والفواحش التى ذكرت فى هذه الآيات هى الزنا وزنا المحارم واللواط، والوفاء بالعهد يعنى الصدق فى المعاملات بين الناس وتحريم السرقة والإختلاس وعدم الحنث فى الأيمان.

ويذكر مفسروا القرآن الكريم فى شرح الآية ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ (البقرة ٥٣)، أن الكتاب هو أحكام الشريعة الموسوية وأما الفرقان فهى الوصايا العشر.

صعوبة وقسوة أحكام الشريعة الموسوية

تتصف أحكام الشريعة الموسومة بالصعوبة والشدة وذلك لكى تناسب شعب بنى إسرائيل وميلهم دائما للعصيان والتمرد، ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ «النساء ١٦٠». ومن سمات هذا التشدد ما يلى:-

١ - تعدد المحرمات وكثرتها بصور غير مسبوقة فى الشرائع السابقة على نزول التوراة ولا فى شريعتى المسيحية والإسلام، وقد فصلت التوراة هذه المحرمات فيما يلى:-

(وكلم الله الرب موسى وهارون قائلا:- كلما بنى إسرائيل قائلين لهم هذه هى الحيوانات التى تأكلونها:-

كل ما شق ظلفه إلى شقين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون.

ولذلك فالجمل محرم أكله لأنه غير مشقوق الظلف ولو أنه مجتر.

والخنزير محرم لأنه لا يجتر ولو أنه مشقوق الظلف، كذلك تحرم السباع والكلاب والسنانير، ويحرم أكل الأرانب وغيرها من القوارض آكلات العشب حيث أنها لها أظافر وليس لها أظلاف مشقوقة، وشحوم الحيوانات محرمة إلا ما كان موجودا منها على الظهر أو مختلطا بالعظام أو بين الأمعاء، والدم محرم وما إقتطع من لحم البهيمة وهى حية.

ومن مظاهر التشدد ما ذكر فى «سفر لاويين ١١ : ٢٩» (ابن عرس والفأر والضب والجرذون والورل والحرباء. هذه هى النجسة من الدبيب الذى يدب على الأرض. وكل من مسها بعد موتها يكون نجسا إلى المساء ثم يطهر، وكل من وقع عليه واحدا منها بعد موتها يكون نجسا الى المساء ثم يطهر، وإذا وقع منها شىء ميت على كل متاع من خشب أو ثوب أو جلد يكون نجسا، وكل متاع يتنجس يلقى به فى الماء ويكون نجسا الى المساء ثم يطهر، وكل متاع من الخزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه لأن ما يأتى عليه ماء من كل طعام يكون نجسا) .

والتنورة والموقد يهدمان. إنها نجسة وتكون لكم نجسة.

فتأمل معى هذا التشدد، وكيف يستمر الفرد الذى أصابه فأر أو برص نجا حتى المساء، أما التنور (الفرن) فيهدم والأوانى الخزفية تكسر، وتستطرد التوراة فى ذكر المحرمات (**وهذه الأنواع من الطيور تكرهونها ولا تؤكل:- النسر والأنوق والعقاب والحدأة والغراب والنعامة والباز والبوم والقواص والكركى والبجع واللقلق والببغاء والهدهد والخفاش، ودبيب الطير الماشى على أربع فهو مكروه لكم ماعدا ماله كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض** (الإصبع فى الساق التى لا تلامس الأرض كما فى الدجاج والأوز والبط والسمان) **والعصافير تؤكل، والجراد على أجناسه يؤكل**).

وتستطرد التوراة قائلة: (**هذا ما تأكلونه من جميع ما فى المادة:- كل ماله زعانف وحرشف فى مياه البحار والأنهار فإياه تأكلون. لكن ما ليس له حرشف ولا زعانف من كل نفس حية فى البحار والأنهار فلا تأكلوه**) وعليه فإن الأسماك التى لا يغطى جسمها حراشيف (أى قشور) لا تؤكل مثل ثعبان الماء والقرموط والبياض والأخطبوط والجمبرى والمحار.

ومن النجاسات فى الشريعة اليهودية طمث النساء، ومن مس إمرأة أثناء الحيض فهو نجس، لذلك يعتزلها الرجال ولا يوجدون فى أى مكان توجد به، وكل من مسته إمرأة فى هذه الحال فهو نجس.

أما المرأة التى تلد ذكرا فتظل نجسة سبعة أيام ثم يختن الطفل فى اليوم الثامن وتكمل المرأة فترة النفاس بعد ذلك ٣٣ يوما، ولا يصرح لها أثناء ذلك أن تمس أى شىء مقدس، أما إذا ولدت بنتا فتظل نجسة أسبوعين ونفاسها بعد ذلك ٦٦ يوما.

وبعد إنتهاء النفاس يجب عليها أن تقدم إلى كاهن المعبد خروفا ابن سنة يضعه فى محرقة المعبد مع فرخ حمام أو يمام تقدمه إلى الكاهن يذبحه تكفيرا لحطاياها.

والذى يصاب بمرض البرص، يعتبر نجسا ينفيه الكاهن خارج مكان إقامة الجماعة ولا يرجع أبدا حتى الموت.

وأى شخص يموت فى حجرة أو خيمة سواء كانت الميتة طبيعية أو قتلا فهو نجس، ويعتبر المكان الذى مات فيه –حجرة كان أو خيمة– نجسا لمدة ٧ أيام، كذلك كل الأوانى والفرش الذى كان بها.

وكل الأشخاص الذين كانوا بها أو دخلوها تصيبهم النجاسة

وكل من لمس جثة إنسان ميت فهو نجس وينقل نجاسته إلى كل شيء يمسه.

والنجاسة المكتسبة عن طريق المس تستمر مع الفرد المتنجس طول النهار ولا تزول إلا بعد غروب الشمس.

أحكام المعاملات في الشريعة اليهودية:-

إمتازت هذه الأحكام بالشدة والغلظة ولذلك يصعب تطبيقها، فمثلا:–

١ – من ضرب أباه أو أمه يقتل.

٢ – من شتم أباه أو أمه يقتل.

٣ – من سرق إنسان وباعه أو وجد فى حوزته إنسان مخطوف يقتل.

٤ – والشاهد الذى يكتم شهادته يرتكب خطية.

٥ – وحلف اليمين الكاذبة أو الحنث فى اليمين خطية.

وفى حالة الخطية يقدم المذنب الى الرب «كاهن المعبد» أنثى من الخراف أو الماعز كذبيحة تكفير خطية، فيغفر له الكاهن خطيئته، وان كان المخطىء فقيرا فيكفيه أن يقدم الى الكاهن فرخى حمام أو يمام يذبح أحدهما ذبيحة خطية أما الآخر فيقدم الى مذبحة المعبد.

وإذا أخطأ أحد سهوا فى أقداس الرب يقدم إلى الكاهن كبشا سمينا تكفيرا عن خطأ السهو.

وتعليقا على هذه الأحكام يتضح مدى شدة أحكام الشريعة الموسوية مقارنة بسماحة الاسلام ويسره، وتقديم القرابين فى الشريعة اليهودية جزء أساسى من هذه الشريعة، فهى تقدم فى العديد من المناسبات مثل:–

١ – تكفير الخطايا والإعتراف بالذنب.

٢ – الشكر على السلامة والنجاح.

والقرابين تكون من الحيوانات المستأنسة من غنم أو بقر أو معز بشرط أن يتعدى عمرها سنة (حولية)، أما الفقراء فيمكنهم أن يقدموا فرخى حمام فقط كقربان.

والقرابين من الحبوب تقدم كفطير معجون بالزيت ويسمى خبز الوجوه ويوضع على مائدة الرب فى المعبد كل يوم سبت.

طقوس تقديم القرابين:-

عند تقديم ذبيحة القربان، يضع المخطىء يده على رأسها ثم يعترف بذنبه، ويقوم الكاهن بذبح الحيوان وسلخه وتقطيعه، ثم يحرق فى محرقة المعبد ما أمر به الرب أن يحرق ويتصرف الكاهن فى الباقى حسب أوامر الرب.

أنـــواع القرابـــــين:-

يوجد نوعان من القرابين:

١ – قربان يقدم كله إلى الرب وهذا يحرق بأكمله ويسمى قربان محرقة.

٢ – قربان يخصص قسم منه للرب ويحرق، وقسم آخر للكهنة أولهم ولمقدم القربان، كما فى القرابين التى تقدم فى الأعياد أو ذبيحة الشكر وذبيحة السلامة.

٣ – ذبيحة الخطية وهذه لا يسمح لمقدمها أن يأكل منها لأنه مرتكب للإثم، فهو معترف بعدم إستحقاقه للشركة مع الرب فلا يأكل هو منها، وفى هذه الحال يجب على الكاهن أن يرش من دم الذبيحة على زوايا المذبح الأربعة (المحرقة) وعلى قوائم باب الدار الداخلية وعلى قرون المذبح الأربع ثم تحرق الجثة.

وإذا إرتكبت جماعة خطيئة، وقدمت قربانا فإن الكاهن يأخذ من دم الذبيحة ويرش منه على غطاء تابوت الشهادة (أى الذى يحتوى على التوراة ويوجد بالمعبد) سبع مرات، وهذه الذبيحة تكون ثورا.

من هذا يتضح مدى التعقيد الشديد فى مراسم تكفير الخطايا، والدور الذى يلعبه الكاهن أو الحاخام فى ذلك، وحرق الذبائح فى محرقة المعبد (أو المذبح كما يطلقون عليها) ورش الدم على قوائم الدار وقوائم المذبح، أليس فى هذه الممارسات الدموية ما يحبب الإسرائيليين فى سفك الدماء؟ وحرق الأجناس وتعودهم على هذه الطقوس، ألا تفسر ولعهم بالتنكيل بأعدائهم وتمزيق أجسادهم والتمثيل بها كما فعلوا ذلك فى الكثير من قرى ومدن فلسطين ولبنان، وما فعله السفاح شارون فى صبرا وشاتيلا وقرية قبية وأم الفحم وغيرها، فتعود رؤية الدم وحرق جثث الذبائح يوحى لهم بفعل نفس الشيء مع البشر الذين يعتبرونهم قرابين بشرية وربما كانوا يعتقدون أن الرب سوف يبارك هذا العمل ويجزيهم عنه جنة وحريرا.

ومضات من نور النبوة في ثنايا توراة موسي:-

من يتصفح توراة موسى الموجودة الآن (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم) ورغم ما أصابها من تحريف، إلا أن المرء يلمس فى أجزاء كثيرة ومضات من نور النبوة تذكرنا بما يقصه علينا القرآن الكريم عن التوراة، وما أنزل من الهداية والنور، فمثلا من يقرأ وصايا الوداع التى أوصى بها موسى قبل موته يجد فيها من أنوار الهداية الشيء الكثير، ولقد ألقى موسى على قومه خطبا ثلاث قبل موته يسمونها خطب الوداع أو وصايا الوداع، وإليك هنا مما جاء فى الخطبة الأولى منها وهى خطبة طويلة نقتطف منها ما يلى:-

بدأ موسى هذه الخطبة بمقدمة ذكر الشعب بتاريخ بنى إسرائيل وبعهود الذل التى عاشوها فى مصر، ثم رحمة الله بهم وبعثه لنبيه موسى إليهم، والمعجزات الألهية التى أجراها الله على يده أمام فرعون وقومه والتى كدرت حياتهم وأذلتهم، ثم بين بعد ذلك المعجزة الكبرى التى تمثلت فى شق البحر واجتياز بنى إسرائيل له ثم غرق فرعون وقومه عندما حاول اللحاق بهم وإنطباق شقى الماء عليهم، ثم يسرد ما عاناه من عناد الشعب وعصيانه ونكرانه لجميل موسى وجميل الرب عليهم فى أثناء وجودهم فى سيناء ثم حكم الرب عليهم بالذل وتأديبه لهم بالوباء والقحط وشظف العيش والشقاء، ثم ما حدث من رفض الشعب دخوله الأرض المقدسة وعقاب الرب لهم بالتيه أربعين عاما فى سيناء، ثم يتطرق إلى إقتحام الجيل التالى منهم بأمر الرب أراضى الشعوب المجاورة (فلسطين) وإنتصارهم

عليهم بإذن الرب وأخذهم للكثير من الغنائم والسبايا من تلك الشعوب التى هزمت فى ديارها، ثم يبشرهم بقرب دخولهم إلى الأرض المقدسة وإستيلائهم عليها، كما وعد الرب أبيهم ابرهيم بذلك.

وبعد هذه المقدمة التاريخية إنتقل موسى فى خطبته إلى الوصايا الهامة التى أوصى بها شعبه حتى لا يفقدوا نصر الله وتأييده لهم، ومن هذه الوصايا عبادة الله وحده وعدم الإشراك به أو عبادة الأصنام، وأمرهم بتحطيم كل الأصنام التى يجدونها فى البلاد التى سوف يفتحها الله عليهم، ونلخص ذلك فى النقاط التالية:-

١- الحث على عبادة الله تعالى وعدم الإشراك به حيث يقول موسى عليه السلام:

(فالآن ياإسرائيل، إسمع الفرائض والأحكام التى أنا أعلمكم لتعملوها لكى تحيوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التى الرب إله آبائكم يعطيكم. إحفظوا وصايا الرب التى أوصيكم بها. أعينكم قد أبصرت ما فعله الرب بكل من ذهب وراء بعل تفور (إله الكنعانيين). أباده الرب من وسطكم، أما أنتم الملتصقون بالرب فجميعكم أحياء ،وهى الحادثة التى ذهب فيها بعض أبناء بنى إسرائيل إلى معبد بعل وتعبدوا له أثناء مرورهم فى أرض كنعان،. وقد علمتكم أحكام ما أمرنى الرب إلهى لكى تعملوا بها فى الأرض التى أنتم داخلون إليها فاحفظوا واعملوا بها، وإحفظ نفسك جيدا لكى لا تزول من قلبك، وعلمها لأولادك وأولاد أولادك.

لا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا شبه ذكر أو أنثى أو شبه بهيمة مما على الأرض أو شبه طائر مما يطير فى السماء وتسجد لها وتعبدها. أشهد عليكم الأرض والسماء وإن فعلتم ذلك أن تبيدون سريعا من الأرض ويبدوكم الرب فى الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب اليها).

ملاحظة:- لاحظ فى هذا الجزء من الخطبة سمات التوحيد الخالص لله والتقرب إليه وحده بالعبادة، فإن نقضوا هذا العهد يهزمهم الرب ويفرقهم بين الأمم، وقد حدث هذا بالفعل. ويذكر القرآن الكريم هذه الوصايا فى سورة «البقرة - ٨٣» ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي

إسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وحدث أنه عندما نقضوا هذا العهد فيما بعد أن تعرضوا للهزيمة وأخرجهم الله من الأرض المقدسة وفرقهم بين الأمم كما تنبأ بذلك موسى عليه السلام، وذاقوا من ضروب الذل والمهانة ما ذاقوا، وفى هذا يقول الله فى القرآن الكريم فى «سورة الأعراف- ١٦٧» ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٢ - تحطيم الأصنام فى الأرض التى يدخلونها ويقهرون أهلها :-

فيقول موسى عليه السلام:-

(هذه هى الفرائض والأحكام لتعملوها فى الأرض التى أعطاك الرب. تخربون جميع الأماكن التى عبدت فيها الأمم التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سواريهم وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون إسمهم من ذلك المكان) .

٣ - عدم طاعة أى دعوة لعبادة الأصنام :-

(وإذا أغواك إبن أمك أو إبنتك أو إمرأتك أو صاحبك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولك فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عليه ولا يرق له قلبك، بل قتلا تقتله يدك تكون عليه لقتله ثم أيدى جميع الشعب، أخيرا ترجمه بالحجارة حتى يموت لأنه إلتمس أن يطرحك عند الرب إلهك الذى أخرجك من مصر. وإذا سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب لتسكن فيها قولا قد خرج من أناس من وسطك قائلين نذهب ونعبد آلهة أخرى فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها. وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها) .

٤ – فى الفقرة الرابعة من الوصية يؤكد موسى ثانيا على التوحيد فيقول:–

إسمع ياإسرائيل الرب إلهنا واحد. فتحب الرب بكل قلبك وقصها على أولادك حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم. وأربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك.

٥– فى الفقرة الخامسة من الخطبة يحض موسى ثانيا على عدم عبادة الأصنام

ويهون من أمر الشعوب الوثنية مهما كان عددهم وقوتهم فإن الرب سوف يهزمهم، ويأمرهم بألا يقتنوا فضة ولا ذهبا منقوشا عليها أصنام من آلهة القوم، كما أمر موسى بعدم مصاهرة بنات أو شباب تلك الشعوب الكافرة.

٦ – فى الفقرة السادسة يذكر موسى لقومه أن خير الدنيا يأتى مع طاعة الله والإيمان به فيقول:

(إعلم أن الرب إلهك هو الرب الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان لمن يحبونه ويحفظون وصاياه والذين يعملون بأحكامه يحبهم ويباركهم فيكثر ثمرة بطنك وثمرة أرضك قمحك وزيتك ونتاج بقرتك وإناث غنمك. لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك ويرد الرب عنك كل مرض.

٧ – فى الفقرة السابعة يحض موسى عليه السلام شعبه على شكر الله دائما وتذكر نعمه عليه فيقول:–

(تذكر كيف سار بك الرب هذه الأربعين سنة فى القفر لكى يجربك ليعرف ما فى قلبك أتحفظ وصاياه أم لا. فأذلك وأجاعك وأطعمك المن لكن يعلمك بأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان.

متى شبعتم فى الأرض التى تملكونها تبارك الرب لأجل الأرض الجيدة التى أعطاك. إحترز من أن تنسى الرب إلهك ولا تحفظوا وصاياه وأحكامه وفرائضه. فإذا

شبعت وبنيت بيوتا وكثرت بقرك وغنمك وكثرت لك الفضة والذهب يرتفع قلبك وتنسى الرب. ولئلا تقول فى قلبك قوتى وقدرة يدى إصطنعت لى هذه الثروة. بل أذكر الرب أنه هو يعطيك قوة لإصطناع الثروة).

٨ - فى الفقرة الثامنة يذكر موسى الشعب بأن الله يهزم أمامهم الشعوب بخطايا تلك الشعوب لا بقوة شعب إسرائيل فيقول:

(لأجل إثم هذه الشعوب يطردهم الرب من أمامك ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم، بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب من أمامك).

٩ - فى هذه الفقرة يهدد موسى الشعب بانتقام الله إذا ما حاولوا عبادة آلهة أخرى فيقول:-

(الرجل الذى يذهب لعبادة آلهة أمم أخرى وأصنامهم تحل عليه كل اللعنات ويمحو الرب إسمه من تحت السماء، وتناله الضربات والأمراض. وأرضه تصبح كبريت وملح لا تزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب. وأذكر كيف اشتعل غضب الرب على أمم واستأصلهم الرب من أرضهم مثل سدوم وعمورة وأدمة وحبوئيم (مدن قوم لوط) لأنهم ذهبوا وعبدوا آلهة أخرى وسجدوا لها).

١٠ - فى الفقرة العاشرة من الخطبة يذكر موسى الشعب بأن العبد العاصى إذا رجع الى الرب فإنه يغفر له ذنوبه فيقول:-

(ومتى أتت عليك كل هذه الأمور فإن رجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أوصيك به أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك، يرد الله إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك الرب الهك بينهم. إن يكن بددك إلى أقصى السموات فمن هناك غيره يجمعك ويأتى بك إلى الأرض التى إمتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكترث ويجعل الرب إلهك كل هذه اللعنات على أعدائك وعلى مبغضيك الذين طردوك).

وقد حدث هذا بالفعل بعد نفى بنى إسرائيل إلى بابل وظهور أنبياء لهم هناك فى المنفى قادوهم ثانيا إلى طاعة الله فأرجعهم الله إلى فلسطين.

والملاحظ فى هذه الوصايا التى أوصى بها موسى شعبه تأكيده على مبدأ التوحيد ونبذ عبادة الأصنام والشرك بالله، والتوكل على الله والإعتراف بفضله وكرمه وطاعته والإخلاص فى عبادته وإطاعة أوامره وترك نواهيه، كما يهون موسى فيها من شأن الأمم الكافرة مهما بلغت قوتها وثرواتها وزادت أعداد شعوبها، فإن ذلك لن ينفعهم ماداموا غارقين فى الشرك والآثام، وأن المؤمنين من بنى إسرائيل يستطيعون أن يغلبوا هذه الأمم الفتية الكبيرة إذا ما أخلصوا العبادة لله وأطاعوه، فمن أجل آثام وذنوب هذه الأمم يستطيع المؤمنون أن يغلبوهم بإذن الله مهما كانوا أقل منهم عددا وعدة.

تعليق علي خطبة موسي عليه السلام:-

تشع خطبة موسى الثانية هذه بأنوار التوحيد والعبودية الخالصة لله تعالى ونبذ جميع صور الشرك بالله ونبذ عبادة الأصنام والبعد المطلق عن الوثنية والتوكل على الله خير التوكل، وشكره الدائم على نعمه وذكره الدائم فى السر والعلانية والخوف من عقابه، كذلك يقرر موسى فى خطبته هذه بأن الرخاء والبسطة فى الأموال والأولاد والمعاناة من الأمراض ترتبط بطاعة الله وشكره وأداء الفروض ونبذ المعاصى، كذلك فإن البعد عن المنهج البريانى يؤدى حتما إلى هزيمة الشعب ومذلته وتفرقه بين الشعوب، فإذا عاد الشعب إلى الطريق المستقيم وطاعة الله والإلتزام بمنهجه جمعهم الله ثانيا من جميع أنحاء الأرض بعد تفرقهم فيها وأرجعهم ثانيا إلى الأرض المقدسة.

ومما ذكره موسى عليه السلام أن المؤمنين ينتصرون على الشعوب الكافرة ليس بقوة عددهم ولا عدتهم وإنما بطاعتهم لله وعصيان وآثام الشعوب الكافرة وخذلان الله تعالى لهم مهما بلغت قوتهم.

وهذا المنهج الذى ذكره وأكده موسى فى خطبته ورسمه لشعبه هو نفس الناموس الربانى الذى دعا اليه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فى رسالته الجامعة الشاملة الصالحة لكل زمان ومكان والتى كان الإسلام بها هو الدين الخاتم وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة آل

عمران- ٦٤: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وإذا تأملنا وصايا موسى عليه السلام ورجعنا إلى القرآن الكريم لإستطعنا تفسير الحقيقة المؤلمة وهى أن تجميع الله لبنى إسرائيل فى فلسطين وإغتصابهم لها فى هذا العصر ليس بسبب رجوعهم إلى طاعة الله سبحانه وتعالى والتزامهم بالمنهج الربانى وتنفيذهم لوصايا التوراة، فهم أبعد الشعوب عن ذلك ومازالوا من أكثر أهل الأرض فجورا وآثاما.

ولكن تم لهم ذلك بسبب غفلة المسلمين والعرب وابتعادهم عن المنهج الذى أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكثرة مشاحناتهم مع بعضهم وتفرقهم وعدم إجتماعهم على رأى وشدة بأسهم فيما بينهم مع تخاذلهم الشديد وتفرقهم أمام الأعداء وحيانتهم لقضايا شعوبهم، وتبديد الثروات العظيمة التى حبا بها الله بلادهم على ملذاتهم ومعاصيهم وسفاهاتهم التى عرفوا بها فى جميع أنحاء الأرض. فهل ينتظر مع ذلك أن ينصرهم الله أو تقوم لهم قائمة؟ ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ «الرعد ١١» صدق الله العظيم.

الفصل الرابع

تسرب المعتقدات والطقوس
الوثنية إلي الفكر اليهودي

الفصل الرابع

تسرب المعتقدات والطقوس الوثنية
الي الفكر اليهودي

عاش بنو إسرائيل فى مصر زمنا طويلا وكونوا مجتمعا خاصا بهم فيها، وبمرور الزمن إنحرف عدد كبير منهم عن ديانة التوحيد وملة أبيهم إبراهيم وشاركوا المصريين فى عبادة الآلهة المصرية وأداء الطقوس الوثنية فى المعابد، ولم يسلم من هذه المشاركة إلا القليل الذين إستطاعوا أن يحافظوا على عقيدة التوحيد والعبودية الخالصة لله تعالى، وكان من بين هؤلاء موسى وهارون، وولع العبرانيون خاصة بعبادة العجل أبيس معبود شرقى الدلتا وأقاموا له الطقوس حيث أنهم كانوا رعاة ويمثل البقر عندهم قيمة كبيرة، وحتى عندما شق الله سبحانه وتعالى لموسى البحر وجعل منه طريقا يابسا يجتازونه إلى سيناء هربا من فرعون، وغرق فرعون وجنوده أمام أعينهم، لم يثنهم ذلك عن إعتقادهم فى ألوهية العجل أبيس، وانتهزوا فرصة غياب موسى عنهم وذهابه لميقات ربه، فصنع لهم السامرى عجلا من ذهب وعكفوا على عبادته حتى رجع موسى إليهم وحطم إلههم المزعوم هذا، وتكررت دعوتهم لموسى بأن يجعل لهم آلهة كما كان لبدو سيناء آلهة، لأن الوثنية كانت متمكنة من قلوبهم، وبعد دخولهم إلى فلسطين وإنشائهم دويلتيهم على أرضها (دويلة إسرائيل فى الشمال ودويلة يهوذا فى الجنوب) أخذ الشعب يحن إلى الوثنية، وكان الكثير منهم يقيم الطقوس لعبادة الإله بعل إله الكنعانيين والإله عشتروت إله الكلدانيين.

وبعد القضاء على دويلتيهم ونفيهم الى بابل، إختلطوا بأهل بابل ومارسوا معهم طقوسهم الدينية الوثنية رغم أن الله سبحانه وتعالى كان يرسل إليهم فى سنى النفى نبيا من حين إلى آخر، وكتبت أسفار التلمود (٣٤ سفرا) فى فترة النفى البابلى، لذلك من يقرأ هذه الأسفار يشعر بالتخبط ودخول الأفكار والروايات الوثنية إليها، وعدم تجانسها وتناقض ما جاء فيها من أخبار وتواريخ.

وقد تم ضم الأسفار الجديدة الأربعة والثلاثون بعد ذلك إلى أسفار التوراة الخمسة وأطلق عليها جميعا اسم العهد القديم، والتوراة لفظ سامى معناه (الناموس)، لأنه كما سبق أن ذكرنا يتناول فى أسفاره الخمسة أصل الكون وتاريخ العالم ودخول الشعب اليهودى إلى أرض كنعان- كما تحتوى على أسس ديانة التوحيد والشريعة اليهودية.

أما كلمة يهود فمشتقة من لفظ (يهوه) وهو اسم الله تعالى باللغة العبرية، وفيما بعد أطلقوا فى مملكة إسرائيل الشمالية لفظ (ألوهيم) للدلالة على الله سبحانه وتعالى بدلا من يهوة، وظل إستعمال اسم يهوة مقصورا على الإسرائيليين من سكان مملكة السامرة فى جنوب فلسطين، ولما تغلغلت الوثنية فى قلوبهم أخذوا يفعلون كما يفعل سكان الممالك الوثنية المجاورة حيث أن لكل بلد منها إله خاصا بها يعبد من دون الآلهة فى الممالك الأخرى، وهكذا فعل الإسرائيليون، فأهل الجنوب يعتبرون يهوة هو إلههم من دون الناس، والشماليون إعتبروا ألوهيم إله خاصا بهم، والكل يعتبر أن الرب (رب بنى إسرائيل) هو رب إسرائيل من دون سائر البشر، و أنهم هم شعب الله المختار أما باقى شعوب الأرض فيطلقون عليهم اسم (الأغيار)، والبشر الموجودون فى سائر بلاد الأرض (الأغيار) ليس لهم وزن ولا قيمة، والرب يعتبرهم كالحيوانات، وأنه سبحانه وتعالى قد ندم على خلقه لهم، لذلك فدمائهم وأرضهم وأموالهم حلال لليهود، لذلك حرموا الربا فيما بينهم ولكنهم أحلوه لأنفسهم إذا إكتسبوه من الأغيار، كذلك فإن الحصول على أموال الأغيار بأى طريقة يعتبر حلال لهم، وهكذا عاش اليهود فى جميع الأزمان يكرهون البشر والبشر يكرههم، وإذا ما تواجدوا فى مجتمع ما، عزلوا أنفسهم عن المجتمع المحيط بهم وعاشوا فى أحياء خاصة بهم تسمى (الجيتو)، وأخذوا يمارسون جمع الأموال عن طريق الإقراض بالربا ومن مجال القمار ومن تسخير بنات الأغيار للعمل بالدعارة، كذلك فإنهم فى سبيل جميع الأموال قد تخصصوا فى إثارة الفتن والحروب فى كل مكان فى العالم ليكتسبوا الأموال من تجارة السلاح والتجسس، وإفتعال الأزمات الإقتصادية، وأصبح المال هو معبودهم المفضل فى كل مكان يتواجدون فيه، وطغى حبهم للمال على حبهم وإخلاصهم لله سبحانه وتعالى، لأن الرب لا يحاسبهم على ما يفعلونه بالأغيار، لأنهم شعبه المختار، وقد عقد معهم عقد إتفاق يسيدهم به على جميع شعوب الأرض وإليك ما جاء عن هذا العقد فى أسفار العهد القديم:-

عقد إتفاق بين الرب وشعبه المختار:-

جاء فى سفر التكوين الإصحاح السابع عشر ما يلى:-

(ولما كان إبرام إبن تسعة وتسعين سنة، تجلى له الرب وكلمه وقال له:- لا يكون إسمك أبرام بعد اليوم، بل سيكون إسمك إبراهيم (إبراهام) لأنك أب جمهور من الأمم وسأنميك جدا جدا وأجعلك أمما وملوك منك يخرجون وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك أجيالهم عهد الدهر، لأنى لك إلها ولنسلك من بعدك، وأعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكا مؤبدا وأكون لهم إلها).

هذا هو العهد الذى أبرمه الرب مع إبرام والذى تتكرر الإشارة اليه فى معظم أسفار العهد القديم وأن الله قد اختار شعب إسرائيل شعبا له وإختار لنفسه أن يكون إلها لهم، وفى مقابل هذه الصفقة الرابحة يعطيهم إلههم أرض كنعان ملكا خاصا لهم ويجعلها تفيض لبنا وعسلا، ويكثر عددهم حتى يجعلهم يفوقون نجوم السماء ورمال الصحراء عددا، هذا هو العهد الذى قطعه الرب على نفسه والذى يصفه رجال الدين اليهود بأنه عقد زواج حيث تكثر الإشارة فى أسفار العهد القديم إلى زنا إسرائيل وأن إله إسرائيل قد أعطاها كتاب الطلاق وأنه سيعود لزواجها بعد أن يرضى منها.

وإختصاص إله بشعب أو بقبيلة من القبائل هو طابع كل المعتقدات الوثنية فى العصور القديمة، فلكل مدينة أو لكل مجتمع إلهه الخاص به الذى يحميه ويرعاه ولا يدين هذا المجتمع لغيره من الآلهة بالعبودية.

وهذه الآلهة القبلية تغار من الألهة الأخرى وتشتبك مع بعضها فى حروب كثيرة، وقصة إيزيس وإيزوريس وحوريس معروفة فى الديانة المصرية القديمة.

ولكن هذه الفكرة الساذجة تطورت مع الزمن ومع إتساع تجارب الإنسان حتى وصلت وحدانية الله تعالى إلى ذروتها فى العقيدة الإسلامية، فالله سبحانه وتعالى هو رب العالمين جميعا الذى جعل منهم شعوباوقبائل ليتعارفوا، ولا فضل لعربى على عجمى ولا أحمر على

أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، والناس سواسية كأسنان المشط، وكلهم لآدم وآدم من تراب، هذه هى قيم الإسلام الراقية الخالدة.

نقض اليهود لعقد إتفاقهم مع الرب:-

تعترف أسفار العهد القديم بنقض اليهود لعقد الإتفاق مع الرب، وتركهم عبادته ونبذهم وصاياه وهجرهم للشريعة اليهودية وعبادتهم آلهة الشعوب الأخرى، فاستحقوا لذلك غضب الرب الذى شتتهم فى جميع بقاع الأرض، وأزال دويلتيهم وأذلهم.

ففى أراميا الإصحاح الثالث يقول أراميا

(أسمعوا كلمة الرب ياآل يعقوب وياجميع عشائر آل إسرائيل -هكذا قال الرب، ماذا وجد فى آبائكم من الظلم حتى إبتعدوا عنى واقتفوا الباطل وصاروا باطلا، لقد أدخلكم أرض كرمل (فلسطين) لتأكلوا ثمارها وطيباتها، لكنكم ظلمتم ونجستم أرضى وجعلتم ميراثى رجسا، الكهنة لم يقولوا أين الرب، ودارسوا الشريعة لم يعرفونى، والرعاة عصونى فيه، لذلك أخاصم بنى بنيكم).

ويمضى نبى بنى إسرائيل أراميا يقول فى نفس الإصحاح (قال لى الرب هل رأيت ما فعلت المرتدة إسرائيل، كيف إنطلقت إلى كل جبل وإلى تحت كل شجرة خضراء زنت هناك، وبعد أن صنعت ذلك كله قلت لها إرجعى ولم ترجع، ورأت أختها الغادرة يهوذا (دويلة اليهود الجنوبية) أنى بسبب المرتدة إسرائيل (دويلة اليهود الشمالية) قد سرحتها ودفعت اليها كتاب الطلاق (أى ألغى عقد الإتفاق) فلم تحس يهوذا ما حل بأختها بل ذهبت وزنت هى أيضا، ولاستسهالها الزنى نجست الأرض وزنت مع الحجر ومع الخشب.).

ويقول أراميا كذلك فى الإصحاح السابع: **(أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون الزور وتقدمون القرابين لبعل وتتبعون آلهة أخرى لم تعرفوها. لقد جعلتم هذا البيت الذى دعى باسمى (أى هيكل سليمان)** مغارة للصوص أمام أعينكم.)

ويقول نبى اليهود أشعيا فى الإصحاح الأول أشعياء:-

(كيف صارت المدينة الأمنة زانية وقد كانت مملوءة إنصافا، وفيها مبيت العدل، أما الآن ففيها قتلة، ورؤساؤك عصاة وشركاء للسراق، كل ركب الرشوة لا ينصفون اليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم). وفى إصحاح «عدد - ٣٥»:

وأقام بنو إسرائيل بشطيم (وهى فى طريقهم من سيناء إلى فلسطين) فأخذ الشعب يفجرون مع بنات مؤاب، اللواتى دعون الشعب إلى أن يذبح لآلهتهن، وتعلق بنو إسرائيل بالإله بعل فاشتد غضب الرب على إسرائيل.

وهكذا تحفل أسفار العهد القديم بخروج بنى إسرائيل عن طاعة الرب ونبذهم لأحكامه وولعهم بالزنا وعبادتهم لآلهة الأمم الأخرى حتى فى عهودهم الأولى من دخول فلسطين.

تصوّر صورة الرب كما يتصوره الشعب الوثني في بابل:-

سبق لنا أن ذكرنا أن كتاب العهد القديم يحفل بالصور غير اللائقة لله سبحانه وتعالى وكأنه أحد آلهة بابل له صفات بشرية وسلوك إنسانى ومما لاشك فيه أن ذلك التصور قد تسرب إلى العهد القديم فى عصر السبى البانى والذى أعيد فيه كتابة التوراة وباقى أسفار العهد القديم ففى واقعة صعود موسى إلى جبل سيناء لميقات الرب واصطحابه لسبعين رجلا من بنى إسرائيل لشهود هذا الموقف الرهيب، تدعى التوراة أن هؤلاء الرجال رأوا الله سبحانه وتعالى، إذ جاء فى «إصحاح ٢٤- خروج» ما يلى:

(وقال الرب لموسى إصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهو (وهما الإبن الأول والثانى لهارون) وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد، وليقترب موسى وحده الى الرب وهم لا يقتربون، وأما الشعب فلا يصعد معه، ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق من الشفاف وكذات السماء فى النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل، فرأو الله وأكلوا وشربوا).

وهذا الكلام العجيب الذى ورد فى هذا الاصحاح يتعارض مع ما جاء فى نفس الإصحاح «٢٣ : ٢٠»:- **(لأن الإنسان لا يرانى ويعيش)**.

ومع هذا يبرر بعض مفسرى الكتاب المقدس هذا الكلام (جاميسون وفاوست فى تفسير الإنجيل ص ١٠٦) فيقولان:- «إن ما رأوه هو رمز لمجده وبهائه كشفه لهم ورأوا عرشه مصنوعا من الياقوت الأزرق وهو أغلى أنواع الأحجار الكريمة». ولعل فى ذلك أكبر دليل على نزعتهم إلى تصور الإله فى صورة بشرية، وهذا الكلام يدحضه القرآن الكريم «فى سورة البقرة ٥٥، ٥٦»: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

ومن هذه التصورات الوثنية لطبيعة الإله ما ذكرته التوراة بعد ذلك من أن بنى إسرائيل جميعا شهدوا تجلى الله على الجبل وسمعوا صوته وهو يكلم موسى ولكن عن بعد، فقد جاء فى «إصحاح خروج ١٩ : ٩»:-

(فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا الى الأبد، وأخبر الرب موسى أن يأمر بنى إسرائيل فليتطهروا لمدة يومين لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء. وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا إحترزوا من أن تصعدوا الى الجبل أو تمسوا طرفه. وفعلوا كما أمر الرب وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أن صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا، فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة (أى المكان الذى كانوا به). وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله، فوقفوا فى أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا، فكان صوت البوق يزداد إشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل ودعا موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى فقال الرب لموسى إنحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون. فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء لأنك حذرتنا قائلا أقم حدودا للجبل وقدسه).

ومن يتأمل ما جاء فى التوراة بهذا الخصوص لابد أن يذهب بفكره إلى بابل الوثنية والتى أعاد فيها كاتبوا التوراة كتابتها فى عهد السبى البابلى، ومن معتقدات البابليين الوثنية

إعتقادهم فى وثن يقدسونه هو إله الربوات وهو إله المناطق الشمالية من بابل التى تكثر فيها الرعود والبرق فوق قمم الجبال، وهذه الرعود والبروق بزعمهم تحدث الناس وتحثهم على تقديم القرابين لهذا الإله فى المعابد، أما ما يدعونه من سماعهم صوت البوق الشديد للرب وهو يكلم موسى فهو أيضا ما يعتقده أهل بابل عندما تشتد الرياح فى قمم الجبال ويسمعون مثل هذا الصوت الذى يؤمنون بأنه صوت إله الربوات يحدث الكهنة الذين إنفردوا بفهم لغته دون باقى أفراد الشعب.

الرب يتعب من العمل ويستريح:-

من المعروف أن كهنة بنى إسرائيل قد قاموا بإعادة كتابة التوراة فى بابل فى عهد الأسر البابلى، ومن ذلك ما أعادوا كتابته وصياغته فى القرن السادس قبل الميلاد ودسوا أثناء هذه الكتابة الكثير من الخرافات الوثنية البابلية منها ما جاء فى سفر تكوين من أن الله خلق الكون على مراحل، فى كل يوم من أيام الأسبوع بدءاً من يوم الأحد يخلق مرحلة، ثم يراجع ما خلق فى آخر اليوم فيراه حسنا، ثم يبدأ فى اليوم التالى بخلق مرحلة جديدة ويراجع نفسه فى آخر اليوم فيرى ما خلق حسنا وهكذا حتى أتم خلق العالم فى اليوم السادس (يوم الجمعة) وكان قد تعب من العمل، فاستراح يوم السبت من تعبه، ولذلك فرض هذا اليوم يوم عطلة لبنى إسرائيل لأنه هو أيضا لا يمارس عملا فى هذا اليوم، ونكتفى هنا بسرد ما ورد فى الآيات «من ٢٤ إلى ٣٤ فى سفر تكوين» (**قال الرب: لتخرج الكائنات الحية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها. ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله:- لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. ويتسلطوا على سمك البحر وعلى طيور السماء وعلى البهائم وعلى كل الوحوش والدبابات التى تزحف على الأرض.**

فخلق الإنسان على صورته. وعلى صورة الله خلقه، ذكر وأنثى خلقهما. وباركهما الله وقال لهما: أثمرا وأكثرا واملأ الأرض وأخضعاها وتسلطا على سمك البحار وطيور السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض وقال الله:- إنى قد أعطتكما كل بقل - يحمل بذرا على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر ويحمل بذرا.

لكما يكون طعاما. ولكل الوحوش ولكل طيور السماء ولكل دبابة على الأرض وكائن حى أعطيت كل خضرة النباتات طعاما. وكان ذلك ورأى الله ما عمله فإذا هو حسن جدا. وكان مساء. وكان صباح اليوم السادس. فأكملت السموات والأرض بكل جندها. وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، فاستراح فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه إستراح من جميع عمله للخلق، هذه مبادىء السموات والأرض حين خلقت).

من هنا جاء يوم الراحة عند اليهود هو يوم السبت أو «شباط» كما يسمونه ومن هنا يتضح مدى الإفتراء الذى إفتراه هؤلاء على الله سبحانه وتعالى ومدى تأثرهم بالروايات البابلية الوثنية عن الخلق والخالق، فهو -جلت قدرته- قد خلق الإنسان على هيئته وصورته تماما مثل الإله «عشتار» إله البابليين- وأنه سبحانه وتعالى يجرب فى خلقه ويحسن ويراجع ما يعمله فى كل يوم فى نهاية هذا اليوم ويراه حسنا، ثم تعب من عمله المتواصل على مدى ستة أيام فاستراح فى اليوم السابع، وكأنه بشر يتعب ويستريح، سبحانه وتعالى عما يقولون وتعالى علوا كبيرا. أين هذه الأساطير والخزعبلات مما جاء به الإسلام من تنزيه الله سبحانه وتعالى والوصول بالفرد المسلم إلى قمة التوحيد، ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ *(ق ٣٨)*.

أى أن الله تعالى ليس كأحد من خلقه يحل به التعب فيستريح وهذا دحض لهذه الفدية الإسرائيلية الشنيعة التى لا يصدقها عقل سليم، ولكنها تسربت إلى الفكر اليهودى من المعتقدات الوثنية وتصور الوثنيين لآلهتهم، وإضفاء الصفات البشرية عليهم.

ولكن الفكر الإسلامى القويم ينزه الخالق جل وعلا من كل هذه الأباطيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ *(الشورى ١١)*.

فكيف يشبهون الله تعالى بالإنسان ويدعون أن الله تعالى قد خلق آدم وحواء على هيئته وصورته، أليست هذه وثنية.

تصوير الرب كما تصور الأساطير البابلية ألهتها وولعهم بالشر وسفك الدماء

فقد جاء فى «أشعيا- ٦٦» ما يلى:-

(لأن هو ذا الرب يأتى ومعه النار وعجلاته كالزويعة ليبلغ غضبه بحنق وإنتهاره بلهب النار لأن الرب بالنار والسيف يخاصم كل البشر ويكون قتلى الرب كثيرون) .

هذا هو بالضبط ماتدعيه الأساطير البابلية عن بعض آلهتها المولعة بسفك الدماء لإظهار قوتها وتفوقها على باقى الآلهة الضعيفة المسالمة، مثل الإله البابلى إيروا رب الحرب.

خلو عقيدة اليهود من الإيمان بالبعث والحساب والجنة:-

من يطالع نصوص العهد القديم بدقة نصا نصا لا يجد فيها حديثا عن خلود الروح بعد الموت فضلا عن القول بالبعث والحساب والعقاب فإما إلى الجنة أو النار وهو مانراه فى كافة الأديان السماوية.

وكل النصوص المتعلقة بالعقاب والثواب يكون مسرحها الدنيا لا الأخرة، فإذا عبد بنو إسرائيل الرب ونفذوا وصاياه وحفظوا سبوته التى هى مظهر العهد بينه وبينهم، يجعل الأرض تدر عليهم لبنا وعسلا ويمكنهم من باقى الشعوب المجاورة وينصرهم على هذه الشعوب بذنوب هذه الشعوب فيذلهم بنو إسرائيل ويسخرونهم ويستعبدونهم، ولكن عندما يعصى بنو إسرائيل الرب إليهم يسلط عليهم الشعوب المجاورة تقتلهم وتستعبدهم وتهدم مدنهم، فإذا عادوا إلى الرب أعادهم وهكذا. أما الجنة التى يحلم بها اليهود فهى كائنة على هذه الأرض وفى بيت المقدس بالذات.

وقد نجد إشارة هنا أو هناك مثل القول بأن (الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد)، أو كالحديث عن وجود جب فى الأرض السفلية ونار يهوى إليها العصاة ولا يرجعون منها، ولكن هذه إشارات عابرة تسربت الى الكتابات اليهودية من المعتقدات البابلية، ولكننا لا نجد حديثا عن البعث والحساب والثواب والعقاب كهذا الذى نجده فى الإسلام بل انه ليصادفنا فى

«سفر الجامعة» هذه العبارة التى تقطع بأن اليهود لا يعرفون جنة ولا نار ولا خلودا بعد الموت:-

(لأن ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة، وحادثة واحدة لهم، موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما الى مكان واحد، كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما، فرأيت أن لا شىء خير من أن يخرج الإنسان بأعماله لأن ذلك تصيبه، لأنه من يأتى به ليرى ما سيكون بعده؟.

كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا إختراع فى معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها).

من لذلك يتضح أنه لا يوجد فى كتابهم الحالى ما يدعوهم إلى الإيمان بأنهم يبعثون وأن هناك ثواب وعقاب، وهذا من أسباب تمردهم الدائم وعصيانهم للرب وانكبابهم على الشهوات وحبهم لجمع المال.

ولنرجع الى المعتقدات البابلية الوثنية التى كانت مصدرا لكاتبى التوراة فى عصر السبى البابلى عندما أعادوا كتابتها وزادوا عليها أسفار العهد القديم «ففى هذه البلاد لم يكن هناك إعتقاد فى بعث أو حساب فى حياة أخرى*، مقر الجسد القبر حتى يبلى، أما الروح فتنتقل إلى عالم سفلى هو عالم الأروح تخلد فيه، وليس هناك فى معتقداتهم إشارة واضحة إلى زيارة الروح للجسد بين حين وآخر أو وجود حياة أخرى، تعود فيها الروح إلى الجسد الذى كان لها فى الدنيا فالجسد مصيره إلى الأرض التى لا رجعة منها، والأرواح أيضا فى عالم لا رجعة منه، وهكذا لا ثواب ولا عقاب، فإذا كان الأمر كذلك فإن الحياة الدنيا فى رأيهم هى موطن الراحة والتعب، يلقى الإنسان فيها ما يلقى ولا ينتظره من بعدها شىء، لا أمل لمهضوم حق فى أن ينال تعويضا عن الظلم الذى لحق به، ولا لمعذب فى سبيل الحق أن ينال جزاءً حسنا، ولا عقوبة لمجرم إستطاع أن يضلل العدالة فى الدنيا، فليس هناك حساب دقيق للحسنات أو السيئات، وليس هناك إله ترعى عينه كل شىء وتحصى كل شىء ولا تغفل عن

* مصر والشرق الأدنى القديم ميخائيل إبراهيم.

شيء، فلا عقاب لمسيء ولا ثواب لخير لم ينل ثوابا فى حياته، إذا فكل الأعمال مردودها هنا على الأرض، فثمن الفضيلة وجزاء الرذيلة هنا على الأرض، وفى الواقع فإن عدم وجود حياة أخرى كان هو المعتقد السائد فى كل شعوب العالم القديم ماعدا مصر. أما الشرائع فكانت تؤكد على ضرورة طاعة الملك وتركز على تقديم القرابين للآلهة، وبالطبع كان الكهنة هم الذين يأخذونها، هذا الإعتقاد الخاطيء بعدم وجود حياة آخرة هو الذى أشاع الظلم والفساد فى الأرض وأشاع التجبر والاستعباد، وليس للعدل ولا للرحمة مكان والشعب المطحون لا يملك إلا شرب الجعة والنبيذ».

ومن هذا الإستعراض يتبين لنا المصدر التى تسربت منه هذه الأفكار إلى أسفار العهد القديم، وهذه الأفكار أيضا هى السر فى الفساد الذى يستشرى فى المجتمعات اليهودية وحرصهم على جمع المال بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وارتكابهم لجميع الجرائم من قتل وإبادة لغيرهم فى سبيل الوصول إلى أهدافهم.

الإستغراق في الطقوس:-

من يطالع العهد القديم بدقة فلابد أن يشم رائحة الوثنية التى حرف اليهود اليها دينهم القويم، فجعلوا محور عبادتهم تابوتا يطلقون عليه تابوت العهد، ويخصصون فصولا طوالا فى وصف هذا التابوت، ومن الذى يقترب منه وكيف أن من يلمسه يموت، وهيئة المذبح وخيمة الإجتماع ويخصصون قبيلة معينة من قبائلهم هم اللاويون- ليكونوا هم الكهنة حراس التابوت والعهد المتحدثين باسم الله.

وأحاديث كثيرة من تقديم الذبائح للرب وكيف يتصرف فى دمائها وما يؤكل منها وما يحرق، ومن الذى يأكل ومن الذى لا يأكل.

وما من حركة إلا والهيكل هدفها، وتقديم الذبائح والقرابين أسلوبها.

واحتفالات بعد ذلك تلو إحتفالات تفيض بالطقوس والإجراءات، وعلى رأسها عيد الفصح وهو ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر، ويخصص اليهود أسبوعا لهذه الإحتفالات يأكلون فيه خبزا غير مختمر أو فطيرا..

الفصل الخامس

إتهام بني إسرائيل لكهانهم وأنبيائهم بالخيانة والفسق والشرك والكفر كما ورد في أسفار التلمود

الفصل الخامس

إتهام بني إسرائيل لكهانهم وأنبيائهم بالكذب والخيانة والفسق والشرك والكفر كما ورد في أسفار التلمود

من المعروف أن القيم والمبادىء السامية التى يسير عليها أى شعب من الشعوب تستمد من قيم أنبيائه ورسله وكذلك من رجال الدين وزعماء الشعب الذين يقدمون للناس القدوة الحسنة فى السلوك والتصرف فى كل نواحي الحياة، وترتفع الكتب السماوية المنزلة بالإنسان إلى أعلى مراتب الطهارة وسمو النفس لأنها تحتوى على المنهج والناموس الربانى الذى لا يتغير من نبى إلى نبى ولا من زمان إلى زمان، وسبق لنا أن رأينا أن القيم العليا التى وردت فى توراة موسى (الأسفار الخمس الأولى من العهد القديم) هى نفس القيم والمثل التى نزل بها القرآن الكريم، ولا يذكر القرآن الكريم الرسل إلا بكل تبجيل واحترام، بل يطلب الإسلام من معتنقيه الإيمان المطلق بجميع الرسل وما أنزل عليهم من كتب مقدسة، بل والصلاة عليهم إذا ذكر إسم أحدهم مثلما نقول إبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وهكذا.

ولكن من يتصفح أسفار العهد القديم يندهش من كم المنكرات والتصرفات غير اللائقة التى يلصقها كاتبوا العهد القديم بأنبياء الله ورسله والتى برأهم القرآن الكريم منها، ولا ليت الأمر إقتصر على هذا، بل بلغ التطاول مداه حتى وصل إلى الذات الإلهية التى كثيرا ما ينسبون إليها الخطأ ثم الرجوع فى أوامره وتصويب خطأه عندما ينبهه الى ذلك موسى عليه السلام، وأذكر هنا على إستحياء شذرات عما ورد من بهتان ضد بعض الرسل والأنبياء فى هذا الكتاب ومنها:-

١ - نبى الله لوط يضاجع إبنتيه بعد شربه للخمر:-

جاء فى «سفر تكوين- الإصحاح التاسع عشر» :- (وصعد لوط من صوغر وأقام فى الجبل هو وابنتاه معه، إذ خاف أن يقيم فى صوغر فأقام فى المغارة هو

وابنتاه، فقالت الكبرى للصغرى إن أبانا قد شاخ وليس فى الأرض رجل يدخل علينا على عادة أهل الأرض كلها، تعالى نسقى أبانا خمرا ونضاجعه، ونقيم من أبينا نسلا، فسقتا أباهما خمرا تلك الليلة وجاءت الكبرى وضاجعت أباها ولم يعلم بقيامها ولا منامها، فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى ها أنذا ضاجعت أبى أمس، فلنسقه خمرا أيضا الليلة وتعالى فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلا، فسقتا أباهما خمرا تلك الليلة أيضا وقامت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بمنامها ولا قيامها، فحملت إبنتا لوط من أبيهما، وولت الكبرى إبنا سمته مؤاب وهو أب المؤابين حتى اليوم، والصغرى أيضا ولدت إبنا سمته بنعمى وهو أبو بنو عمون إلى اليوم) .

وهذا الذى ذكره فى العهد القديم عن لوط وابنتيه من الفحشاء والمنكر وشرب الخمر حتى الثمالة ما يعف عن إتيانه أى إنسان عادى وما تقشعر منه الأبدان، فكيف بنبى من أنبياء الله تعالى أن يشرب الخمر حتى الثمالة ثم يزنى مع إبنتيه وتنجب البنتان من أبيهما إبنان من الزنا؟، فإذا كان هذا هو مسلك الأنبياء وبناتهم فكيف يكون مسلك الأفراد العاديين من أفراد الشعب؟.

٢ - ما حدث من خداع يعقوب عليه السلام لأبيه إسحاق لإغتصاب حق أخيه عيسو:-

عيسو هو الأخ التوأم ليعقوب عليه السلام، ولأنه نزل من بطن أمه أولا فإنه يعتبر الإبن البكر، وكان عيسو يعشق حياة البرية والصيد ويتغيب كثيرا من منزل أبيه، وقد أثرت الحياة البرية فيه، فأصبح جلداً يده خشنا ينمو عليه شعر كثيف، هذا بخلاف أخيه يعقوب الذى كان يلازم البيت مع أبيه إسحاق عليه السلام، وكانت أمهما تميل كثيرا إلى يعقوب وتفضله على عيسو، وكان من عادة شيوخ العبرانيين أن يعطوا البركة للإبن البكر قبل موتهم، ومباركة الإبن البكر هذه كانت تعتبر من أهم الأشياء فى حياة الإبن البكر والأسرة، وتبنى عليهما أشياء كثيرة مثل إرث الإبن البكر لجميع أموال والده وممتلكاته مثل ما يحدث فى بريطانيا حتى اليوم، وفى هذا الموضوع تقول التوراة «إصحاح ٢٧ تكوين»:-

(وحدث لما شاخ إسحاق وكفت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو إبنه البكر وقال له :- يابنى إنى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى. والآن خذ عدتك وجعبتك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيدا وأصنع لى أطعمة كما أحب دائما لآكل منها حتى تباركك نفسى قبل أن أموت.

وكانت رفقة سامعة (ورفقة هى زوجة إسحاق وأم عيسو ويعقوب)، فذهب عيسو إلى البرية، وأما رفقة فكلمت يعقوب إبنها قائلة :- إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا :- إئتنى بصيد وأصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى، فالآن يابنى إسمع لقولى فى ما أنا آمرك به، إذهب إلى الغنم وخذ من هناك جدى جديين من المعز، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب وتحضرها لأبيك ليأكل حتى يباركك، فقال يعقوب لرفقة هو ذا عيسو أخى رجل أشعر، وأنا أمسلس، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة، فقالت أمه :- لعنتك على يابنى، إسمع لقولى. فذهب وأحضر لأمه فصنعت له أطعمة كما كان أبوه يحب، وأخذت رفقة ثياب عيسو إبنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها، وألبستها إبنها يعقوب، وألبست يديه وملامسة عنقه جلود جدى المعزى وأعطته الأطعمة والخبز الذى صنعت.

فدخل إلى أبيه وقال ياأبى، فقال ها أنذا، من أنت يابنى، فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك، قد فعلت ما كلمتنى، قم وإجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك، فقال إسحق لإبنه: ما هذا الذى أسرعت لتجد يابنى؟ فقال:- إن الرب إلهك قد يسر لى، فقال إسحاق: تقدم لأجسك يابنى، أأنت عيسو أم لا، فتقدم يعقوب إلى إسحاق فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن أليدان يدى عيسو، ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى أخيه عيسو، فباركه وقال هل أنت عيسو إبنى؟ فقال أنا هو فقال له: - قدم لى الأكل من صيد إبنى حتى تباركك نفسى، فقدم له الأكل فأكل، وأحضر له خمرا فشرب، وقال له إسحاق تقدم ياإبنى وشم رائحة ثيابه وباركه وقال:- أنظر رائحة إبنى كرائحة حقل قد باركه الرب، فليعنك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل، كن سيدا لإخوتك وليسجد لك بنو أمك، ليكن لا عنوك ملعونين ومباركون مباركين، وفرغ إسحاق من مباركه يعقوب وإنصرف يعقوب.

وحدث أن عيسو أتى بعده وصنع طعاما كما أمره أبوه، ودخل به إليه، فقال إسحاق من أنت؟ فقال أنا إبنك بكرك عيسو، فارتعد إسحاق وقال فمن هو الذى إصطاد صيدا وأتى به إلى وباركته؟ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جدا وقال لأبيه:- باركنى أنا أيضا يأبى، فقال:- قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك، فقالك ألا إن إسمه يعقوب، فقد تعقبنى الآن مرتين، أخذ بكوريتى وهو الآن يأخذ بركتى ثم قال أما بقيت لى بركة؟ فقال إسحاق لعيسو:- إنى قد جعلته سيدا لك ودفعت له جميع إخوته عبيدا، ورفع عيسو صوته وبكى وقال له إسحاق:- هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد ولكن حين تجمح أنت تكسر نيره عن عنقك. فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التى باركه أبوه وتوعد يعقوب بالقتل، وكان يتكلم بصوت خفيض، ولكن رفقة سمعته، فأرسلت ودعت يعقوب وأخبرته أن عيسو ينوى قتله، وقالت له قم وأهرب إلى أخى لابان فى حاران وأقم عنده حتى يهدأ غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به، ودعا إسحاق يعقوب وباركه، وأوصاه قائلا له:- لا تأخذ زوجة من بنات كنعان، وأمره أن يذهب إلى حاران ويتخذ زوجة من بنات خاله لابان، وانصرف ذاهبا إلى فوان آرام) .

وقد إعترض كثير من الكتاب والمفكرين على الكيفية التى أخذ بها يعقوب البركة من والده إسحاق كما جاءت فى هذه الرواية، فيقول الدكتور/ محمد بيومى مهران فى كتابه «دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم- ١٩٧٩»:-

إنها تبين أنانية يعقوب إزاء أخيه عيسو ومدى إنخداع إسحاق وإصراره على حرمان عيسو وتضليل يعقوب عليه حتى بعد أن عرف خديعة يعقوب له، فضلا عن إستخدام يعقوب لاسم الله زورا فى قوله:- «إن الله إلهك يسر لى»، كما إعترض على هذه القضية العلاّمة إبن حزم وقال إن هذا الإصحاح فيه أكذوبات كثيرة، منها إطلاقهم على نبى الله يعقوب أنه خدع أبيه وغشه. ويرى الأستاذ رءوف أبو سعدة فى مؤلفه من إعجاز القرآن أن هذه القضية فيها نسبة الخديعة والغش لنبى الله يعقوب ونسبة الغفلة لنبى الله إسحاق، وأنه بدلا من مواساة عيسو فإن إسحاق عليه السلام يجيبه بكلمات تكاد أن تكون لعنات قائلا «**هو ذا بلا**

دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد، .

بل إن بعض الكتب المسيحية مثل كتاب تفسير الكتاب المقدس جزءا، تضع لهذه القضية عنوانا هو:- يعقوب يحصل على بركة أبيه بالخداع. فانظر كيف نسبوا إلى أنبياء الله الخديعة والغش والغفلة واستخدام اسم الرب سبحانه وتعالى فى الزور والبهتان.

٣ - خديعة يعقوب لخاله لابان:-

كما سبق أن ذكرنا أن العهد القديم يذكر أن رفقة زوجة إسحاق نصحت إبنها يعقوب بالسفر الى أرض حاران حيث يوجد خاله لابان، وأرسلت رفقة إلى أخيها لابان تطلب فيه أن يزوج يعقوب من إحدى بناته، ولما وصل يعقوب الى حاران وقابل خاله لابان واستقر عنده، طلب من خاله أن يزوجه إبنته الصغرى راحيل وكانت تلك تتميز بقدر كبير من الجمال بعكس أختها الكبرى ليئة التى كان جمالها متواضعا، فطلب منه خاله أن يخدمه سبع سنوات كمهر لإبنته، وفى يعقوب مدة الخدمة، فجمع خاله أهل المنطقة وصنع لهم وليمة، ثم فى المساء أخذ ليئة إلى خيمة يعقوب فدخل بها وهو يظنها راحيل، وفى الصباح إكتشف أنها ليست راحيل بل ليئة، وراح يعاتب خاله الذى إعتذر له بأن التقاليد تمنع زواج البنت الصغرى قبل الكبرى، وطلب منه أن يكمل أسبوع ليئة ثم يزوجه من أختها راحيل ليجمع بينهما بشرط أن يخدمه سبع سنوات أخرى هى مهر راحيل، ففعل يعقوب وتزوج الإثنتين وأعطى جاريه لليئة تسمى زلفى وجارية أخرى لراحيل إسمها بلهة.

وجبر الله ضعف ليئة لقلة جمالها فوهب لها أربعة أولاد، ووهبت جارتيها لينجب منها ففعل، ووهبت أيضا راحيل جارتيها لزوجها فولدت له أولادا ثم حملت ليئة وولدت له ثلاثة أولاد آخرين، وأخيرا حملت راحيل وولدت له غلاما جميلا هو يوسف عليه السلام.

وفى نهاية هذه القصة يقول الكتاب المقدس (**أن يعقوب طلب من خاله الرحيل بعد أن مكث عنده عشرين عاما، فقال له خاله انه قد بورك لى بسببك فسلنى أعطك، فقال يعقوب تعطينى كل ما يولد فى هذه السنة ويكون أرقط من الغنم، ومن المعزى كل أبلق، فوافق لابان، وعمد لابان إلى حيلة حتى لا يأخذ يعقوب كثيرا من الغنم**

وفرز الغنم وعزل منها من التيوس من له هذه الصفة حتى لا يولد شىء من الحملان على هذه الصفات فى ذلك العام، وسلم يعقوب القطعان، وفطن يعقوب إلى فعلة خاله، فقابل حيلته بحيلة تلغى مكره، وعمد إلى قضبان رطبة خضراء من شجر اللوز ودلب «شجر ينمو فى الجبال يشبه شجر الجميز» وقشر فيها خطوطا فظهر بياض القضبان من تحت القشرة، ونصبها فى مساقى الغنم من المياه حتى كانت الغنم تجيىء لتشرب لتتوحم عليها، ونجحت الحيلة وولدت الغنم حملانا مخططة ومرقطة وبلقاء مما أغضب خاله وأبناءه كثيرا) .

وفى النهاية ومن خلال هذه القصة العجيبة غير المعقولة نرى كيف لجأ نبى من أنبياء الله إلى الحيلة والخداع ليحصل على ما يريد من مال خاله، وهل يتفق هذا مع أخلاق الأنبياء والعصمة التى خصهم الله بها؟

٤ - يعقوب يصارع الرب سبحانه وتعالى :-

هذه الحادثة وردت فى إصحاح «تكوين -٣٢»، وهى من أبشع القصص التى لا يصدقها عاقل، وتقول التوراة فى ذلك:- **(فلما كان وقت الفجر من الليلة التالية، تبدا له رجل، فظنه يعقوب رجلا من الناس، فقام إليه يعقوب ليصارعه، ولما رأى الرجل أنه لا يقدر على يعقوب ضربه على فخذه فانخلع حق يعقوب فى مصارعته معه، ولكن يعقوب ظل ظاهرا ومتفوقا عليه، وقال الرجل أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، وأدرك يعقوب أن من يصارعه ليس بشرا، فقال له يعقوب لا أطلقك إن لم تباركنى، فقال له ما إسمك؟ فقال يعقوب، فقال له لا يدعى إسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الرب والناس وقدرت، وسأله يعقوب وقال أخبرنى ما إسمك؟ فقال لماذا تسألنى عن إسمى وباركه هناك، وسمى يعقوب المكان باسم فينييل أو (فنوئيل) ومعناها بالعبرية وجه الله قائلا لأننى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى، وأشرقت الشمس ويعقوب يعرج على فخذه) .**

لذلك لا يأكل اليهود عرق النسا الذى هو على حق الفخذ إلى اليوم «يسميه الجزارون فى مصر الموزة» لأن الرب ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا، ويفهم من هذه القصة

البشعة أن الذى كان يصارع يعقوب كان هو الرب نفسه واستمر طوال الليل يصارعه إلى قرب مطلع الفجر ويعقوب قادر عليه حتى ضربه الرب على فخذه، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وتتمادى هذه القصة العجيبة فى الضلال وتدعى أن يعقوب طلب من الرب طلبات المنتصر فى النزال، فأى ضلال بعد هذا الضلال.

٥- إغتصاب دينة إبنة يعقوب:-

ذكرت التوراة فى «إصحاح ٣٤ تكوين» هذه الحادثة العجيبة، **ففى أثناء عودة يعقوب مع بنيه إلى أرض كنعان مروا ببلدة تسمى شكيم، فاشترى فيها يعقوب حقلا من بنى حمور صاحب شكيم وكبيرها**، وتقع شكيم على بعد ٤٥ كيلو مترا غربى نهر الأردن، ونصب خيمة فى هذا الحقل حتى يقيم فى هذا المكان بعض الوقت، وتقول التوراة:- **(خرجت دينة فى لفيف من بنات بلدة شكيم يلعبن، ورآها شكيم ابن حمور الحوى رئيس الأرض وأعجبته، فاستدرجها بعيدا عن البنات الأخريات وأخذها إلى خباء وقام باغتصابها، و تعلق قلبه بها، وطلب من أبيه أن يخطبها من أبيها ليتزوجها، سمع يعقوب بما حدث، وانتظر حتى عاد بنوه من الحقل وأخبرهم، وغضب بنو يعقوب جدا لما حدث لأختهم، وجاء حمور يخطب دينة لإبنه شكيم وطلب منهم الصفح عما حدث، وأن يصاهروهم ويسكنوا الأرض معهم ويتملكوا منها ما يشاءون. تظاهر أولاد يعقوب بالموافقة واشترطوا أن يختتن كل ذكر من أهل شكيم حتى يكونوا على شريعتهم فتحل مصاهرتهم وتحل دينة لإبنهم، فوافقوا، وفى اليوم الثالث بعد الإختتان وآلامهم شديدة، قام شمعون ولاوى إبنا يعقوب بالسيوف وقتلا كل ذكر من أهل شكيم إنتقاما لما حدث لأختهم، ونهبوا المدينة وأخذوا غنم القوم وبقرهم وحميرهم ونهبوا كل ثروتهم وكل ما فى البيوت، ثم ترك يعقوب وبنوه المدينة وارتحلوا جنوبا).**

وهذه القصة العجيبة لا يصدقها عاقل، فابنة يعقوب عليه السلام يغتصبها كافر بالرغم من حماية الرب له ولأبنائه، وأبناؤه يخدعون الناس ويقتلونهم وينهبون كل ممتلكاتهم رغم أن اللذان قاما بهذه العملية الكبيرة إثنان فقط من أبناء يعقوب، ومع ذلك إستطاعوا قتل كل

ذكور المدينة وهم بالآلاف، ولم يعترضهم أحد، حتى ولو قامت نساء المدينة بالدفاع عنها لاستطعن أن يصداهما.

ونستطرد هنا فى ذكر مختصر للفضائح التى أرتكبها بنو إسرائيل كما وردت فى التوراة وذلك حتى لا يتوه القارىء فى هذا المستنقع القذر من الرذائل الذى ليس له نهاية والتى لا يعقل أن يرتكبها نبى أو إبن نبى، ولكن كاتبوا التوراة إفتروها عليهم لكى يبرروا ما هم عليه من فسق وفجور.

٦ - راؤبين إبن يعقوب البكر يضاجع زوجة أبيه:-

وجاء ذكر تلك الفاحشة القطيعة عند ذكر التوراة لوصية يعقوب عندما حضرته الوفاة، إذ جمع أبناءه جميعا وأخذ يعدد صفات ومناقب كل منهم ثم يبين مثاليه ثم يحدثهم بما سوف يحدث لهم فى حياتهم- إذ جاء فى «إصحاح ٤٩- تكوين» ما يلى **(ودعا يعقوب بنيه وقال إجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام واصغوا الى إسرائيل أبيكم:- راؤوبين، أنت بكرى وقوتى وأول قدرتى، فضل الرفعة ونصل العز، فائرا كالماء لا تتفضل لأنك صعدت على مضجع أبيك حينئذ ودنسته، على فراشى صعد.** (وهذا معناه حرمانه من بركة البكورية) .

وهذا ما ورد فى التوراة أيضا عن تلك الحادثة البشعة «إصحاح ٣٥ تكوين ٢١»

(بعد وفاة راحيل رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مجدل عدر، وحدث إذ كان إسرائيل ساكنا فى تلك الأرض أن راؤبين ذهب واضطجع مع بلهة -سرية أبيه- وسمع إسرائيل) .

وهذا عمل مشين لا أظن أن راؤوبين وهو من الأسباط ورييب بيت النبوة أن يقدم عليه، فكيف يزنى بسريه أبيه وهى فى مقام أمه وأم لأخويه دانى ونفتالى، ولو حدث هذا فعلا لأخذت الغيرة أخويه على أمهما وقاما بقتل راؤوبين، ولكن كاتبوا التوراة برروا حرمان راؤوبين من البكورية بسبب هذه الحادثة المختلقة، **ولو كانت هذه الحادثة سببا فى حرمان راؤوبين من البكورية لكان على يعقوب أن يحرم يهوذا أيضا منها لأن التوراة نسبت ليهوذا أنه هو الآخر زنى بثامار زوجة إبنه (إصحاح ٣٨ تكوين) .**

ولكن إسرائيل عليه السلام إمتدح يهوذا ومنحه البكورية وقال له **(إياك يحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك).**

وهى البركة التى تمنح للابن البكر، فبعد حرمان راؤوبين ثم شمعون ولاوى منها أيضا صار يهوذا هو المستحق لها، وذلك لأن شمعون ولاوى قتلا جميع أهل شكيم من الذكور حيث تقول التوراة إن يعقوب قال لهما:-

(آلات ظلم سيوفهما، فى مجلسهما لا تدخل نفسى، بمجمعهما لا تتحد كرامتى لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانا (إشارة إلى مذبحة شكيم الفظيعة)، وفى رضاهما عرقبا ثورا. (تعبير عن قتلهما لأمير شكيم)، **ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما قاسى، أقسمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل).**

وقد تحققت لعنة أبيهما لهما فلم يكون لنسلهما أرض خاصة لهم.

٧ - إتهام هارون عليه السلام بصناعة العجل:-

جاء فى التوراة فى «سفر خروج ٣٢» ما يلى:-

(ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل. إجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون إنزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتونى بها.

فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها هارون، فأخذه من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا تعالوا هذه آلهتك يإسرائيل التى أصعدتك من مصر، فبكروا فى الغد واصنعوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب، فقال الرب لموسى إذهب إنزل لأنه قد فسد شعبك، زاغوا سريعا من الطريق الذى أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يإسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر).

وهذا إفتراء مشين ألحقه كاتبوا التوراة بهارون عليه السلام وأنه هو الذى قادهم إلى الوثنية وعبادة العجل أبيس، ولكن القرآن الكريم برأ هارون من هذه الفرية ونسبها إلى مارق منهم يسمى السامرى. إذ قال تعالى ، فى سورة طه ٨٧- ٨٩،:- ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) ﴾.

٨ - إتهام نبى الله داوود عليه السلام بالزنا والتآمر لقتل أحد قواده:-

بلغ مجد بنى إسرائيل ذروته فى عهد داوود عليه السلام وإبنه سليمان من بعده، وسليمان هو الذى قام ببناء الهيكل فى أورشليم، التى إتخذها والده عاصمة لمملكته، ولقد جاء فى التوراة عن داوود قصة دنيئة كل الدناءة، فهى تتهمه عليه السلام بالزنا والخيانة والقتل، فبالله كيف يفعل نبى معصوم مثل هذه الموبقات؟ وأين القدوة التى يتجه إليها الشعب إذا كان نبيه وملكه على هذه الأخلاق التى يعف عنها السوقة؟. فقد جاء فى ،الإصحاح الحادى عشر- الملوك الثانى، ما يلى: **(وكان عند المساء أن داوود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح إمرأة تستحم، وكانت جميلة جدا، فأرسل داوود وسأل عنها فقيل له هذه بتشابع بنت ألبعام إمرأة أوريا الحيثى، فأرسل داوود رسلا إليها وأخذها ودخل بها وتطهرت من نجاستها ورجعت إلى بيتها، وعندما جاء موعد الطمث لم تحض، فأدركت أنها حملت من داوود اذ كان زوجها بعيدا فى المعركة فأرسلت الى داوود وقالت إنى حامل).**

ولكن داوود تصرف فى هذه المسألة بسرعة، وأحضر زوج المرأة من ميدان المعركة وراح يطعمه بين يديه ويسقيه ويسكره، ثم بعث بخطاب فى اليوم التالى الى يؤاب قائد الجيش يطلب منه أن يرسل أوريا الى مواضع القتال الشديد ليهلك ويموت وأصدر إليه هذا الأمر

(وجهوا أوريا إلى مواضع القتال الشديد وارجعوا من ورائه حتى يضرب ويموت).

وتعليقا على هذه الأحداث البشعة نقول:- كيف طاوع داوود ضميره بأن ينظر الى إمرأة جاره وهى عارية؟ ثم يرسل إليها ويزنى بها وتحمل منه، وهو الذى أرسل زوجها للجهاد فى معركة من المعارك، ثم يرسل فى طلب زوجها ويطعمه ويسقيه ويسكره ثم يخونه ويأمر بإرساله إلى مواضع القتال الشديد ثم يأمر الجيش بأن ينسحب من ورائه ويتركه للأعداء ليقتلوه، كل ذلك لكى يستولى هو على زوجة الرجل، فهل هذه من أخلاق النبوة؟ وتصدر عن نبى معصوم؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون.

٩ - ابن داوود عليه السلام يزنى بأخته وأبوه لا يعاقبه لأنه يحبه:-

تقول التوراة فى «سفر الملوك- الإصحاح الثالث عشر»:-

(وكان لإبشالوم بن داوود أخت جميلة تسمى تامارا، فكان بعد ذلك أن آمنون إبن داوود كلف بها، وتدله آمنون حتى سقم فى تامارا أخته لأنها كانت عذراء، فكان يعسر عليه أن يصنع بها شيئا، وإستشار صديقا له فاقترح عليه أن يتمارض ويطلب من أبيه أخته لتمريضه، ونفذ آمنون النصيحة وجاءت أخته تمرضه وتحمل له كعكا، فأخذت تمارا الكعك الذى عملته وأتت به آمنون أخاها فى المخدع، وقدمت له ليأكل، فأمسكها وقال لها تعالى إضطجعى معى يأختى، فقالت له لا تذلنى يأخى لأنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل فلا تفعل الفاحشة، أما أنا فأين أذهب بعارى، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء فى إسرائيل، و الآن فكلم الملك فإنه لا يمنعنى منك، فأبى أن يسمع لكلامها ولكن تمكن منها وغصبها وضاجعها، وسمع داوود الملك بجميع هذه الأمور فاغتاظ جدا ولكن لم يحزن نفس آمنون لأنه كان يحبه إذا كان بكره) .

ولا تعليق لى على هذا الموضوع الفاحش.

١٠ - نبى الله سليمان عليه السلام يعبد الأصنام:-

يمتدح القرآن الكريم نبى الله سليمان عليه السلام، ويضفى عليه فضائل الحكمة والعدل وفهمه القوى للتوراة وقدرته على إستنساخ الأحكام منها منذ أن كان شابا صغيرا، ولكن كاتبوا

العهد القديم أبوا إلا أن يشوهوا صورته ونسبوا إليه الكثير من الموبقات والإنصياع لزوجاته وعبادة الأصنام، وإليك ما جاء عن ذلك فى «سفر الملوك الثالث– الإصحاح ١١»:

(وأحب الملك سليمان نساء غريبة من المؤابيين والعمونيين والأدميين والصيدونيين والحيثيين، ومن الأمم التى قال الرب لإسرائيل لا تختلطوا بهم وهم لا يختلطون بكم لئلا يميلوا بقلوبكم إلى إتباع ألهتهم، فتعلق بهن سليمان حبالهن، وكان له سبعمائة زوجة وثلاثمائة سرية، فأزاغت نساؤه قلبه، وكان فى زمن شيخوخة سليمان أن أزواجه ملن بقلبه إلى إتباع آلهة غريبة، فلم يكن قلبه مخلصا للرب الهه كما كان قلب داوود أبيه، وتبع سليمان عشتاروت إله الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين

وضع سليمان الشر فى عينى الرب وبنى مرتعا لكموش رجس المؤابيين على الجبل المواجه لأورشليم، وكذلك مرتفعا لملكوم رجس العمونيين. وهكذا فعل جميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان).

فأى إفتراء أفحش من هذا الإفتراء، أليس نبى الله سليمان عليه السلام هو الذى بنى هيكل أورشليم؟ فكيف يقوم بهذه الأفعال الذميمة من إستكثار النساء اللاتى بلغن ٧٠٠ زوجة و٣٠٠ سريه معظمهن من نساء الشعوب الكافرة، وأخيرا يضطر نبى الله سليمان الى مجاملتهن وإقامة الأصنام لألهتهن بل وعبادة هذه الأصنام إرضاء لهن.

ونورد هنا ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم عن داوود وسليمان عليهما السلام:-

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ «سورة النمل ١٥ – ١٩».

١١ – لعن الأنبياء جميعا وتكفيرهم :-

لعن الأنبياء جميعا والكهان فى العهد القديم «أرميا– الإصحاح ٢٣»، وكفروا وأتهموا بالكذب والفسوق حيث جاء فيه ما يلى :-

(لأن النبى والكاهن كافران وفى بيتى وجدت شرهما يقول الرب :- فى أنبياء السامرة، رأيت جماعة منهم وقد تنبأوا بالبعل وأضلوا شعبى إسرائيل، وفى أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعر منه من الفسق والسلوك فى الكذب) .

هذا، فإذا كان الأنبياء والكهان كاذبون وفاسقون ويرتكبون من الآثام ما تقشعر منه الأبدان ويدعون لعبادة الصنم بعل، فمن بعد هؤلاء يمكن لشعب إسرائيل أن يتخذ منهم قدوة ؟ أليس هذا هو من الأسباب التى تدفع اليهود دائما وفى كل مكان إلى الفسوق والفجور وإحتضان الرذائل والفواحش والسعى فى الأرض فسادا ؟

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ «المائدة – ٦٤».

الفصل السادس

صورة الله عند بني إسرائيل
وتبشير التوراة بظهور نبي الإسلام
محمد عليه الصلاة والسلام

الفصل السادس

صورة الله عند بني إسرائيل

وتبشير التوراة بظهور نبي الإسلام

محمد عليه الصلاة والسلام

يذكر العهد القديم فى كثير من إصحاحاته إنصراف بنى إسرائيل عن عبادة الله وإعتقادهم فى الأوثان وآلهة الشعوب المجاورة، وفى العهد الحديث وبعد ظهور الإسلام إختفت الوثنية تماما فى أجزاء كبيرة من العالم ولم يعد هناك فى منطقة الشرق الأوسط وأوروبا والأمريكيتين من يعبد الأصنام، ومع هذا فإن طباع اليهود وحبهم للمال وميلهم إلى نشر الفساد عزلتهم عن الشعوب التى عاشوا بين جنباتها، وكونوا مجموعات منعزلة تعيش فى أحياء خاصة بهم تسمى (الجيتو) فى الغرب أو حارات اليهود فى الشرق، ومن أسباب هذه العزلة إعتقادهم بأنهم شعب الله المختار دون شعوب الأرض وتميزهم على جميع البشر، وكذلك فى الصورة التى إرتسمت فى وجدانهم عن الله سبحانه وتعالى وأنه هو ربهم وحدهم دون سائر الناس، ونذكر فيما يلى صورة الرب سبحانه وتعالى فى الفكر اليهودى كما وردت فى أسفار العهد القديم:-

١ - يهوة الاسم الذى عرف به الرب عند اليهود:-

يطلق العهد القديم على الله سبحانه وتعالى اسم يهوة ومعناها بالعبرية السيد، وقد إشتق منه مصطلح «يهود» الذى عرف به بنو إسرائيل، وتصور أسفار العهد القديم يهوة دائما على أنه إله بنى إسرائيل وأنهم هم شعبه المختار، ولا يوجد نص واحد فى العهد القديم يدل على أن يهوة هو الإله الواحد الذى لا إله غيره، وأنه إله لجميع أبناء آدم من البشر دون إستثناء، وكل ما يطلبه يهوه من شعبه هو أن يختصه هو بالعبادة دون غيره من الآلهة، (**أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من دار العبودية لا يكن لك آلهة أخرى تجاهك**) «سفر الخروج- ٢٠».

أما باقى شعوب الأرض فلا يهتم بهم يهوة ويكفيه أن يؤمن به بنو إسرائيل الذين إختارهم لنفسه، وهذا سر إهدارهم لأدمية غيرهم من الشعوب، هذا ولو أنه أحيانا ما نجد لمحات مضيئة فى سرد بعض الأحداث التى حدثت لبنى اسرائيل تعترف بآدمية غير اليهود وهذه نادرة، فمثلا غضب يعقوب عليه السلام على إبنين من أبنائه لقيامهم بقتل أهالى بلدة شكيم وحرمهم من بركاته، وهذا هو الأصل فى أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

٢ - صور غير لائقة بالرب (يهوه) كما وردت فى العهد القديم:-

يهوه هو الرب الذى أخرج بنى إسرائيل من مصر وقادهم بنفسه الى شاطىء خليج السويس، وكان يسير أمامهم على شكل عمود من السحاب فى النهار وعمود من النار فى الليل، وكأنه سبحانه وتعالى قد ترك جميع ملكوته ونزل إلى الأرض ليريهم طريقهم الى شاطىء البحر بعيدا عن فرعون وجيشه، بل وأخذ يسير أمامهم عشرة أيام بلياليها حتى وصلوا الى بر الأمان، وفى أثناء ذلك ورغم مصاحبته لهم فقد ضلوا الطريق مرارا سبحانه وتعالى عما يقولون.

ويشرح البروفسور الأمريكى L.Dorant أكبر علماء العصر فى الديانات والفلسفات سر تصور بنى إسرائيل للرب على هذه الصورة فى كتابه «قصة الحضارة ومباهج الفلسفة» حيث يقول:-

يبدو أن اليهود الفاتحين لفلسطين قد عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلها صارما ذا نزعة حربية صعب المراس. وهذا الإله لا يطلب من الناس أن يعتقدوا بأنه عالم بكل شىء، وشاهد ذلك أنه يطلب من اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يهلك أبناءهم على غير علم منه مع من سوف يهلكهم من أبناء المصريين، كذلك لا يعتبر نفسه معصوما من الخطأ ويرى أن أشنع ما وقع فيه من أخطاء هو خلق الإنسان، لذلك نراه يندم بعد فوات الوقت على خلق آدم وعلى إرتضاءه بأن يكون شاءول ملكا، وتراه من حين لآخر شرها غضوبا متعطشا للدماء متقلب الأطوار نزقا نكدا، وهو يرضى عما إستخدمه إسحاق من ختل وخداع فى الإنتقام من خاله

لابان ووالد زوجتيه، وضميره لا يقل مرونة عن مرونة ضمير الأسقف الذى يندفع فى السياسة، وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شيء كإله اليهود هذا، .

ويدلل دورانت على إضفاء بنو إسرائيل للصفات الأدمية على الرب بما جاء فى (سفر التكوين- الإصحاح ٣٢): **(فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه (أى الإنسان الأخر المصارع) لأنه قد طلع الفجر، فقال لا أطلقك إن لم تباركنى، فقال له ما إسمك قال يعقوب، فقال له لا يدعى إسمك بعد اليوم يعقوب، بل إسرائيل لأنك صارعت مع الرب وقدرت) .**

فهل هناك هراء أشد من هذا الهراء؟

٣ - الرب يأمر بنى إسرائيل بالسرقة والسلب :-

يطلب يهوة من نبى إسرائيل أن يحتالوا على المصريات ويسلبهوهن حليهن قبل خروجهم من مصر، حيث جاء فى «سفر خروج- الاصحاح ١٢» ما يلى:-

(حينما تمضون لا تمضون فارغين، بل تطلب كل إمرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضية وأمتعة ذهبية وثيابا وتضعوها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين، وفعل إسرائيل كما أمر موسى، وآتى الرب خطوة فى عيون المصريين فأعاروها لهم وسلبوا المصريين) .

٤ - موسى يزجر الرب ويبين له خطأه :-

تكررت هذه العبارات التى يزجر فيها موسى الرب ويخطأه فى الكتاب المقدس، ولا ندرى من منهما هو الرب؟، ففى «سفر خروج- ١٢» جاءت هذه الفقرة

(إرجع عن حد غضبك وإندم على الشر بشعبك، فندم الرب على الشر الذى قال إنه ينزله بشعبه) .

٥ - تعطش يهوة لإراقة دماء الشعوب وأمره لليهود بإستعبادهم :-

يعطى الرب لليهود الفاتحين أن يقتلوا جميع أهل المدن التى يدخلونها ويدمرونها ويسخرون ويستعبدون من يشاءون من سكانها، فقد جاء فى العهد القديم «تثنية- ٢٠»:-

(وإذا تقدمت إلى المدينة لتقاتلها فادعها أولا إلى الصلح، فإذا أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود بها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تستسلم لك بل حاربتك فحاصرتها وأسلمها الرب اليك الى يدك فاضرب كل ذكر بحد السيف، وأما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما فى المدينة فاغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى يعطيها الرب لك ميراثا فلا تستبق منهم نسمة، بل إبسلهم إبسالا (أى إقتلهم)، الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب).

ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نفسر دوافع المذابح التى إرتكبها الصهاينة فى دير ياسين وقبيته وأم الفحم وصبرا وشاتيلا وغيرها من قرى ومدن فلسطين ولبنان، كذلك المذابح التى تجرى الآن للفلسطينيين على يد الجيش الاسرائيلى والمستوطنين اليهود ومحاصرة القرى والمدن وإستيلائهم على الأراضى وهدمهم للمنازل والمرافق العامة بالدبابات والجرافات والمدافع والطائرات والسفن الحربية والتعطش لسفك دماء الفلسطينيين وإبادتهم، وإعتقادهم أن ذلك يأتى وفقا لمشيئة الرب وتنفيذا لأوامره كما وردت فى الفقرات السابقة من «سفر تثنية-٢٠».

٦ - غضب الرب على كل الشعوب وتوعده لهم بالخراب والابادة لحساب شعب إسرائيل:-

تكرر الحديث عن ذلك فى العهد القديم خصوصا فى سفر (أشعيا - ١١) الذى يصف يهوة دائما بأنه رب الجنود، وإسرائيل هم شعبه المختار دون باقى الشعوب، ومن أجلها سوف يبيد تلك الشعوب ويخرب ديارهم، ويذكر ذلك الإصحاح أن بنى إسرائيل:-

(سينقضون على الفلسطينيين نحو الغرب، وينهبون بنى المشرق جميعا، ويلقون أيديهم على آدون ومؤاب ويطيعهم بنوعمون، ويضرب الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بريحه العاصفة ويشقه سبعة جداول ليعبر بالأحذية، أما مدن بابل ودمشق وسائر مدن الأرض فإنها تصبح يبابا خرابا وتنضب مياهها وتنتن أنهارها.

إقتربوا أيها الأمم للإستماع وأصغوا أيها الشعوب، فإن سخط الرب على جميع الامم وغضبه على جميع جنودهم وقد ضربهم وأسلمهم للذبح، فتطرح قتلاهم وينبعث النتن من جيفهم وتسيل الجبال من دمائهم) «أشعيا- ٣٤».

فهل هناك ما هو أفظع من ذلك، أن يكون الله رب العالمين، الرحمن الرحيم بهذه القسوة والدموية التى صوروه بها، والتى من أجل بنى إسرائيل سيهلك كل تلك الأمم ويمثل بقتلاهم ويخرب مدنهم وقراهم، ويسلم الناس الى الذبح والعذاب، كل ذلك من أجل بنى إسرائيل؟ وكأنه لم يخلق فى الأرض غيرهم.

وجاء فى «أشعيا ٦٦» **(لأن هو ذا الرب ومعه النار وعجلاته كالزوبعة ليبلغ غضبه بحنق وإنتهازه بلهب للناس، لأن الرب بالنار والسيف يخاصم كل البشر ويكون قتلى الرب كثيرون)**.

فأى وحشية مثل هذه الوحشية، ويدل ذلك على أن القوم يتعبدون بالأعمال الوحشية وسفك دماء البشر ويتقربون بذلك الى الرب وكأنهم يصفون الإله مردوك إله البابليين، ونزعته الدموية، فالتصور الوثنى للإلوهية وتعطش الآلهة لسفك الدماء قد إنعكس على تعاليم اليهودية المحرفة، فصارت إحدى العناصر الرئيسية فى هذا الدين.

- بشارات بظهور النبي محمد علي الصلاة والسلام في التوراة:

بالرغم من التحريف وأعمال الحذف والإضافة التى تعرضت لها التوراة على مر العصور فضلا عن قصور الترجمة من لغة إلى أخرى زيادة على ما تسرب من الأساطير البابلية فى عهد السبى وأساطير الشعوب الوثنية الأخرى المحيطة بفلسطين ودخولها الى العهد القديم، إلا أن كاتبوا التوراة لم يستطيعوا أن يطمسوا كل ما جاء فى هذا الكتاب المقدس من إشارات تدل على بعثة نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وظهور دعوته وانتشارها فى أرجاء الأرض وتفوق أمته على سائر الأمم، وإهتداء الملايين من أبناء هذا الكوكب إلى نور الإسلام الحنيف، وصدق الله تعالى اذ يقول فى القرآن الكريم ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ «التوبة ٣٣».

فقد جاء فى كتاب قصص الأنبياء للمرحوم الشيخ عبدالوهاب النجار أنه قد وجد فى ثنايا أسفار التوراة ما يبشر بظهور النبى محمد عليه الصلاة والسلام وكان هذا الشيخ رحمة الله عليه ملما باللغة العبرية، وقد قرأ أسفار العهد القديم كلها وتناولها فى كتابه بالشرح والتعليق، ومما توصل إليه فى بحثه عند شرحه لقصة موسى عليه السلام ما يلى:- «نبوة محمد موجودة فى التوراة (وهى الأسفار الخمسة من الكتاب المقدس) رغم ما إعتورها من التحريف والتشذيب، هاأنذا أسوق تلك المواضع من التوراة تعجيلا للفائدة ولأنها أيضا من قصة موسى:-

(جاء فى الآية العشرين من الإصحاح السابع عشر تكوين:- «**وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، فهأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا**». ولفظ العبارة الأخيرة فى العبرية هى «**هنى بيرختى أوتوهفريتى أوتو هربيتى أوتو بمادماد**».

ومن عادة العبرانيين الإعتماد فى الوقائع والأسماء على قيمة حروف الكلمة من جهة الحساب، فلو حسبنا لفظ بمادماد بالجمل لكانت محمد بلا زيادة أو نقصان، وهو من أبناء إسماعيل الموعود بالبركة والإثمار فى أبنائه.

أما بقية كتب الأنبياء (ويقصد بها باقى أسفار العهد القديم الأربعة والثلاثون) ففيها أخبار كثيرة تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم والبلد الذى سيخرج منه، فمثلا جاء فى «الاصحاح ١٨ من سفر تثنية- الآيات من ١٥-١٨»، قول الرب لموسى عليه السلام: (**ويقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون- حسب كل ما طلبت من الرب إلهك فى حوريب يوم الإجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة لئلا أموت- قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيتكلم بكل ما أوحيه**).

فقوله من إخوتهم فى الآية ١٥ ومن وسط إخوتهم فى الآية ١٨ تدل على الموعود بها لا يكون من بنى إسرائيل بل من إخوتهم، وإخوتهم هم بنو إسماعيل كما تدل على ذلك أيضا «الآية ١١٨ من الإصحاح ٢٥ تكوين» (**وسكنوا «أى أبناء إسماعيل» فى حويلة إلى شور التى أمام مصر- حينما تجيىء نحوشور أمام جميع إخوانه نزل**).

وحويلة هى بلاد خولان على تخوم اليمن مما يلى الحجاز، ولا مقابل لبنى إسماعيل فى شور سوى بنى إسرائيل، وكما تدل على ذلك «الآية ١٢ من الإصحاح ١٦ تكوين» **(وأمام إخوته يسكن)**، وأيضا بأن قوله **(وأجعل كلامى فى فمه)** تدل على أنه يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يدع أحد من أبناء إسماعيل ذلك سوى محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقم نبى أمى سواه منذ خلق الله الدنيا.

والآية «الثالثة من الإصحاح الثامن والثلاثين- تثنية» تقول:-

(جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وعن يمينه نار شريعة لهم). وجبل فاران بمكة وهى البلاد التى سكنها إسماعيل عليه السلام. إنتهى كلام الشيخ.

ونعود فنقول إن قبائل اليهود الثلاث الذين استوطنوا المدينة المنورة قبل بعثة النبى عليه الصلاة والسلام بمئات من السنين، لم يحضروا ليستوطنوا هذه البقعة إلا لعلمهم بأن الله سبحانه وتعالى سوف يرسل رسول آخر الزمان من هذه البلاد، وكانت صفات النبى عليه السلام موصوفة بدقة فى التوراه التى بين أيديهم، وجاءوا خصيصا لينتظروا قدوم النبى عليه السلام ليكونوا أول من آمن به، ويذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة حيث يقول فى «سورة البقرة- ١٤٦» يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وكان يهود المدينة إذا قامت بينهم وبين القبائل العربية المجاورة لهم حرب يستنصرون عليهم باسم النبى عليه الصلاة والسلام فينتصرون، وأقاموا فى هذه المنطقة فى إنتظار قدومه صلى الله عليه وسلم وفى هذا وفى هذا يقول الله تعالى فى «سورة البقرة- ٨٩» ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

هذا وقد آمن بعض أحبار اليهود بدعوة النبى صلى الله عليه وسلم وحضروا معه غزواته، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ *«آل عمران- ١١٣»*، وكان اليهود فى المدينة على عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم إذا إستشكلوا فى تنفيذ حد من حدود التوراة أو حكم من أحكامها فى منازعاتهم أو فيما يرتكب بعضهم من آثام رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفصل بينهم ايمانا منهم بصدق وعدل الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى ذلك يقول الله فى سورة «المائدة– ٤٤»:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وأحيانا كانوا يأتون إلى رسول الله ليحكم بينهم بما أنزل الله، فإذا جاء الحكم فى غير صالح البعض منهم رفضوا تنفيذه، خاصة إذا كان المدان منهم من طبقة الأثرياء، وفى ذلك يقول الله تعالى فى «سورة المائدة– ٤٨»: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وتمادى يهود المدينة فى الكيد لرسول الله وحاولوا أن يقتلوه أكثر من مرة ولكن الله تعالى حفظه منهم، ثم لجأوا الى تدبير المكائد وتكوين الأحلاف بينهم وبين كفار مكة لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، وفى كل مرة كانوا يعاهدون رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدم الغدر به أو الإنضمام إلى أعدائه، ولكنهم لم يحفظوا عهدهم معه أبدا، وفى ذلك يقول الله تعالى فى «سورة البقرة – ١٠٠–١٠١»: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

إنضمام يهود المدينة إلي كفار مكة في غزوة الخندق ثم إجلائهم من المدينة:-

كان يهود المدينة قد عقدوا مع رسول الله معاهدة بحسن الجوار وألا يساعدوا عليه عدوا، وإذا هاجم عدو المدينة فإنهم يتعاونون مع المسلمين فى الدفاع عنها، وفى نظير ذلك يقوم المسلمون بحمايتهم من الغزو الخارجى وحماية تجارتهم وأموالهم وممتلكاتهم، وفى غزوة الخندق، حاصرت جيوش المشركين المدينة وكانت متفوقة على جيش المسلمين فى العدد والعدة وهددت جيوش المشركين المدينة، فأثار اليهود حالة من الرعب وبثوا الفزع بين سكان المدينة، وانضم إليهم المنافقون من أهل المدينة وأخذوا جميعا يبثون الشائعات ويهولون من الفاجعة التى تنتظر سكان المدينة، ثم إتصلوا بالمشركين وعاهدوهم على الإنضمام لهم عند بدء الهجوم وضرب جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلف، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهم المؤمنين فحفروا خندقا حول المدينة لحمايتها، وكان ذلك إجراء حربيا فارسيا غريبا على سكان الجزيرة العربية، ثم ثبت الله أقدام المؤمنين ووعد رسوله بالنصر، فزلزلت الأرض تحت أقدام المشركين، وعجزوا عن إقتحام الخندق، ثم أرسل الله ريحا شديدا على المشركين بددت تجمعاتهم وبثت الرعب فى نفوسهم، فبادروا بالإنسحاب دون معركة.

وبعد إنسحاب جيش المشركين وإنجلاء الغمة، صمم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عقاب اليهود على خيانتهم ونقضهم للعهود التى عقدوها بينهم وبين الرسول، ولو نجحت خطتهم لتعرضت المدينة للدمار ولاستطاعوا بالتعاون مع المشركين إبادة المسلمين وخنق الدعوة الإسلامية فى مهدها، لذلك إستشعر الرسول صلى الله عليه وسلم مدى خطرهم وأنه من الخير للمسلمين أن يجلوهم عن المدينة.

فأصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أوامره الى جيش المسلمين بأن يتوجه فوراً إلى مساكن بنى قريظة من اليهود الذى خانوا العهد معه لإجلائهم عن الأحياء والقرى التى يسكنونها فى المدينة وما حولها، وحاصر جيش المسلمين ديارهم ولم يصمدوا أمام هذا الجيش بل سقطت حصونهم ومواقعهم الحصينة بعد وقت وجيز من بدء المعركة، فتركوا الجزيرة العربية ورحلوا الى فلسطين وفى هذا يقول الله تعالى فى «سورة الأحزاب ٢٤- ٢٦»: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ

الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ صدق الله العظيم.

الفصل السابع

حروب اليهود الخفية ضد الإسلام

الفصل السابع

حروب اليهود الخفية ضد الإسلام

منذ ظهور الإسلام وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لم يتوان يهود المدينة لحظة عن شن الحرب على الدين الوليد ومحالة طمس نوره، ورأى اليهود الإسلام وهو ينتشر بسرعة بين عرب الجزيرة، فتملكهم الغيظ والذعر، وحاولوا بكل وسيلة إيقاف هذا الإنتشار بكل ما أوتوا من دهاء وحيلة وقدرة على حبك المؤامرات ودس الدسائس، مع علمهم بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن دعوته لابد أن تنتصر وتعم العالم كما هو معلوم عندهم فى التوراه، ولكنهم كانوا يريدون أن يكون نبى آخر الزمان منهم لا من أبناء إسماعيل عليه السلام ومن هنا جاء حقدهم الشديد على الإسلام، وأخذ الله تعالى يذكرهم فى آيات القرآن الكريم بنعمته عليهم وتفضيله لهم على سائر العالمين، ثم يبين جرائمهم السابقة التى إقترفوها ضد الأنبياء والدعاة، ويدعوهم إلى الإهتداء بنور الإسلام الذى يعرفون نبيه صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبنائهم بأوصافه التى ذكرتها لهم التوراة التى مازالت موجودة بين أيديهم، ولكنهم أبوا إلا كفرا وفجورا، ونورد هنا بعض آيات القرآن التى نزلت بهذا الخصوص، ومنها:-

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ *«البقرة ٤٠-٤٤»*، ويذكرهم القرآن فى آيات أخرى بتوقعهم ظهور النبى عليه الصلام والسلام منذ أن حلوا بالمدينة وأنهم كانوا يستنصرون الله تعالى فى حروبهم مع الكفار باسمه فينصرهم، وتعهدهم بالإنضمام إلى صفوف المؤمنين بالنبى الخاتم فور ظهوره

وهو النبى المصدق لما معهم من التوراة ولكنهم نقضوا هذا العهد وارتدوا على أعقابهم حسدا منهم وحقدا، وفى ذلك يقول القرآن الكريم:-

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ «البقرة- ٨٩».

الإستهزاء بالإسلام ونقض العهود:-

كان بعض يهود المدينة يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويعلن إسلامه فإذا إنفضوا من عنده أخذوا يسخرون من دين الله، ونبذوا تعاهدهم مع النبى صلى الله عليه وسلم وأخذوا يسخرون مما سمعوه ومن المؤمنين وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ «البقرة ١٠٠- ١٠١».

الخيانة وتدبير المكائد:-

إستمر يهود المدينة فى حربهم الظاهرة وحربهم الخفية ضد الإسلام وتدبير المكائد ومحاولة إثارة الفتن بين المسلمين حتى كانت غزوة الأحزاب (غزوة الخندق) وما كان من تحالفهم مع المشركين المهاجمين للمدينة، وكما سبق أن ذكرنا، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لجيش المسلمين بحصار قراهم وقلاعهم وإخراجهم من المدينة بعد إنسحاب جيش المشركين من حولها، فرحلوا عنها إلى جنوب فلسطين.

تغيير اليهود لإستراتيجية الحرب ضد الإسلام:-

ومع انتهاء هذه الواقعة، وبدء إتساع رقعة الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين، أيقن اليهود بأنهم لا يستطيعون أن يقفوا موقف المجابهة المباشرة مع المسلمين بعد أن هزم

هؤلاء أعظم دولتين فى هذا الزمان وهم دولتا الفرس والروم واستولوا على أراضيهما، ودخلت شعوب كثيرة فى دين الله أفواجا، وصارت دولة المسلمين أعظم دولة فى العالم، وإمتدت حدودها من المحيط الأطلسى غربا حتى حدود الصين شرقا، وهنا أدرك اليهود أنه لابد لهم من إتباع إستراتيجية أخرى فى حربهم للإسلام، **وإعتمدت هذه الإستراتيجية الجديدة المسماة بالحرب الخفية على العناصر الآتية :-**

أولا: بث الفتن ونشر الوقيعة داخل المجتمعات الإسلامية من أجل إضعاف الدولة الإسلامية من الداخل وصرفها عن الإستمرار فى عمليات الفتح والتوسع شرقا وغربا.

وقد بدأ إتباعهم لهذا التكتيك منذ فجر الإسلام وفى أيام الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفى هذه الأيام كانت الجزيرة العربية قد تم توحيدها تحت راية الإسلام، وانطلقت منها جيوش المسلمين لغزو أعظم إمبراطوريات هذا الزمان، فتداعت أمامهم جيوش كسرى وجيوش قيصر، وفتحت بلاد فارس ومعظم الأقطار التى كانت تحت حكم الدولة البيزنطية.

وفى عهد عمر بن الخطاب تم فتح بلاد فارس بأكملها، وسقط نظام كسرى وزال من الوجود، لذلك نقم كثير من أمراء الفرس الذين لم يدخلوا الإسلام على عمر بن الخطاب نقمة شديدة، وتظاهر أحدهم بإعتناق الإسلام، وذهب الى المدينة هو وأسرته وعبيده ليقيم فى حاضرة الخلافة فى جوار أمير المؤمنين عمر، وهذا الأمير الفارسى هو المرزبان، الذى كان له عبد يدعى أبو لؤلؤة، وفى أثناء إقامة المرزبان فى المدينة تعرف على أحد أحبار اليهود الذين إدعوا الإسلام، وكان هذا الرجل يسمى **كعب الأحبار**، وصادق كعب هذا أمير المؤمنين عمر وكان يحرص على حضور مجالسه والتحدث فيها، كذلك عقد هذا الرجل صداقة متينة بينه وبين بعض الصحابة ومنهم ابن عباس رضى الله عنه، وهذا الحبر المدعى للإسلام هو أول من حاول إدخال الإسرائيليات إلى الإسلام، ولجأ إلى حضور حلقات العلم التى كان يعقدها إبن عباس رضى الله عنهما والمشاركة فى المناقشات التى كانت تدور فيها، ولكثرة تفقه إبن عباس فى شئون التفسير والفتوى كان يطلق عليه حبر الأمة، وحاول كعب الأحبار دس بعض الإسرائيليات إلى ابن عباس رضى الله عنه ليطعم بها آراؤه فى تفسير القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية إدعاءً منه بعلمه بما فى التوراة من أحكام وتشريع.

ولنترك هذه القضية الان جانبا لنعرض وقائع مثيرة من جوانب حادث إغتيال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه والتى كان لكعب الأحبار فيها ضلع كبير، فيقول الرواة أنه قبل إغتيال عمر بن الخطاب بيومين كان يجلس بمجلسه كعب الأحبار، فذكر كعب الأحبار لعمر أمرا عجيبا، وهو أنه وجد فى تفسيره لبعض آيات التوراة أن عمر بن الخطاب سوف يستشهد بعد يومين، فتعجب عمر من ذلك وقال له ياكعب، أيوجد إسم عمر مكتوبا فى التوراة ؟ فرد عليه أنه يفسر جمل الآيات التوراتية كما يفعل اليهود بالحساب ويترجم ذلك إلى مدلولات، فلم يعر سيدنا عمر هذا الأمر إنتباها وإنتهت المسألة عند هذا الحد.

ولكن فى فجر أحد الأيام وبينما كان سيدنا عمر رضى الله عنه يؤم المصلين فى صلاة الفجر فى المسجد النبوى الشريف، هجم عليه أبو لؤلؤة المجوسى وطعنه بخنجرعدة طعنات نافذة إستشهد بعدها عمر بعد وقت قصير، واتضح بعد ذلك أن أبا لؤلؤة دبر هذه المؤامرة بالإشتراك مع سيده الهرمزان إنتقاما من عمر لفتحه بلاد فارس وإزالته لعروش الطغاة من أرضها، وبعد مرور مدة من الزمن على القصاص من الهرمزان وعبده أبى لؤلؤة، إتضح لبعض الصحابة أن هذين المجرمين كانا يجتمعان فى دار كعب الأحبار، وأنهما شوهدا معه قبل تنفيذه هذه الجريمة بيوم واحد، واتجهت شكوكهم نحوه، ولكنه لم يأخذ جزاءه نظير ذلك لعدم التيقن من ضلوعه فى الجريمة، وكذلك لعدم وجود نظام للتحقيق كالذى يتبع فى هذه الأيام، وكذلك لعدالة الإسلام الذى لا يأخذ إلا بالأدلة القطعية لإثبات الجريمة.

دور اليهود فى الفتنة الكبرى التى انتهت باستشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه :-

دأب اليهود فى جميع العهود على إنتهاز الفرص ونشر الشائعات والأكاذيب ضد الحكام العرب والمسلمين لإثارة الشعوب ضدهم وإحداث الفتن والحروب الأهلية، ونذكر دورهم فى الفتنة الكبرى التى أودت بحياة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأدت إلى إهتزاز المجتمع الإسلامى كله بشدة وبدء عصر من الحروب الأهلية بين المسلمين وهم مازالوا قريبى العهد من عصر النبوة ويظلهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وقد بدأت وقائع هذه الفتنة الكبرى في اليمن بتحريض وسعي أحد يهود اليمن المتظاهرين بإعتناق الإسلام والمسمى **بعبد الله بن سبأ**، وسبأ هذا ليس إسما لأبيه، بل هو في الغالب شعار يرمز إلى اليهودية ومملكة سليمان اليهودية في اليمن التي تأسست بعد إعتناق بلقيس ملكة سبأ للدين اليهودي وتزوجها من سليمان عليه السلام.

أخذ عبدالله بن سبأ هذا يبث الشائعات ضد عثمان بن عفان في اليمن، ويحث الناس على الثورة عليه لإنحرافه عن مبدأ العدالة الإسلامية، وتمييزه لذوي قرابته عن سائر المسلمين، وتوليته لهم مناصب الإمارة في الأمصار وإغداقه من أموال بيت المال عليهم، ووجد في اليمن تربه خصبة لهذه الفتنة ولاسيما وأن الردة عن الإسلام كانت قد بدأت في اليمن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتم القضاء على أصحابها ورد اليمن إلى حظيرة الإسلام بعد حرب ضروس، إستشهد فيها عدد كبير من الصحابة من حفظة القرآن الكريم، والجو هناك كان مهيئاً لمثل هذه الفتنة التي بدأ الدعوة اليها عبدالله بن سبأ.

وطاف عبدالله بن سبأ في الأمصار الإسلامية ينشر الفتنة ضد الخليفة الثالث ويؤلب الناس ضده، ووجد في هذه الأمصار من يستمع إليه، واستمر عبدالله في بث بذور الفتنة حتى جمع ضد الخليفة حشد كبير من السوقة تجمعوا حوله من اليمن ومن مصر وغيرها، وتجمع هؤلاء الدهماء في المدينة المنورة وحاصروا عثمان رضي الله عنه في داره لعدة أيام، ثم إقتحموا عليه الدار وقتلوه ضربا بالسيف وهو جالس يقرأ في المصحف الشريف، وسالت دماؤه الشريفة على صفحات المصحف، وهذا المصحف العثماني يوجد الآن في متحف مدينة طشقند في جمهورية أوزبكستان، وعثمان بن عفان هو الخليفة الذي أمر بجمع المصحف الشريف ونسخ منه أربعة نسخ أرسل كل منها إلى مصر من الأمصار الإسلامية.

وكانت الفتنة الكبرى أول شرخ عظيم يظهر في جدار الأمة الإسلامية، وظلت تداعياتها تستقر في المجتمعات الإسلامية لفترة طويلة عاقت المسلمين عن إستكمال الفتوح التي بدأت في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانيا: نشر الفساد والانحلال في المجتمعات الإسلامية:-

من ذلك نشر دور الدعارة والحانات ودور اللهو والقمار فى المدن والقرى الإسلامية حتى ينخرط الناس فى الفساد وينسوا دينهم وقيمة، وينفقون أموالهم فى ضروب الفسق والفجور، وتصب هذه الأموال فى النهاية فى جيوب اليهود عن مروجى أنواع الفسق بين المجتمعات الإسلامية، فتضعف هذه المجتمعات ويصيبها الوهن وتتعرض لإجتياح أعداء الإسلام المتربصين به ومحو الإسلام من البلاد التى يستطيعون الإستيلاء عليها. وقد حدث هذا فى الأندلس حينما إنتشر اليهود فى بلادها، ليستظلوا بظل الإسلام وعدالته بعد فرارهم من الممالك الأوروبية لتعرضهم للإضهاد والذل فيها، ولم يجدوا ملجأ يحميهم من الاضطهاد والذل ونهب أموالهم سوى الأندلس الإسلامية، وفيها مارسوا حياتهم ونشاطاتهم التجارية والدينية بحرية تامة، وكان منهم من أستوزره بعض خلفاء الأندلس، ولم يجدوا فى هذه البلاد إلا العدل والإنصاف، فازدهرت أحوالهم فيها، وجمعوا من التجارة وغير ذلك ثروات ضخمة، وظهر منهم بعض العلماء والفلاسفة مثل موسى بن ميمون وانتشر اليهود فى المجتمع الإسلامى مرابين وتجارا وصناعا، ثم دخلوا الى قصور الخلفاء والأمراء مستشارين وأطباء وعلماء وعمالا، ولكنهم ما لبثوا أن رجعوا إلى طبيعتهم فعاثوا فى الأرض فسادا، وأخذوا يفتتحون دور اللهو والفسوق والحانات فى المدن والقرى الأندلسية، وتخصصوا فى جلب الجوارى وتعليمهن الرقص والموسيقى وبيعهن الى الخلفاء والأمراء، وبعد حين إنغمس المجتمع الأندلسى فى الشهوات واللهو والجرى وراء الملذات حتى فسد هذا المجتمع وانحرف عن شريعة الإسلام، ثم دبت الفرقة بين صفوفه، وتجزأت هذه الدولة العظيمة إلى دويلات صغيرة تافهة يحكمها أمراء ضعاف لا يعرفون من شئون دينهم شيئا، وزادت الفتنة فأخذ هؤلاء الأمراء الذين يطلق عليهم فى التاريخ **ملوك الطوائف**- يحاربون بعضهم بعضا، ويخربون المدن ويستنجدون بالفرنجة فى حروبهم مع بعضهم، وإنتهز هؤلاء الفرصة وأخذوا يستولون على الإمارات الأندلسية أمارة بعد أخرى حتى قضوا على دولة الإسلام فى الأندلس تماما فى عام ١٤٩٢ م بعد سقوط إمارة غرناطة- آخر الإمارات الأندلسية- فى أيديهم، وكان شيخ الإسلام إبن تيمية فى المشرق قد أفتى بإهدار دم هؤلاء الأمراء الفسقة الذين سلموا شعبهم إلى الضياع جريا وراء شهواتهم.

وبعد إستيلاء الأسبان القشتاليين على الأندلس، بدأت محاكم التفتيش الكنسية فى عمليات تنصير الأهالى بالقوة، وتعذيب المسلمين بالإحراق والتعذيب الشديد بآلات التعذيب التى لم يسبق لها مثيل، والحكم على بناتهم ونسائهم بالاغتصاب وبيعهن فى أسواق النخاسة فى أوروبا، وحولت المساجد كلها إلى كنائس أو هدمت ومنها مسجد قرطبة العظيم الذى حولوه إلى كنيسة، وإستمرت عمليات التعذيب والحرق والطرد على مدى قرنين من الزمان حتى إنتهى أمر الإسلام تماما من هذه البلاد، وأطفأ نور هذه الحضارة العظيمة التى كانت هى السبب فى ظهور عصر النهضة فى أوروبا والمدد الذى إستمدت منه هذه الحضارة علومها وقيمها.

وقد ساعد اليهود الأندلسيون فى حدوث هذه النكبة، بتجسسهم على المسلمين لحساب الفرنجة، ونشرهم لدور اللهو والفسوق فى جنبات الأندلس، ولكن الأسبان لم يحملوا لهم هذا الجميل، وأخذوا فى تعذيبهم وتنصيرهم بالقوة ومصادرة أموالهم وإغتصاب نسائهم، فهرب عدد كبير منهم من البلاد، ولم يجدوا لهم ملجأ إلى فى بلاد الاسلام فهاجر عدد كبير منهم إلى المغرب، وأعداد كبيرة أيضا الى الدولة العثمانية، وفى بلاد المهجر الإسلامية وجدوا العدل والرعاية والحرية والأمن.

ثالثا: التخفي في صور العلماء المسلمين والإختلاط بهم:-

من صور التآمر الخفى لضرب الإسلام، اعتناق بعض اليهود الظاهرى للإسلام والتسمى بأسماء المسلمين ثم الولوج إلى مجتمعات العلماء وجذب الإنتباه إليهم كعلماء مسلمين مبرزين، بعد ذلك تبدأ مرحلة هامة من مراحل الحرب الخفية ضد الإسلام، ألا وهى قيام هؤلاء بدس الأساطير الإسرائيلية بين ثنايا كتب تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف حتى يشوهوا نقاء الإسلام وبساطته، ويغبروا عقيدة التوحيد الخالصة التى نزل بها القرآن الكريم وشرحتها الأحاديث النبوية الشريفة، وينحرفون بتعاليمه عن الفطرة البسيطة التى يدخل بها قلوب الناس بسرعة وينتشر بها بين شعوب الأرض لأنه هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وقد إبتدع هؤلاء وألفوا عددا كبيرا من الأحاديث النبوية الموضوعة بلغت عشرات الآلاف، لذلك وجد علماء المسلمين أنه لابد من إيجاد مقاييس سليمة تقاس بها مصداقية الأحاديث وتعرف بها الأحاديث الموضوعة من الصحيحة، ونشأ علم الحديث الذى وضع أساسه بعض العلماء الثقاة، وكان أبرزهم الإمامين البخارى ومسلم، اللذين جمعا الأحاديث الصحيحة ووضعاها فى كتابين هما صحيح البخارى وصحيح مسلم، ويعتبران من أصدق كتب الحديث بعد القرآن الكريم.

ولكن مازال يوجد حتى الآن بعض الإسرائيليات المدسوسة فى ثنايا كتب التفسير القديمة، وتعمل المجمعات العلمية الاسلامية فى البلاد الإسلامية على تنقية هذه الكتب من مثل تلك الشوائب.

رابعاً:- الفرق الرافضة والمنحرفة عن الاسلام ودور اليهود في قيامها:-

ومتابعة لتفجير المجتمع الإسلام من الداخل، ساعد اليهود الذين تظاهروا باعتناق الإسلام على نشوء الفرق الرافضة والمنحرفة عن الإسلام ودعموا فلسفاتها بالأفكار الوثنية ومن هذه الفرق الضالة ما يلى:-

١- فرقة القرامطة:

نشأت هذه الفرقة فى عهد الدولة العباسية على يد عبدالله بين قرمط وهو يهودى الأصل، وجمعت هذه الفرقة الكثير من الأنصار حولها وأحتلوا شرق الجزيرة العربية وأقاموا دويلة خاصة بهم فى منطقة هجر (الإحساء)، وكانت فلسفة هذه الفرقة تقوم على أساس أن الناس جميعا شركاء فى الأموال والنساء، وهى نفس الأفكار التى قامت عليها النظرية الشيوعية، وهذه الفلسفة إستمدت أساسا من العقيدة الزارداشتية الفارسية، وأخذ الدهماء والعوام والفقراء يلتفون حول هذه الفرقة الملحدة وكونوا جيشا كبيرا، أخذوا يغيرون بهذا الجيش على أطراف الدولة السياسية ويستولون على أموال الناس ويغتصبون نساءهم، وأساعوا الذعر فى البلاد زمنا طويلا، وكانت الدولة العباسية حينئذ فى حالة ضعف شديد تمزقها الفتن الشعوبية من الداخل، مما شجع القرامطة على القيام بحملة على مكة المكرمة، وانتزعوا الحجر الأسود

من الكعبة المشرفة ونقلوه إلى هجر، وظل هذا الحجر موجودا فى هجر لمدة ٣٠ سنة حتى تمكنت الدولة من دحر جيوش هؤلاء الزنادقة والقضاء عليهم وإسترداد الحجر الأسود ووضعه فى مكانه فى الكعبة المشرفة.

وقد أباحت هذه الفرقة تدخين الحشيش وشرب الخمر واقتراف جميع الموبقات على أساس أن الجنة لا توجد إلا على هذه الأرض وبعدها الموت ثم الفناء، ثم كونوا فرقة حربية تسمى فرقة الحشاشين، وهم مجموعة من القتلة، يدخنون الحشيش قبل قيامهم بارتكاب جرائمهم، وقد قامت هذه الفرقة باغتيال عدد كبير من الأمراء والقواد والزعماء الذين لعبوا دورا كبيرا فى الجهاد ضد الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين، وممن إستشهد على أيدى هؤلاء الحشاشين الأمير نور الدين محمود بن زنكى أول من جاهد الصليبيين وهزمهم وانتزع من أيديهم مملكة الرها ونور الدين محمود هذا هو الذى تربى فى كنفه القائد الشهير أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى، ولهما دورهما فى هزيمة القوى الصليبية واسترداد القدس الشريف والمسجد الأقصى من أيديهم.

٢ - الفاطمـــــية

نشأ المذهب الفاطمى فى المغرب، وكان من أهم فقهاء هذا المذهب هو الفقيه بن كلس وهو فقيه شيعى كان يهوديا ثم أعلن إسلامه وقد وضع ابن كلس هذا فلسفة الفقه الفاطمى وساعد على قيام الدولة الفاطمية فى المغرب، ثم صاحب ابن كلس جيوش المعز لدين الله الفاطمى عند غزوه لمصر، وخطط بن كلس لنشر الدعوة الفاطمية بين المصريين، ولكن المصريين رفضوا إعتناق هذا المذهب واستمر نفوذ اليهود فى ديوان الخلافة الفاطمية فى مصر طوال عهد هذه الخلافة، وكان منهم وزير مشهور للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى، وبعد إختفاء الحاكم بأمر الله فى حادث غامض إثر رجوعه من مرصده الفلكى فى جبل المقطم- وكان هذا الخليفة معروفا بالشذوذ فى الأفكار والتصرفات - هرب هذا الوزير اليهودى إلى جبل الجولان فى الشام خوفا من بطش ست الملك أخت الحاكم بأمر الله والوصية على العرش بعده، والتى يقال بأن كان لها ضلعا فى إختفاء أخيها لخروجه عن المألوف وشذوذه فى تصرفاته.

وفى الجولان قام هذا الوزير اليهودى الأصل بنشر مذهبا جديدا بين السذج من البدو وأهالى الجبل هو المذهب الدرزى وهو مذهب باطنى يقوم على فلسفة غريبة عن الإسلام مفادها أن الحاكم بأمر الله هذا قد حلت فيه الروح الإلهية، وأنه صعد إلى السماء وسوف يظهر على الأرض قرب يوم القيامة، وأعفى هذا المذهب أتباعه من القيام بالتكاليف والعبادات الإسلامية لأن الحاكم بأمر الله أعفاهم منها، ومنعهم من تلاوة القرآن الكريم أو تفسيره، لأن مشايخ هذا المذهب هم الذين يحق لهم دون سواهم تفسير القرآن الكريم حسب ما يعرفون من علم باطنى لأن القرآن بزعمهم له معنيان، معنى ظاهريا ومعنى آخر باطنى لا يفهمه إلا هؤلاء المشايخ الذى يسمون – مشايخ عقل ومفردها شيخ عقل، وتوجد هذه الفرقة حتى الآن فى فلسطين وسوريا ولبنان، ودروز فلسطين هم حلفاء اليهود الدائمون، وتكون منهم الدولة الصهيونية فرقا حربية شديدة البأس تحارب بها الفلسطينيين كما تشكل منهم حرسا للحدود.

٣ - الفرقـــة البهائيـــة:-

نشأت فكرة المذهب البهائى أولا فى اليمن على يد رجل دين مسلم من أصل يهودى، ولما لم يجد قبولا لدعوته فى الجزيرة العربية هاجر إلى إيران ولقن دعوته هناك لرجل دين إيرانى، وما لبث هذا أن طور الفكرة وحولها إلى دين مستقل عن دين الإسلام وأطلق عليه الدين البهائى أو البهائية نسبة إلى شخصه الذى تسمى اسم بهاء الله، وإدعى أن الله تعالى قد تجلى عليه وحلت روحه فى جسده وأن كل ما يأتيه من تصرفات أو أفعال أو أقوال هى لله تعالى، وألف كتابا يتضمن أركان هذا الدين الجديد، وزعم أن هذا الدين ينسخ ما قبله من أديان ومنها دين الإسلام .

وكان ذلك فى بداية القرن التاسع عشر، وزعم هذا الدعى قدسية الرقم ١٩، بديل ذكره فى القرآن الكريم ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ *«المدثر٣٠»*. ولأن دينه ظهر فى القرن التاسع عشر، لذلك قسم السنة إلى ١٩ شهرا، وجعل أتباعه يصومون تسعة عشر يوما فى السنة، ولما إزدادت فتنته حاربته الحكومة الإيرانية وضيقت عليه الخناق، ولما مات تولى ابنه عباس أفندى الخلافة عنه وسمى نفسه عبد البهاء، وبشر بقيام دولة إسرائيل وبناء هيكل سليمان

وهاجر الى حيفا، والتف حوله اليهود وساعدوه على نشر دعوته فى جميع البلاد، وقدمت له الدول الأوروبية المساعدات، ولما مات دفن فى حيفا فى ضريح فخم بناه له اليهود والإنجليز ويحج البهائيون الى هذا الضريح الآن من كل بلاد الدنيا، وكان عبد البهاء هذا قد صنف كتابا عن الدين البهائى، وأدعى فيه أنه يتلقى الوحى عن والده، ويحتوى هذا المصنف على أركان العبادة فى هذا الدين الجديد وأسلوب التعبد وبعض المعاملات التى شذت عن كل ما هو مألوف ومتعارف عليه فى العالم، قديما وحديثا، ويكرسون العبادة فى طقوس هذا الدين لأبيه بهاء الله الذى يعتبرونه شريكا لله سبحانه وتعالى فى حكم الكون، والعبادة عندهم تكون فى حلقات يحضرها الرجال والنساء وترتكب فى هذه الحلقات كل أنواع الفواحش والمنكرات، وتختلط تعاليم هذا الدين بالزرداشتية وهو دين كان منتشرا فى فارس قبل ظهور الإسلام لذلك كان معظم معتنقى هذا الدين من الإيرانيين، ووفرت لهم حكومة الشاة السابقة كل أنواع الحماية، ولكن بعد قيام الثورة الإسلامية فى إيران وطرد الشاة، طاردتهم الحكومة الإسلامية وضيقت عليهم الخناق، فهاجر الكثيرون منهم إلى الولايات المتحدة وإسرائيل.

٤ - القاديانيـــــة:-

ظهرت هذه الفرقة فى الهند فى القرن الماضى فى بلدة قاديان، وأسسها رجل هندى كان يعمل كاتبا فى إحدى المحاكم الإنجليزية فى الهند، وأدعى هذا الرجل ويسمى أحمد أنه نبى من أنبياء الله، وأن النبى محمد عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين بمعنى أنه كالخاتم الذى يزين به الإصبع لوجاهته صلى الله عليه وسلم وعلو شأنه على سائر الرسل، وهذا لا ينفى أن يأتى بعده نبى يكون هو خاتم الأنبياء، وإدعى أنه هو هذا النبى الذى يتلقى الوحى من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام، وأن المسيح عليه السلام قد بشر بقدومه ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ *«الصف ٦»*. وساعد الحاكم الإجليزى هذا الرجل فى نشر دعوته، وكان هذا الحاكم يهوديا، ونادى أحمد القاديانى هذا بإلغاء فريضة الجهاد التى جاء بها الإسلام لأن الله تعالى أوحى إليه أنه لا لزوم لهذه الفريضة فى العصر الحديث، ورحب الإنجليز طبعا بذلك، لأن هذا القرن كان قرن الثورات على الإحتلال الانجليزى التى ساهم فيها المسلمون بنصيب كبير، وادعى هذا الوعى أنه مخول من قبل الله تعالى بتفسير

القرآن الكريم دون سائر البشر، وأعطى تفسيرات عجيبة لسور القرآن الكريم، ودعم الانجليز هذه الطائفة بالمال والنفوذ وحاولوا بسط سيطرتها على مسلمى الهند، وكما سبق أن ذكرنا فإنه فى عصر ظهور هذه الدعوة، كانت الهند تموج بالثورة ضد الإنجليز وكان المسلمون هم رواد هذه الثورة ومؤججوها، وتبعهم الهندوس فى ذلك، وحاول الإنجليز إخماد هذه الثورة بكل وسيلة، ومن ذلك إستخدام أصحاب هذا الدين لنشر الخنوع والتسليم بوجود الإنجليز.

وبعد إستقلال الهند سنة ١٩٤٨ وتقسيمها إلى دولتين هما الهند وأغلب سكانها من الهندوس وباكستان وغالبية سكانها من المسلمين، كانت مدينة قاديان من نصيب الهند، ولكن أفراد هذه الطائفة حاولوا الإنتشار بين المسلمين فى باكستان، وكان منهم أول وزير خارجية لباكستان وهو الوزير ظفر الله خان الذى ظل وزيرا للخارجية فترة طويلة، وحاول هذا الوزير تثبيت أقدام هذه الطائفة فى باكستان، ولكن توقف إنتشار المذهب القاديانى فى باكستان بعد أن فطن المسلمون إلى خطرها مع إزدياد إنتشار الثقافة الإسلامية والتعليم فى باكستان بعد الإستقلال.

ولكن القوى الإستعمارية الأوروبية حاولت تدعيم هذه الطائفة ونشر تعاليمها بين المسلمين فى شرقى أفريقيا وغربها، كذلك حاولوا دفع الوثنيين الأفارقة الذين إعتنقوا الإسلام حديثا أن يتبعوا هذه الطائفة، وكذلك قام اليهود بنشر مبادىء القاديانية بين المسلمين فى الولايات المتحدة ونجحوا فى ذلك إلى حد ما، وفى أثناء إقامتى فى الولايات المتحدة قابلت الكثيرين منهم، وكان لهم صحيفة أسبوعية تنطق باسمهم هناك وتتولى نشر دعوتهم، ومن العجيب أن إذاعة الفاتيكان الفضائية التى تنطلق من روما تخصص ركنا خاصا عليها للمسلمين للكلام عن الإسلام وشرح القرآن الكريم وتفسيره، وقد شاهدت بنفسى هذا البث التليفزيونى، ورأيت فيه رجلا يلبس ثياب وزى خلفاء المسلمين ويسمى نفسه أمير المؤمنين ويجلس وسط زمرة من الأتباع والتابعات يسألونه عن الأحكام الدينية وتفسير آيات القرآن الكريم وهو يجيب عليهم باللغة الإنجليزية، وهناك مترجم يتولى ترجمة ما يقول باللغة العربية، وبعد مشاهدتى لهذا البث تبين أن أمير المؤمنين هذا هو زعيم الطائفة القاديانية ومخول كما يقول من نبى هذه الطائفة فى الزعامة وشرح القرآن الكريم، وكان كل ما ينطق

به فى هذا الخصوص شططا، فعجبت من هذا الأمر ومن إحتلال زعيم القاديانية وأتباعه للركن المخصص للمسلمين بصفة مستمرة، والأعجب من ذلك هى المساعدات المالية الضخمة التى يتلقاها أبناء هذه الطائفة فى الولايات المتحدة من الحكومة ومن هيئات أخرى بعضها هيئات مسيحية.

الفصل الثامن

الدونمة التركية أو اليهود المسلمون
الطائفة التي تسيطر علي الحياة
السياسية والإقتصادية في تركيا

الفصل الثامن

الدونمة *Daunema* التركية أو اليهود المسلمون
الطائفة التي تسيطر علي الحياة
السياسية والاقتصادية في تركيا

لأهمية هذه الطائفة وخطورة الدور الذى تلعبه فى تركيا الإسلامية، قررت إفراد باب خاص عن هذه الطائفة، وساعدنى فى ذلك معرفتى باللغة وإتصالاتى وسهولة تحصلى على المراجع التى ساعدتنى فى كتابة هذا الفصل. ونبدأ هذا الفصل بالواقعة التالية:-

قام وزير الدفاع الإسرائيلى إسحاق موردخاى فى عهد حكومة ناتانياهو بزيارة تركيا على رأس وفد عسكرى إسرائيلى وذلك فى مطلع عام ١٩٩٩، وتوجهوا إلى مقر هيئة الأركان التركية وإجتمعوا مع كبار جنرالات الجيش التركى، وكان على رأس هيئة الأركان وقتها الجنرال إسماعيل حقى قرضاى، ودهش الكثيرون منا فى العالم العربى من حرارة الترحيب التى قوبل به أعضاء الوفد الإسرائيلى من هيئة الأركان التركية، مما دفع وزير الدفاع الإسرائيلى إلى القول بأنه يشعر ببهجة شديدة لأنه موجود بين أهله وإخوانه، ومنذ أيام قلائل (فى منتصف مايو سنة ٢٠٠١) قام وزير الخارجية الإسرائيلى شمعون بيريز بزيارة لتركيا مع وفد من العسكريين الإسرائيليين، وحضروا إحتفالا كبيرا فى وزارة الخارجية التركية رأسه إسماعيل جم وزير الخارجية التركية وكانت المناسبة تكريم مساعد وزير الخارجية التركية وعدد من رفاقه وذلك بسبب مجهوداتهم العظيمة التى لا تنسى وخدماتهم لإسرائيل، لمساعدتهم فى تهجير يهود رومانيا والمجر إلى إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية، وقلد شمعون بيريز هؤلاء المكرمين أرفع الأوسمة الإسرائيلية. وفى شهر يونيه سنة ٢٠٠١ قام الجيش الإسرائيلى بعمل مناورات جوية وبرية فى منطقة قونية فى الأناضول بالاشتراك مع الجيش التركى مما دفع أهالى هذه المنطقة من الأناضول بالاحتجاج والتذمر لأن هذه

المناورات أضـرت بالمواشى والمحـاصـيل فى منطقـتـهم، وفى يوم ٢٢ يونيـه سنة ٢٠٠١ أصدرت المحكمة الدستورية العليا فى تركيا حكما بإلغاء حزب الفضيلة التركية الذى يملك ١٢٢ نائبا فى البرلمان التركى ومن أكبر الأحزاب التركية بحجة أن هذا الحزب له إتجاهات إسلامية تتنافى مع المبادىء العلمانية التى أرسى قواعدها كمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة، وتم حل هذا الحزب رغم الأزمة المالية الخانقة التى تعانى منها البلاد الأن، وما يتوقع من تأثيرات ذلك الحل المدمرة على الإقتصاد التركى والحياة الاجتماعية فى البلاد، ويلاحظ أن حل هذا الحزب جاء بأمر من هيئة الأركان العسكرية التى تحكم البلاد وتتحكم فى شئونها رغم وجود ديموقراطية صورية وأحزاب سياسية لا حول لها ولا قوة.

ونرجع إلى بداية هذا الفصل ونتساءل ما سر إبتهاج الوفد الإسرائيلى العسكرى الذى زار هيئة الأركان التركية وتصريح موردخاى بأنه يوجد بين أهله وإخوانه؟ وما سر الترحيب الشديد بالإسرائيليين من قبل العسكريين الأتراك الذى يقابل به الإسرائيليون فى كل زيارة لهم لتركيا، والنياشين الإسرائيلية التى تمطرهم بها إسرائيل بين حين وآخر؟ وللإجابة على ذلك نقول:-

يوجد فى تركيا مجلسا يسمى مجلس الأمن التركى ويتكون هذا المجلس من رئيس الأركان العام وكبار جنرالات الجيش وقليل من السياسيين مثل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، ويعتبر هذا المجلس هو الأمين العام المنوط بها مراقبة الإتجاهات السياسية الداخلية والخارجية حتى لا تخرج عن الخط العلمانى الذى خطه للبلاد مصطفى كمال أتاتورك مؤسسة الجمهورية التركية منذ أكثر من ٧٥ سنة، وكان مصطفى كمال ينتمى لطائفة الدونمة التركية التى نحن بصدد الكتابة عنها، وكان مولده فى مدينة سالونيكا التى كانت مركزا لتجمع اليهود والدونمة فى عهد الدولة العثمانية، وتم ضم سالونيكا بعد ذلك إلى اليونان.

وأى حكومة أو أى حزب سياسى يحاول الخروج عن الخط العلمانى يقابل بالردع الفورى من هيئة الأركان العامة بما يؤدى إلى إسقاط الحكومة أو حل الحزب المارق وتقديم زعمائه إلى المحكمة الدستورية العليا التى غالبا ما تحكم عليهم بأحكام غاية فى القسوة مثل السجن مع الأشغال الشاقة المؤبدة مثل ما حدث مع الدكتور نجم الدين أربكان زعيم حزب السلامة

ومع باقى زعماء الحزب، وقد يصل الأمر إلى إعدام بعض الزعماء مثل ما حدث من إعدام رئيس الحكومة الأسبق عدنان مندريس الذى يطلق عليه الأتراك الآن الشهيد مندريس لأنه يعتبر أول من رفع صوته ضد تحكم العسكر، المهم ألا تتجاوز مبادىء أى حزب سياسى المبادىء التى وضع إطارها كمال أتاتورك والتى يجب أن تدور فى فلكها جميع نظم الحكم التركية والتى تهدف فى النهاية إلى قطع أى علاقة بين ماضى تركيا وتاريخها الإسلامى مع ربطها دائما بالغرب وعزلها عن العالمين العربى والإسلامى، ومحو الأصول التراثية والثقافية للشعب التركى ومحاربة جميع المظاهر الإسلامية داخل المجتمع التركى بكل حزم حتى ولو كانت بسيطة، ومنذ عدة أشهر حكمت المحكمة العليا بعزل نائبة البرلمان مروى قاوقجى لأنها تجرأت وارتدت حجاب الرأس داخل البرلمان التركى، ثم أمرت المحكمة بتجريدها من الجنسية التركية فى أقسى حكم شهدته تركيا من هذا النوع، وأيضا حكمت نفس المحكمة بفصل ٣٥٠ مدرسة تركية من عملهن لأنهن أصررن على لبس حجاب الرأس أثناء العمل. وفى حادثة أخرى أصدرت إدارة الجامعات التركية قرارا بفصل الطالبات الائى يدخلن كليات الجامعة مرتدين لحجاب الرأس، وكان عدد هؤلاء كبيرا جدا، وقاموا بمظاهرة حاشدة أمام جامعة اسطنبول وهم يمسكون بالمصاحف فى أيديهن، وقامت الشرطة بضربهن بقسوة شديدة والقبض على الكثيرات منهن، وفى حادث آخر أصدر بولنت أجاويد رئيس الحكومة التركية قرار بفصل ٢٠ ألف موظف تركى من وظائفهم لأنهم يقومون بالصلاة فى أثناء العمل ويصومون رمضان ولهم إتجاهات دينية، ولكن رئيس الجمهورية أحمد نجدت رفض إمضاء هذا القرار والتصديق عليه مما أثار أزمة شديدة بينهما إنتهت بانتصار رئيس الجمهورية.

وحتى وقت قريب كان تعلم اللغة العربية أو النطق بها أو الكتابة بالخط العربى جريمة بشعة يعاقب عليها القانون، ومن مظاهر تطبيق القوانين الكمالية السماح للمرأة التركية المسلمة بالتزوج بزوج غير مسلم وتشجيع النساء على ذلك، مع أن عدد المسلمين فى تركيا يصل إلى ١٠٠ ٪ وهى أكبر نسبة من المسلمين فى أى قطر إسلامى، وفى شهر مايو سنة ٢٠٠١، أعلنت فتاة تركية مسلمة تعيش فى ألمانيا هى وأسرتها أنها سوف تتزوج ابن هلمت كول الرئيس الألمانى السابق وأنها سوف تسافر إلى اسطنبول مع خطيبها ليعقدوا القران هناك

على يد مأذون على الطريقة الإسلامية وبعد ذلك يعودون إلى ألمانيا ليعقدوا القران ثانيا على يد قس فى أحد الكنائس الألمانية، ورحبت الصحف التركية بهذه الفكرة وامتدحتها ولكن الأوساط الشعبية كانت فى إستياء بالغ من ذلك.

ومن المعروف أن الجيش التركى قد قام بأربعة إنقلابات ضد الحكومات التى إنحرفت ولو قليلا عن الخط العلمانى الكمالى فى أثناء الخمسين سنة الماضية وتولت حكومات عسكرية حكم البلاد حكما مطلقا لفترات طويلة.

وبالبحث والتحليل لهذه الظاهرة، تبين للدارسين أن هيئة الأركان التركية وكبار جنرالات الجيش لا يتم إختيارهم إلا من بين أبناء طائفة الدونمة التركية منذ عهد كمال أتاتورك حتى يومنا هذا، وهذه الطائفة هى التى تحكم سيطرتها على الجيش وتضع السياسة العامة له وللدولة التركية وتمنع أى تسلل من قبل ضباط القاعدة إلى طبقة الجنرالات العظام، كذلك لابد أن يكون المدعى العام التركى وقضاة المحكمة الدستورية العليا من المنتمين لهذه الطائفة وإذا نظرنا إلى المجتمع التركى ككل، لوجدنا أن طائفة الدونمة تسيطر سيطرة تامة على جميع وسائل الإعلام التركية من صحف ومجلات ومحطات تلفزيونية، ويمتلك أفراد من هذه الطائفة جميع هذه الوسائل الإعلامية.

ويسيطر أفراد الطائفة على المصارف ودور المال والمؤسسات الاقتصادية الأخرى وكذلك المؤسسات الصناعية والشركات.

وبعد أن إستطردنا فى الكتابة عن هذه الطائفة، لعل القارىء يسأل من ماهية هذه الطائفة والأهمية الكبيرة التى اكتسبها؟ وللإجابة على ذلك لابد لنا من الرجوع إلى عمق التاريخ.

ولعلنا نعرف أن اليهود لم يعترفوا أبدا بعيسى المسيح عليه السلام، وظلوا حتى اليوم ينتظرون قدوم المسيح اليهودى الذى يعيد إليهم مجدهم ودولتهم ويفرض سيطرتهم على العالم أجمع، وكلمة مسيح باللغة العبرية تعنى النبى المخلص الذى يرسله «يهوه» أى الله لإنقاذ بنى إسرائيل، وقد تسبب هذا الإعتقاد فى ظهور كثيرين إدعى كل منهم بأنه هو

المسيح المنتظر، منهم تيوداس الرومانى عام ٤٤ ميلادية، وموسى التكريتى وأبو عيسى الأصفهانى ثم ساباتاى الأزميرى نسبة إلى مدينة أزمير التركية.

وظهر ساباتاى فى عهد الدولة العثمانية وفى سنة ١٦٤٨ ميلادية، وكانت آنذاك تعانى من إضطرابات شديدة، فقد ثار الجند على السلطان إبراهيم وقتلوه ثم عاثوا فى الأرض فسادا، وإنتهزت دولة البندقية هذه الفرصة وأرسلت أساطيلها تهدد الشواطىء العثمانية.

وفى نفس الوقت عجز الجيش العثمانى للمرة الثانية عن فتح قلعة فينا عاصمة النمسا، أما أوروبا فكانت تعيش عصر محاكم التفتيش وكبت الحريات واضطهاد المسلمين واليهود خاصة فى أسبانيا، ولم يجد الكثيرون من اليهود حاميا لهم إلا الدولة العثمانية ومملكة المغرب لما عرف عنهما من تسامح دينى فرضه الإسلام على مجتمعاته، لذلك إتجه اليهود المضطهدين إلى تركيا والمغرب، ليعيشوا فى ظل السماحة والأمان.

وفى هذا الوقت ولد فى أزمير يهودى يدعى ساباتاى فى سنة ١٦٢٦ . م لأب يدعى موردخاى زفى، كان يعمل تاجرا، وهو من أصل أسبانى، وفى تلك الأثناء ادعى بعض اليهود أيضا أن حساب الجمل لبعض الكلمات الواردة فى التوراة تقول بأن المسيح سوف يظهر فى عام ١٩٤٨ م. لكى يقود اليهود، وأنه سوف يظهر فى صورة نبى مخلص يحكم العالم من فلسطين ويجعل من القدس مركزا وعاصمة للدولة اليهودية.

وكان ساباتاى فى هذه الأثناء قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، فأخذ يعد نفسه ليصبح هو ذلك المسيح المنتظر، وكان هذا الشاب مصابا بحالة صرع ومعتل الصحة والمزاج ينفر منه حاخامات أزمير، وفى العام المحدد (١٦٤٨م) أعلن ساباتاى أنه هو المسيح المنتظر، وفى سنة ١٦٦٣م. سافر ساباتاى إلى مصر، وإستضافه فيها يهودى يدعى رافاييل جوزيف، ويطلق عليه المصريون يوسف جلبى وكان رئيس الصيارفة بالقاهرة، وآمن رافاييل بساباتاى وقدم دعما ماليا كبيرا لحركته، ثم سافر ساباتاى الى فلسطين وتعرف على يهود القدس، ثم عاد إلى أزمير سنة ١٦٦٦ حيث كانت شهرته قد طبقت الآفاق.

وفى أزمير إنهالت عليه وفود اليهود من رودس وأدرنة وصوفيا واليونان وألمانيا، وقلدته الوفود تاج ملك الملوك، وتصور أنه سوف يحكم العالم من فلسطين، وكان يوقع على خطاباته بلقب «الابن الوحيد الأول ليهوة» .

وبعد قليل إدعى يهودى آخر يسمى كوهين أنه هو المسيح المنتظر، وقدم كوهين هذا إلى القصر السلطانى شكوى ذكر فيها أن ساباتاى يعد العدة للقيام بتمرد يهدف إلى إقامة دولة لليهود فى فلسطين، فأصدر القصر السلطانى أمرا بالقبض على ساباتاى، وأحضر إلى القصر حيث واجه هناك هيئة من العلماء برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية شيخ الإسلام، وبعد مناقشات اللجنة له أعلن ساباتاى إسلامه والعدول عن إدعاءاته وسمى نفسه محمدا، وخصص له السلطان ربع راتب رئيس البوابين فى القصر، وأصبح يدعى محمد البواب، وبعد هذا ارسل ساباتاى رسالة إلى أتباعه ذكر لهم فيها أن «يهوة جعلنى مسلما، أنا أخوكم محمد البواب، هكذا أمرنى يهوة فأطعت» . ثم قدم أخوه للأتباع التوضيح التالى:-

«كيان ساباتاى القديم صعد إلى السماء، وبأمر من يهوة فإنه يستمر ملكا ومسبحا لليهود ولكن تحت جبة وعمامة»

وعلى هذا أطلق الأتراك لفظ «دونمة» على أتباع ساباتاى، والدونمة كلمة تركية تعنى العائد أى الذى إرتد إلى اليهودية بعد أن كان مسلما، ثم أصبحت هذه الكلمة فيما بعد تعنى المسلم ظاهرا واليهودى باطنا .

بعد ذلك طلب ساباتاى من السلطات التركية السماح له بالتجول فى البلاد العثمانية لدعوة اليهود إلى الإسلام، فسمحت له الدولة بذلك، ولكنه بدلا من ذلك إنطلق إلى اليهود يدعوهم إلى الإيمان به ويحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين الإسلام فى الظاهر مبطنين الساباتية .

ثم أصدر وثيقة تضمنت أسس دعوته وجهها إلى كل المؤمنين به، وتصدرت الوثيقة هذه الجملة «هذه هى الأوامر الثمانية عشر التى أمر بها سيدنا وملكنا ساباتاى زفى فليزدد شرفه»، وتضم هذه الوثيقة أمرا بالإيمان بأن مسيح يهوة هو المخلص الحق ولا مخلص غيره وهو سيدنا وملكنا ساباتاى زفى، وأنه من نسل داوود عليه السلام ويجب على الأتباع قراءة



شـــكل ٥:
صـورة لسـاباتاى زقى بعـد أن لبس الجـبـة والعمامة رسمها له أحد أتباعه عام ١٦٦٢م



شـــكل ٦ :
صـورة لساباتاى زفـى جـالسا على العرش وهو يتـوج من قـبل الملائكة والصورة السفلية لقبائل اسـرائيل الاثنى عـشـر تـدرس التـوراه مـع سبتاى.
(الصورة عام ١٦٦١م)

مزامير داوود كل يوم سرا، ويجب مراعاة الأتراك المسلمين ذرا للرماد فى أعينهم، ويجب عدم الضيق بصوم رمضان أو عند تقديم أضحية العيد، بل يجب المحافظة على جميع المظاهر الدينية الإسلامية، وممنوع الزواج من المسلمين، كذلك نصت الوثيقة على أن اليوم الذى أسلم فيه ساباتاى هو يوم عيد يحتفل به إحتفالا كبيرا.

وبعد تأكد السلطات التركية من زيف إسلام ساباتاى، نفته إلى ألبانيا حيث مات ودفن هناك فى ١٦٧٥/٩/٣٠م.

وبعد تكون طائفة الدونمة، عاش أفراد هذه الطائفة بين المسلمين، ولكنهم يختلفون عنهم، فهم يتسمون بالاسماء الإسلامية، ثم يضيفون إلى هذه الأسماء لقبا يهوديا، مثل «محمد جاهد يلتشين» نقيب الصحفيين الأتراك الأسبق، ويؤدى أفراد هذه الطائفة الشعائر الإسلامية ظاهريا مثل الصلاة فى المساجد أو صوم رمضان وأحيانا الحج، وكان وكان لهم عادات خاصة مثل لبس الأحذية بدون كعوب، وحلق شعورهم بالموس، وتتكون طائفة الدونمة من ثلاث فرق هى:-

اليعاقبة والقراقاشية والقابانجية، ولهم مدارسهم ومدافنهم الخاصة. وتركزت جهود الدونمة منذ الحرب العالمية الأولى الى دفع عجلة التغريب فى المجتمع التركى وقطع كل صلة للأتراك بماضيهم ودينهم وتراثهم الفكرى وكتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية بدلا من الأحرف العربية حتى تضمن إستمرار قطع صلة الأجيال التركية بماضيهم وتاريخهم الإسلامى المشرف المدون بالأحرف العربية. واستغلوا السلطة المطلقة التى تمتع بها كمال أتاتورك وهو كما سبق أن ذكرنا من الدونمة- فى فرض المظهر الأوروبى فى الملبس والهيئة على الشعب وتشجيع الإختلاط بين الرجال والنساء وإلغاء قوانين الأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة الإسلامية وتشجيع الفتيات المسلمات على التزوج بغير المسلمين، وإقامة مسابقات الجمال بين النساء والتى تتبناها الدونمة حتى الآن، وفتح دور الدعارة المرخص بها من الدولة فى كل المدن والتجمعات التركية، وتشجيع أهالى الريف وأهالى المدن على شرب الخمور وصناعتها، حتى أصبحت تركيا الآن من أكبر الدول المنتجة للنبيذ فى شرق أوروبا، ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن صحيفتى ميلييت وكون إيدن المملوكتين للدونمة هما الصحيفتان اللتان تتوليان تنظيم مسابقات الجمال بين الفتيات حتى الآن.

ولعل سائل يتساءل: ما هو الدور الذى يلعبه يهود الدونمة فى الحياة السياسية التركية؟

وللإجابة على ذلك نجد أنه منذ إعلان ساباتاى الإسلام ويهود الدونمة يحتلون مراكز هامة فى الدولة، مثل أمين الترسانة البحرية وأمين الصرة وكتخدا القصر وكتخدا المدينة وذلك فى العهد العثمانى، وعند ظهور حزب الاتحاد والترقى فى أواخر أيام الدولة العثمانية، إندس فرع القابانجية من الدونمة فى خلايا الحزب وأداروا الجزء الأكبر من الانقلاب الذى قام به حزب تركيا الفتاة ضد السلطان عبدالحميد الثانى وخلعه، وبذلك أفسح المجال لقيام الحكم العلمانى، وفى بداية القرن العشرين ظهر أبرز ساسة الدونمة وهو قراصو عضو اللجنة التى قابلت السلطان عبدالحميد لخلعه، وكان هو مسئول جمعية الإتحاد والترقى عند إثارة الشغب ضد عبدالحميد لتهيئة الفرصة لحل جمعية الشورى، وقداصو هذا هو الذى باع ليبيا إلى إيطاليا وخان الدول العثمانية فى نظير رشوة من الإيطاليين.

وتوجد أسماء أخرى كثيرة من يهود الدونمة برزت فى شتى فروع الحياة التركية، منها محمد جاويد وزير المالية فى عهد الإتحاد والترقى ونزهت فائق وهو أحد وزراء مالية العهد ذاته ومصطفى عارف أحد وزراء داخلية الإتحاد والترقى ومصلح الدين عادل وكان مستشارا لوزارة التعليم التركية وأستاذ فى كلية الحقوق.

وأما فى مجال الإعلام فيمسك الدونمة بجميع فروع الإعلام رغم قلة عددهم كطائفة (عددهم الآن فى تركيا ٣٠٠٠٠ نسمة)، وأبرز عائلات الدونمة من العاملين فى الإعلام الآن فى تركيا هم من عائلات قابانجى وكبار وإيبكجى، والأخيرة لها مكانتها الضخمة فى الحياة الإعلامية فى تركيا، وتأثير الدونمة على هيئات الإذاعة والتلفزيون التركية ضخم للغاية، وكذلك فإن أكبر دور النشر وأعظم الصحف التركية يمتلكها ويديرها الدونمة، وكان أول صحفى من يهود الدونمة يخرج من المحلية إلى العالمية هو أحمد أمين بالمان (سلونيك ١٨٨٨ - إستانبول ١٩٧٣) الذى أسس عدة صحف ومجلدات هامة، وإشترك فى بعض المؤتمرات الصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتبنى أثناء الحرب العالمية الأولى قيام دولة أرمنية ودولة كردية يقتطعان من الأراضى التركية، كما نادى بعد الحرب العالمية الأولى بضرورة قبول تركيا للحماية الأمريكية، وناصر أيضا قضايا الماسون الأتراك ودافع

عن قضايا الشيوعيين الأتراك وعن أمن إسرائيل، ونشط فى الدعاية للصهيونية، وكان معاديا بشدة للإسلام والمسلمين حتى أن الشاعر التركى يزن توفيق هجاه بقصيدة مطلعها «أحمد أمين دونمه خبيث: يقذف بالطين أهل الشرف». وكان آخر اسم كبير فى الصحافة التركية هو عبدى إيبكجى أشهر صحفى تركيا وهو من عائلة إيبكجى الكبيرة، وتولى عبدى إدارة صحيفة مليت الصباحية اليومية منذ عام ١٩٦٤، كما ترأس نقابة الصحفيين الأتراك، وكان عضوا فى اللجنة التحضيرية لقانون أخلاق الصحافة ثم الأمين العام لديوان الشرف الصحفى، ولعبدى إيبكجى شهرة عالمية، إذ أنه كان عضوا بمجلس إدارة الصحافة بزيورخ (I. B. I) المعروف بسيطرة اليهود عليه، وفى سنة ١٩٦٨ عين عبدى عضوا فى هيئة التدريس بمعهد الصحافة بجامعة إستانبول، وإغتيل عبدى يوم ٢/٢/ ١٩٧٩ واهتزت تركيا لمقتله، وقبض على القاتل بعد ٥ أشهر من عملية الإغتيال، ويمتلك يهود الدونمة مؤسسة جريدة «حريت»، ويوزع منها يوميا ما بين ٨٠٠٠٠٠ الى مليون نسخة، ولها مكانتها بين أكثر من ٢٠ صحيفة فى العالم من ناحية التوزيع، وقد صدر العدد الأول منها فى مايو سنة ١٩٤٨ وشعارها تركيا للأتراك، وهذه المؤسسة لها دار نشر معروفة وعدة مجلات أخرى دورية أسبوعية وشهرية وسنوية، مثل:- هفتة صوفو، وبيللريوبو (مجلة التاريخ) وهى شهرية، ومؤسس دار حريت للصحافة والنشر هو سداد سيماوى من يهود الدونمة، ولما مات أخذت أسرته تدير المؤسسة، وجريدة كون إيدن، وترجمتها صباح الخير، وهى صباحية تطبع ٥٧٠ ألف نسخة يوميا، وهى ثانى صحف تركيا بعد حريت توزيعا ويملكها الدونمة، وتتبعها مجلة «صنعت» أى الفن الأسبوعية، ودار نشر مليت بسلاسلها المشهورة، وجريدة جمهوريت الصباحية يمتلكها الدونمة ولها صبغة يسارية، ويديرها الدونمى فوزى تون، ويصدرها الآن رشاد أتابك من يهود الدونمة، وجريدة ترجمان ثالث الصحف التركية الصباحة إنتشارا، ويمتلكها عثمان كبار وهو من عائلة كبار الدونمية، وكان هذا الكاتب والصحفى البارز رئيسا لبلدية إزمير قبل إمتهانه الصحافة، ويوجد أيضا من يهود الدونمة أسماء لامعة تلعب فى جميع المجالات، ومنهم إسماعيل جم، وزير الخارجية حاليا وفى الوزارة السابقة أيضا، وهذا الرجل هو مؤسس جريدة بولتكا اليومية الصباحية، وكان من أبرز الكتاب الماركسيين، وكان يعمل من قبل فى جريدة مليت ثم مديرا لهيئة الإذاعة والتلفزيون التركية حتى سنة ١٩٧٥ حين طردته وزارة الإئتلاف الوطنى من منصبه، ثم أخذ يكتب المقالات المؤيدة لإسرائيل

والمعادية للعرب فى جميع الصحف حتى عين وزيرا للخارجية فى حكومة يلمظ ثم فى حكومة أجاويد الحالية، وهو من أعضاء حزب الشعب الجمهورى البارزين، وفى النهاية يتبين أن الإعلام التركى فى غالبيته واقع فى يد الدونمة سواء أكان صحفا أو مجلات أم إذاعة أو تلفزيون، وكان لهذا أثره فى الدعاية لإسرائيل وتبنى وجهات نظرها فى إيجاد رأى عام تركى مؤيد لها وإبعاد الأتراك من الإسلام والعرب، كذلك تقوم أجهزة الإعلام التركية بخدمة اليهودية العالمية، فمن مقالات سامى كوهين (مدير الشئون الخارجية فى جريدة مليت) إلى عرض الأفلام المؤيدة لإسرائيل فى التلفزيون التركى خاصة فى عهد إدارة إسماعيل جم، وتبنى المحطات التلفزيونية التركية بث الأفلام الإباحية لإفساد الشبيبة التركية ويعمل يهود الدونمة ضد تركيا والعرب من داخل منظمات عديدة منها جمعية الإتحاد اليهودى العالمى والمنظمة الصهيونية العالمية ومنظمة رأس المال العالمى.

وفى النهاية يمكن للقارىء أن يتبين السبب فى تباعد تركيا عن العرب والمسلمين، وميل الطبقة العسكرية بها إلى تأسيس الأحلاف العسكرية والتعاون العسكرى مع إسرائيل، وإعتماد تركيا على اللوبى اليهودى الأمريكى واللوبى اليهودى الأوروبى من إدخال تركيا إلى منظمة دول التعاون الأوروبى بالرغم أنها لم تقبل حتى الآن فى هذه المنظمة، ويبدو أن اليهود يلعبون مع تركيا لعبة خبيثة كعادتهم، فهم يقنعونهم بأنهم سيكونون وراءهم فى الضغط على الأوروبيين من أجل إدخالهم دول الإتحاد الأوروبى، ويقومون ببعض التحركات والنشاط الظاهرى فى هذا المضمار، ولكنهم فى نفس الوقت يعرقلون وصول تركيا إلى الإتحاد بطرق خفية حتى تظل هذه دائما فى حاجة إليهم، ومما يؤيد هذا الرأى أن البرلمان الفرنسى أصدر قرارا يحمل فيه الأتراك مذابح الأرمن فى نهاية العهد العثمانى، ولم يتحرك اللوبى اليهودى الفرنسى القوى لمنع صدور هذا القرار وقد كان يستطيع ذلك.

بعض المعلومات الطريفة عن فرق الدونمة

جاء فى بعض المراجع التركية التى وقعت تحت يدى بعض المعلومات الطريفة عن فرق الدونمة التركية والأيدلوجية التى تسير عليها كل فرقة منها، وكما سبق أن ذكرنا فإن الدونمة تنقسم إلى ثلاث فرق هى:-

١ - **اليعاقية** :- وهذه الفرقة هى أقدم الفرق التركية، وقد سميت بهذا الإسم نظرا لأنهم يتبعون يعقوب فوريدو صهر ساباتاى وأخ زوجته الثانية، وقد إدعى فوريدو بعد موت ساباتاى أن روح ساباتاى قد حلت فيه، وأنها مستمرة من أجل خلاص العالم، وأتباع هذه الفرقة يحلقون شعر رءوسهم بالموس ولكنهم يرسلون لحاهم، واليعاقبة هم الفرقة الأكثر عددا، وقد إنفصل عن فوريدو هذا أحد أتباعه واسمه بروخيا (عثمان بابا) وكون فرقة أخرى منفصلة هى القراقاشية.

٢ - **القراقاشية** :- يعتقد أفراد فرقة القراقاشية أن بروخيا يمثل العقيدة الساباتية الحقيقية، ويضفى عليه أتباعه نوعا من التأليه، ولذلك فهم يتوجهون فى صلاتهم إليه وإلى ساباتاى، ويرسلون لحاهم ولا يحلقون رءوسهم، وبعد وفاة بروخيا جاء أحفاده وترأسوا الطائفة، ومنهم درويش أفندى الذى أدخل الإباحية الجنسية فى طقوس الطائفة مستندا فى ذلك إلى تأويلات لبعض نصوص كتب اليهود الدينية.

٣ - **القابانجية** :- وهى كلمة تركية معناها القدماء، ويسمون أيضا الببولار أى الأنصار الحقيقيين والفرسان، وقد إنفصل هؤلاء عن جماعة بروخيا فى العشرينيات من القرن الثامن عشر أى بعد وفاته مباشرة، وهم لا يعترفون بفوريدو ولا ببروخيا، ويتميزون بأنهم يحلقون لحاهم ويرسلون شعر رءوسهم، ونساؤهم يضفرون شعر رءوسهن ضفائر رفيعة جدا، وأعضاء هذه الفرقة هم المثقفون من الدونمة ولهم معابدهم الخاصة بهم، ويقع المعبد عادة وسط الحى ويطلق عليه (قهل) وهى كلمة عبرية معناها جماعة المصلين.

هذا وبالرغم من أن الدونمة يذهبون إلى المساجد ويؤدون الصلاة وبعض الشعائر الإسلامية الأخرى، إلا أن العبادة الحقيقية تكون فى معابدهم، ويطلقون على الشخص الذى يقودهم فى صلاتهم الخوجة أو الحاخام وذلك جريا على عادتهم فى الإزدواجية، وبالرغم من إختلاف فرق الدونمة الثلاث فيما بينهم إلا أنهم يدفنون موتاهم فى مقابر واحدة، ولهم مجلس أعلى يضم رؤساءهم ويحافظ على مصالحهم.

إزدواجيــــة اللغـــــة

كان الدونمة يستعملون لغة عبرية محرفة فى الحديث فيما بينهم، إلا أنهم فى بداية القرن العشرين بدأوا يستعملون اللغة التركية فى أحاديثهم والعبرية فى صلاتهم وهم يكتبونها بحروف لاتينية. وكتب الصلوات عبارة عن كتيبات صغيرة ليسهل إخفائها عن غيرهم، وفى سنة ١٩٣٥ حصل بعض الأتراك المهتمين بدراسة موضوع الدونمة على كتيب من كتيبات صلاتهم، وإتضح من دراستها أن أغلب صلواتهم مأخوذة من الكتب الدينية اليهودية كالسدور والمحزور مع بعض التغييرات كوضع إسم ساباتاى زفى فى كل مناسبة ممكنة ومن صلواتهم التى يرددونها ما يلى:-

أؤمن إيمانا حقا بإله الحق رب إسرائيل

وأؤمن إيمانا حقا بأن ساباتاى زفى هو الملك والمخلص الحق وأومن إيمانا حقا بأن ساباتاى زفى جل جلاله هو المخلص الذى سيجمع إسرائيل المتفرقين فى أركان الأرض الأربعة.

ومن المزمور الثانى يقرأون:- لقد غاب عنى أقرب الناس إلى، ساباتاى زفى الذى إختاره الإله، سأبقى عبده المخلص وسأبقى أطلبه وأمجده إلى الساعة الأخيرة من حياتى، فلعله يغفر ذنوبى.

إليه أرفع عينى بالدعاء والأمل

إمدحوه بأصوات عالية من أجل خلاصكم.

تبــــادل الزوجــــات:-

ذكر عن الدونمة أنهم يتخذون تبادل الزوجات والإباحية الجنسية طقسا من طقوسهم، ومن الإنصاف أن يقال إن هذا الطقس لا يطبقه كل أتباع الدونمة كما هو شائع، وإنما يطبقه بعض فروعهم، وهذا الكلام ليس تهمة ألصقت بهم، وإنما هى حقيقة قامت عليها أدلة، فقد ذكر أحد الباحثين واسمه إبراهام جلنت كان قد إطلع على بعض طقوس الدونمة بأن هذا الطقس يطبق كالتالى:-

فى ليلة الثانى والعشرين من مارس الذى يعتبر يوم عيد الحمل، تلبس الزوجات أحسن ملابسهن وأجمل حليهن، ويبدأون بطعام العشاء، وبعد العشاء تطفأ الأنوار، وتبدأ عملية تبادل الزوجات ويعتبر الأولاد الذين يولدون نتيجة لذلك أولادا مميزين ومباركين.

الدونمة بين اليهودية والإسلام:-

ظهر فى ثلاثينيات القرن الماضى كتاب عن ساباتاى زفى والدونمة عن الكاتب التركى المعروف إبراهيم قوقزا، يقول فى هذا الكتاب أن من يدرس حياه الدونمة من خلال عقيدتهم وصلواتهم وإمتناعهم من الزواج من غيرهم، يرى أنهم فرقة خاصة ليست من الإسلام فى شىء، يضاف إلى ذلك أن الدونمة لم يذكروا أبدا أى شىء عن الإسلام فى أدبياتهم، وكذلك لم يلجأوا فى أى وقت من الأوقات إلى المحاكم الإسلامية أو إلى علماء المسلمين فى حل خلافاتهم. أما بالنسبة لعلاقتهم باليهودية، فإن مؤرخى حياة مؤسس فرقتهم يذكرون أنهم لم يتخل عن علاقته باليهود واليهودية، كذلك لم يتخل الدونمة عن اللغة العبرية، وكان أءمتهم حتى عهد قريب يدرسون التلمود، وقد عثر على وثائق مؤرخة سنة ١٩١٠ تتضمن أجوبة كان قد أجاب عليها حاخامات اليهود عن أسئلة دينية وجهها إليهم الدونمة.

يضاف إلى ذلك أن مجموعة كبيرة من الدونمة قدموا طلبا إلى رجال الدين اليهود فى سالونيكا طالبين قبولهم فى الرجوع الى اليهودية، ولكن هؤلاء رفضوا طلبهم لأنهم إعتبروهم أبناء غير شرعيين بسبب ما هو معروف عن موضوع تبادل الزوجات، لذلك يمكننا أن نقرر أن الدونمة طائفة خاصة لها عاداتها وتقاليدها وأماكن عبادتها الخاص.

الفصل التاسع

مشروع إنشاء دولة لليهود في فلسطين
فكرة أوربية قبل أن تكون صهيونية

الفصل التاسع

مشروع إنشاء دولة لليهود في فلسطين
فكرة أوروبية قبل أن تكون يهودية

فى القرن الحادى عشر الميلادى، تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبى من هزيمة ملك الإنجليز الصليبى الشهير رتشارد قلب الأسد فى فلسطين واسترداد بيت المقدس بعد أن إحتلتها جيوش الفرنجة لنحو قرنين من الزمان، وهذا النصر كان إيذانا بانحسار خطر الصليبيين وجلائهم عن الديار المقدسة، الذى تم بالكامل فى عهد المماليك، وطبعا أثرت هذ الهزيمة المرة التى ألحقها صلاح الدين بملك الإنجليز وقائد الطوائف الصليبية فى فلسطين تأثيرا مرا فى نفوس الإنجليز والأوروبيين جميعا إستمر لعدة قرون.

ثم جاءت حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر ليحقق أحلام الصليبيين ويسترد القدس من المماليك، وكان هذا الملك من أقوى ملوك أوروبا كما كان مؤيدا من الفاتيكان ومتمتعا برضاء الكنيسة الكاثوليكية التى نصبته قديسا فيما بعد، ولكن حملة لويس الصليبية على مصر باءت هى الأخرى بالفشل وتبدد جيشه وسقط هو وكبار قواده أسرى فى أيدى المصريين، وسجنه المماليك فى المنصورة فى دار ابن لقمان ولم يفرجوا عنه إلا بعد أن دفع الفرنسيين لهم فدية كبيرة، وظل الفرنسيون يشعرون أيضا بالمرارة من نتيجة هذه الحملة الفاشلة على مدى قرون ويتربصون للإنتقام حينما تحين الفرصة، ومما زاد الطين بلة، إقدام لويس التاسع بعد ذلك على غزو تونس فى حملة صليبية أخرى، ولكنها فشلت أيضا ومات هو أثناء هذه المحاولة بعد أن أصيب بالطاعون.

وفى سنة ١٧٩٨ قام نابليون بونابرت على رأس جيش فرنسى حديث مجهز بغزو مصر وإلحاق الهزيمة بحكامها من الأتراك والمماليك، وبعد مدة وجيزة من إحتلال نابليون لمصر فكر من إحتلال فلسطين وجرد حملة لغزوها ووصلت جيوشه حتى أسوار مدينة عكا، وظل يحاصرها المدينة ثلاثة شهور دون أن تستسلم، ثم إنتشر وباء الطاعون بين جنوده، فقرر الرجوع إلى مصر وكان هذا هو أول فشل لحملته وأول هزيمة يذوقها منذ أن غادر بجيشه

فرنسا إلى مصر، فأصيب بخيبة أمل شديدة، وفى أثناء وجود نابليون فى فلسطين وهو يعانى المرارة من جراء إستعصاء مدينة عكا على جيشه القوى واستبسال أهلها وحاكمها فى الدفاع عنها، تذكر نابليون هزيمة الفرنجة وخروجهم من هذه البلاد قبل قرون، وتاقت نفسه للأخذ بالثأر والإنتقام، فأصدر نداءه الشهير إلى يهود العالم يحثهم فيه على التجمع والحضور إلى فلسطين لإقامة دولتهم اليهودية على ترابها كما وعدهم الرب بذلك، وقد صدر منه هذا النداء قبل أن يولد هرتزل مؤسس الصهيونية بنحو قرن من الزمان.

وبعد عودة نابليون بجيشه إلى مصر، ما لبث أن واجه مقاومة عنيفة من الشعب المصرى الذى ثار على الفرنسيين فى كل مكان، وكانت ثورة القاهرة الأولى المشهورة وضرب نابليون للمدينة الثائرة بالمدافع من فوق القلعة، ثم دخول فرسانه إلى المسجد الأزهر وتدنيسه إذلالا للمصريين، ولما توالت ثورات المصريين عليه أصيب بالقنوط، ثم أصيب بنكسة أخرى عندما حطم نلسون قائد الأسطول الانجليزى أسطول نابليون فى أبى قير، فأيقن نابليون بالفشل وخرج من مصر متخفيا وترك جيشه فيها تحت قيادة الجنرال كليبر الذى أغتيل فيما بعد من قبل طالب ازهرى سورى، وتولى القيادة بعده الجنرال مينو، وما لبثت الهزيمة أن لحقت بالجيش الفرنسي فى مصر فخرج منها غير مأسوف عليه.

ولم يكن الفرنسيون ولا نابليون هم وحدهم الذين يريدون الإنتقام من العرب والمسلمين، بل راجت فى بريطانيا دعوة مماثلة بين كبار القادة الإنجليز الإستعماريين، الذين طالبوا بإنشاء دولة يهودية على أرض فلسطين، تفصل العالم العربى فى آسيا عن شقه الموجود فى أفريقية، وكانوا مدفوعين إلى ذلك بتراث الحقد وحب الإنتقام من العرب والمسلمين، وقد صدرت هذه الدعاوى بإنشاء وطن يهودى فى فلسطين قبل ظهور دعوة هرتزل الصهيونية بنحو نصف قرن من الزمان.

ومن ذلك يتبين أن أول من فكر فى إنشاء دولة يهودية فى قلب العالم العربى فى فلسطين هو نابليون وتلاه الإنجليز وليس اليهود، هذا ولو أن هناك شاعر إنجليزى ظهر فى القرن السابع عشر كان يدعو فى شعره إلى قيام إسرائيل فى فلسطين وهزيمة العرب والمسلمين.

وفي بحث ممتع للدكتور محمد حسن الزيات وزير خارجية مصر الأسبق تناول فيه الدعوات التي صدرت في الغرب لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، وقد فند في بحثه هذا الآراء التي تدعي بأن الدعوة إلي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين كان بسبب إضطهادهم في أوروبا، ويقول الدكتور الزيات في ذلك «إجتمع المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية في صيف ١٨٩٧ ، وكان ذلك ثمرة جهاد قام به وثابر عليه الصحفي النمسوي الشاب «تيودور هرتزل» الذي قام بتنظيم المؤتمر وتوجيه أعماله، وإستصدر بعد ثلاثة أيام من إنعقاده أول قرارته وأهمها وهو تحديد هدف الحركة الصهيونية بأنه (إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يحميه القانون العام)، وقد إختار المؤتمر إصطلاح (وطن قومي) بدلا من دولة تحاشيا لإثارة شكوك السلطان العثماني، وكانوا يحرصون على عدم إغضابه، لذلك كان القرار الثاني للمؤتمر إرسال برقية شكر له، على أن هرتزل نفسه كان يعرف ما يريد، وقد سجل في مذكراته بعد إنفضاض المؤتمر مباشرة قوله (لو أنني أردت أن ألخص وقائع المؤتمر في عبارة واحدة لقلت:- (إنني في بازل وضعت أساس دولة لليهود). وكان هرتزل قد لقي من المصاعب والمتابع بسبب ديانته لليهودية في بلاده النمسا ما لقي، وشهد في باريس بصفته الصحفية أشهر محاكمات القرن التاسع عشر وهي محاكمة اليهودي ألفريد دريفوس الذي إتهم وحوكم بتهمة الخيانة العظمى، حينما إشتبهت الحكومة الفرنسية فيه وحاكمته، كذلك إستقر في يقين هرتزل أنه بني ديانته لن يجدوا العدل والأمان في أوروبا المسيحية، وأنهم لابد أن يتركوها إلى بلاد يكونون فيها هم السكان والحكام، فتصبح ملاذا لهم ودولة، وزاد من يقينه هذا بعد مقابلته لبابا الفاتيكان لإقناعه بفكرته ورفض هرتزل في أثناء هذا اللقاء أن ينحني أمام البابا، وعندما قدم له البابا يده ليقبلها لم يفعل، فقابله البابا ببرود شديد ووبخه ولم يستجب لدعوته.

ولم يكن هرتزل مهتما بأن تقوم هذه الدولة أبدا في فلسطين، فقد فكر في أوغندة وفكر في الأرجنتين، بل إن واحدا من أصدقائه اليهود نصحه بألا يدعو إلى قيام هذه الدولة في فلسطين أبدا، فإن فلسطين في رأيه تقوم على ملتقى قارات ثلاث، وهذا المركز الإستراتيجي جدير بأن يجرها إلى صراع دولي هي في غنى عنه. بهذا السرد السريع يبدو أن إضطهاد الكثرة المسيحية في أوروبا لمن كان يعايشها من اليهود كما لو كان هو الدافع الأول للحركة

التى بدأت بمؤتمر بازل سنة ١٨٩٧م، واستمرت خمسين عاما كاملة حتى تم فى سنة ١٩٤٧ تقسيم فلسطين بقرار من هيئة الأمم المتحدة الناشئة عندما قامت فى فلسطين فعلا دولة لليهود.

وهكذا جرت العادة أن يؤرخ للحركة الصهيونية ابتداءً من مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، مع ذكر إسم هرتزل على أنه نبى هذه الدولة اليهودية وصاحب فكرة إنشائها.

مصالح الإمبراطورية أولا:

والذى نريد أن نبينه من كلامنا هذا هو:

أولا:- أن فكرة الدولة اليهودية قد وجدت وعرضت قبل إنعقاد مؤتمر بازل بأكثر من خمسين سنة.

ثانيا: أن أصحاب هذه الفكرة لم يكونوا من اليهود المضطهدين أو غير المضطهدين ولم يكن هدفها إيجاد حل لمشاكل اليهود فى أوروبا ولا الحرص على توفير الأمن والاستقرار لهم، بل أن الدعوة إليها صدرت آنذاك من أحد عمال الإمبراطورية البريطانية من المسيحيين، وكان يقصد من دعوته الحرص على تحقيق المصالح السياسية والإقتصادية والإستراتيجية للإمبراطورية البريطانية، لذلك رأى إقامة دولة يهودية فى فلسطين دون سواها، لأن المطلوب من قيامها على طريق الهند لم يكن إلا لضمان إستقرار وإستمرار نفوذ الإمبراطورية البريطانية فى منطقة يزداد الإهتمام بها، كذلك يزداد إهتمام الدول الأوروبية الكبرى الأخرى بها، ألا وهى منطقة المشرق العربى.

وكان محمد على باشا قد عرف مصر ودرس بعض أمورها من قبل أن يعين واليا عليها فى سنة ١٨٠٥، واستمر محمد على بعد ولايته فى البحث عن أحوال مصر وتاريخها وفى حاضرها وكذلك فى إمكانياتها، وكان محمد على رجلا ذكيا ثاقب النظر بعيد الأفق فى نظرته للأمور، وفى أثناء قيامه بإفتتاح مشروع القناطر الخيرية ذو الأهمية الكبيرة فى تنظيم الرى والزراعة فى دلتا النيل قال «إنه لاشك فى أن مصر كانت فى قديم الزمان سيدة ممالك العالم وعلمها الذى تهتدى به، أما الآن فقد أخذت أوروبا هذه المكانة، ثم أضاف فى جسارة رجل شرقى خلا من عقد النقص التى فرضها التفوق الحضارى الاوروبى ومازال يفرضه

حتى الآن على الكثيرين من زعماء الشرق، قال «إنى لآمل أن يأتى يوم تنهض فيه إلى مكانتها الأولى فى التمدين والعمران، وما هذه الدنيا إلا صعودا وانخفاض».

كان والى مصر يرى بوضوح أهمية مصر فى المنطقة كما كان يرى بنفس الوضوح أهمية منطقة المشرق العربى للعالم، لذلك قام بمد سلطانه على الحجاز فى سنة ١٨١٨م. وعلى السودان فى عام ١٨٢٣م ثم على الشام فى عام ١٨٣٣م، وبهذا جمع المشرق العربى كله تحت لوائه.

وهدد هذا الكيان العربى الجديد توازن الدول العظمى وعرفوا أن هناك دولة عربية عظمى توشك أن تولد فى المنطقة، فقامت الدول الأوروبية بعقد الاجتماعات فيما بينها، وإنتهت فى مؤتمر لندن سنة ١٨٥٠، إلى التعهد لسلطان تركيا بالتصدى لمحمد على، وتجمعت الدول الأوروبية الكبرى فعلا عليه، وتصدت له ولجيوشه فى اليونان والشام، وحطمت الأسطول المصرى فى معركة نوارين وكان هذا الأسطول ثانى أكبر الأساطيل فى العالم بعد الأسطول الإنجليزى، وطالبت بريطانيا بأن تكون شبه الجزيرة العربية هى الحد الأقصى لسلطان محمد على.

ثم تلا ذلك ضرب الأسطولين الإنجليزى والنمساوى لبيروت، وأشعل عملاء الانجليز نار الثورة ضد المصريين فى سوريا، ووصل جزء من الأسطول البريطانى إلى الاسكندرية، وأجبر محمد على على سحب جيوشه من كافة البلاد العربية وارتداد الجيش المصرى الى سيناء، وفى سنة ١٨٤١ صدرت الأوامر الشاهانية التى نزعت أقاليم المشرق العربى من حكم محمد على وألزمته حدود وادى النيل، وسرحت جزءا كبيرا من قواته العسكرية البرية والبحرية حتى تضمن السيطرة على قدرته على المغامرة وإحتلال البلاد العربية مرة أخرى.

بداية المؤامرة

وقبل أن يتم للدول الأوروبية الكبرى تنفيذ هذه الخطة، كانت تفكر متفرقة ومجتمعة فى مستقبل المشرق العربى بعد أن يخليه محمد على، ومذكرات هذه الدول ودراساتها محفوظة، وليس المجال هنا صالحا لعرض هذه الدراسات أو مناقشتها، ولكن ينبغى مع ذلك الإشارة الى

مذكرة منها، وهى المذكرة التى وجهتها الحكومة الروسية فى أكتوبر عام ١٨٤٠ الى حكومة بروسيا وننشر هنا ملخصها:- «تتردد كثيرا فى أوروبا وخاصة فى فرنسا آراء مختلفة وغالبا متضاربة حول الإجراءات التى يجب على الدول العظمى المتدخلة فى أمور المشرق أن تتبعها فى الوقت الحاضر **لكى تحقق الذى حاول الصليبيون فى حروبهم الطويلة والدامية تحقيقه فلم يفلحوا**، وقد عرض مشروع إقامة دولة مسيحية فى فلسطين، وإن كان هذا المشروع لم يناقش مناقشة جدية، وعرضت فكرة إحياء منظمة فرسان القبر المقدس ليعهد إليها بحماية المقدسات، بل إن أفرادا فكروا فى أن يدعو اليهود المتفرقين فى جميع بلاد العالم للعودة إلى مدينة سليمان».

ونحن نشير إلى هذا الجزء من المذكرة لأسباب أهمها أن الخطط العديدة المتضاربة التى أرادت الدول العظمى أن تمنع بها عودة الترابط بين بلاد المشرق العربى تحت أى ظروف جديدة هو أن تمكنت من تحطيم الكيان العربى الوليد الذى أنشأه محمد على، وتعرض الدول العظمى من بين ما تعرض من وسائل تحقيق ذلك أن تحتل الدول الأوروبية سوريا إحتلالا مباشرا مستمرا، كما تعرض من ضمن الحلول البديلة دعوة اليهود للعودة إلى فلسطين، غير أن الدول لم تتمكن من الإتفاق على أى حل من هذه الحلول، فاتفقت على إعادة سوريا إلى الباب العالى.

وقد تأمل أحد الموظفين البريطانيين المقيمين فى المنطقة ما حدث، وهوالضابط البريطانى المقيم فى دمشق ولخص تأملاته فيما يلى:-

كان من دواعى سروره وإغتنباطه أن يبحث موضوع الفصل بين سوريا وفيها فلسطين وبين مصر، ولكن كان من دواعى أسفه وأساه أن أوروبا عجزت عن فرض سلطانها المباشر أو غير المباشر على البلاد، وأنها أعادتها إلى حكم السلطان، وقد عبر هذا الضابط عن شعوره وعن إقتراحاته فى رسائل كتبها فى دمشق وبيروت بين عامى ١٨٤١، ١٨٤٣، وليس من المعروف لنا حتى الآن إن كان هذا الضابط المقيم قد عرض أفكاره التى وردت فى هذه الرسائل على حكومته أو على أى جهاز من أجهزتها، وتلقى توجيهات بشأنها أم لا، وإن كنا نميل إلى الإعتقاد بأنه لم يعمل إلا بتوجيهات من حكومته، وقد حفظت رسائل هذا الضابط

فى سجلات مجلس إدارة نواب اليهود البريطانيين. ورسائل هذا الضابط لم يسبق نشرها فى العالم العربى ولم تلق حقها من الدراسة والتفكير الآن.

وكان اسم هذا الضابط الكولونيل تشارلس هـ. تشرشل وقد وجه رسائله إلى رئيس مجلس إدارة مجلس النواب البريطانيين فى هذا الوقت وهو السير موسى مونتفيورى من مكتبه فى دمشق بصفته ضابط مقيم .Resident Officer.

وقد عبر تشرشل فى رسائله عن قلقه لأن تزايد ضعف السلطنة العثمانية قد يؤدى فى المستقبل إلى إنتفاضة شعوب المنطقة وإتحادها، ولاشك أنه كان على يقين من أن المنطقة لو تمكنت من هذه النهضة واتحدث لأصبحت قوة لابد أن يحسب حسابها، وكان الكولونيل تشرشل يرى أن أوروبا قد حققت هدفا سلبيا بإخراج مصر من الشام، ولكنها عجزت عن تحقيق الهدف الإيجابى وهو إقامة كيان فيها لا يتصور أن يعود للإتحاد مع مصر أو مع غيرها من الأقاليم، وقد عادت سوريا إلى حكم العثمانيين، والكولونيل تشرشل يوقن بأن هذه البلاد يجب أن تستنقذ من قبضة حكامها الجهلة والمتعصبين، إن موكب الحضارة يجب أن يتقدم وعناصر رخائها التجارية المختلفة يجب أن تنمى، ولن يحدث هذا تحت الحكم البالى المتعسف، حكم الأتراك أو المصريين، وفى كلمة واحدة أن سوريا وفلسطين لابد أن توضع تحت الحماية الأوروبية وأن تحكم بروح وأسلوب الإدارة الأوروبية وسيتم ذلك حتما فى آخر الأمر.

تحريك يهود بريطانيا:-

ولكى يتم ذلك، إتجه الكولونيل تشرشل إلى يهود بريطانيا، ففى الخطاب الذى وجهه الى سير موسى مونتوفيورى رئيس مجلس نواب اليهود البريطانيين، وبعد صدور الأوامر الشاهانية التى حكمت بإخراج مصر من الشام بشهرين فقط، أى فى يونية سنة ١٨٤١، يرجو تشرشل أن تكون رسائله السابقة قد وصلت سالمة، ثم يقول «لست أخفى عليك رغبتى الشديدة فى أن أرى مواطنيك يتحركون لإعادة وجودهم باعتبارهم شعبا مستقلا، وأنا أعتقد أن ذلك أمر يمكن تحقيقه تماما بشرطين:- الأول أن يبدأ اليهود أنفسهم بتبنى هذه الحركة بالإجماع،

والثانى أن تساعدهم الدول الأوروبية، إن على اليهود أن يبدأو، على زعمائهم أن يتصدروا هذه الحركة، عليهم أن يجتمعوا وأن ينسقوا فيما بينهم، وأن يتقدموا بالشكاوى يجب أن يحدث ذلك فى بلاد أوروبا كلها فى وقت واحد، ليست هناك حكومة أوروبية واحدة يمكن أن تغضبها هذه التظاهرات والاجتماعات العامة، وستكون النتيجة أن يبرز عنصر جديد بروز السحر من بين عناصر دبلوماسية المشرق، ولن تستطيع دول أوروبا كلها أن تتجاهل هذا العنصر اذا تبناه مواطنوك.. أغنياء اليهود ذوى النفوذ، ان ذلك لن يثير الإهتمام فقط بل سوف يحقق النتائج، إنكم لو وجهتكم مواردكم لإحياء سوريا وفلسطين فلن يكون هناك شك فى أن هاتين البلدين ستعيدان إليكم إستثماراتكم بربح وفير، ولن يكون هناك شك فى إنكم ستنتهون بالسيادة على فلسطين على الأقل.

وفى نفس هذا الخطاب الذى يدعو فيها الضابط البريطانى بإلحاح إلى أن يقوم اليهود بحركات وإستثمارات فى كل مكان، يتعهد هو نفسه أن يبدأ هو حركة فى منطقة عمله، فسوف يقوم بنفسه بإعداد بعض العرائض وتوزيعها وتوقيعها من اليهود المقيمين فى سوريا باعتبار ذلك من حملة الإثارة التى يدعو إليها.

وقد مضت شهور طويلة بعد هذه الرسالة واليهود البريطانيون والأوروبيون لا يتحركون، فكتب الكولونيل رسالة أخرى بتاريخ ١٥ أغسطس عام ١٨٤٢ يلح فى دعوته نفسها ويعززها هذه المرة باقتراح محدد هو أن يتصل المجلس اليهودى فى بريطانيا بيهود أوروبا ليقدم باسمهم عريضة الى الحكومة البريطانية تطالب بإرسال مندوب خاص إلى سوريا تكون مهمته الوحيدة توفير الرعاية والحماية لليهود المقيمين فيها، على أن تمدد مهمات وسلطات هذا المندوب بالإتفاق بين وزارة الخارجية البريطانية واللجنة اليهودية التى تقدم الإقتراح، ويوضح تشرشل صراحة بأن هذا التعيين سوف يكون إعترافا بأن اليهود الإنجليز والأوربيون يمثلون يهود سوريا الذين سيوضعون بهذا الشكل تحت حماية بريطانيا، وبالتالى فلابد أن يكون لليهود الإنجليز وغيرهم وتكون لبريطانيا كلمة فيما يجرى فى سوريا لأنه لابد أن يمس اليهود من سكانها.

ويلاحظ أن الكولونيل تشرشل يؤكد للسير موسى أن اليهود لو تقدموا بهذا الطلب فإن نتائج هذا التقديم ستسرهم حتما، كما يوضح له أن الطلب يجب أن يقدم عن طريق شخص يحدده هو شخصيا، وهو الإيرل أف أبردين. وفي وقت معاصر لإرسال هذه الرسائل وبالتحديد في شهر يوليه عام ١٨٤١ وصل الى لندن مبعوث للحكومة الألمانية هو البارون يونسون فى مهمة خاصة ذكر أنها تتعلق بالإتفاق على تسهيلات لشراء الأراضى فى فلسطين لعدد من المسيحيين واليهود الألمان الذين يريدون الإقامة فيها، وقد قابل هذا البارون اللورد بالمرستون يوم ١٩ يولية سنة ١٨٤١ وخرج من المقابلة ليكتب إلى زوجته قائلا «هذا يوم عظيم، لقد نجحت فى إقناع لورد بالمرستون بالمبدأ، ولقد أرسل فعلا توجيهاته إلى السفير البريطانى فى تركيا ليسعى لدى السلطان، وفى أكتوبر القادم سيعين سفير بريطانى جديد فى تركيا وهو البيشوب ألكسندر المولود فى أوسلو فى روسيا والمسيحى حاليا على مذهب الكنيسة البريطانية ولكنه يهودى الجنسية، وكان أستاذ اللغة العبرية واللغة العربية فى إنجلترا لمدة عشرين عاما فيما يسمى الان بكلية الملك King's College، وهكذا يبدأ الان بإذن الله إعادة إنشاء إسرائيل».

مشـــكلات التنفيـــذ:-

إن المشروع الذى فصله الكولونيل توماس تشرشل البريطانى فى دمشق عام ١٨٤١-١٨٤٢ والذى كان موضع مباحثات سرية بين المبعوث الألمانى وبين الوزير البريطانى فى عام ١٨٤١، يوضح الخطوات التى كان مطلوبا أن تكرس لفصل سوريا وفلسطين خاصة عن المشرق العربى وقيام الدولة اليهودية فى فلسطين على الأقل لقد إقترح تشرشل على اليهود أن يثيروا من المظاهرات ما يبين للعالم أن هناك مشكلة يهودية تتطلب الحل، وعندئذ سيكون الحل جاهزا وهو إستعمار اليهود لفلسطين، ولما كانت فلسطين جزءا من الأراضى العثمانية، فلابد من أن يتم لجوء اليهود إلى أراض عثمانية ليعيشوا فيها رعايا للسلطان بضمانات من إنجلترا وغيرها من الدول، ولابد لذلك من الحصول فى أول الأمر على رضا السلطان، على أن الخطوة التالية ستكون أن تعين إنجلترا هؤلاء اليهود على إستقلالهم بدولتهم كما يقول ويؤكده لهم الكولونيل تشرشل.

إن التأييد الأوروبى لأولئك المستعمرين اليهود ثم لدولتهم مضمون لأن قيام هذه الدولة وبقاءها قوية سيظل ضروريا للحيلولة دون قيام تجمع جديد فى المنطقة يهدد موازين القوى الدولية من جديد كما هددها محمد على، كما أن فى وسع بريطانيا والدول الأوروبية أن تطمئن إلى إخلاص الدولة اليهودية لأنها ستكون فى حاجة دائمة إلى تأييدها لتعيش منيعة فى الوسط الذى سوف تعيش فيه.

وهذا الإستعمار سيحتاج إلى تمويل، ولكن هذا التمويل أمر يسير على يهود العالم، وهم لن يقدموه تبرعا بل إستثمارا وفى المنطقة من الثروات والإمكانيات ما هو جدير بأن يضاعف هذه الإستثمارات مع مرور الزمن.

وبتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٨٤٢ أبلغ سير موسى مونتوفيورى قرار المجلس اليهودى للكولونيل تشرشل، فقال ان المجلس واثق من أن تحقيق نوايا تشرشل الطيبة ستكون له فوائد جمة، ولكنه يعتقد أن مثل هذه المبادرة تتجاوز صلاحياته، والمجلس على أى حال مستعد للنظر والإشتراك إذا إهتم يهود الدول الأخرى جميعا.

جاء الرد قصيرا وفاترا وكان رد تشرشل عليه هو الشكر وأنه سيظل على كل حال تحت الأمر.

إنتهت هذه المعركة وكان تطور الأمور فى العالم العربى داعيا إلى إنتهائها فى أغلب الأمر، فإن نهضة محمد على أحبطت والكيان العربى تمزق، وكان الناظر السياسى يستبعد أن تقوم لمصر أو العالم العربى قائمة خطيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، لذلك لم تتحرك الصهيونية ولا الدعوة إلى إنشاء الدولة اليهودية حتى جاء هرتزل فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

المهم فى هذا الموضوع أن نتبين أن التفكير والتدبير لإقامة دولة يهودية فى فلسطين لم يصدر فى أول الأمر عن اليهود، ولم تكن هناك مناسبة للبحث لهم عن ملجأ من الإضطهاد، ولكن صدر من غلاة البريطانيين الإستعماريين وكانت مناسبة لضرورة فصل سوريا وفلسطين عن مصر والحيلولة دون إنضمامهما تحت حكم واحد يضم دول العرب جميعا.

والآن قامت دولة إسرائيل، ثم زادوا ووسعوا رقعتها وإستغلوا موقعها وزادوا فى تسليحها ومنعها، هذا كله واضح، ولكن من المفيد أيضا أن ندرك أن الدول العظمى فى أوروبا وأمريكا كانت لها مصالح توافقت وتتوافق مع مصالح إسرائيل، وهذه المصالح ستبقى الجزء الأكبر والهام مما نسميه الان أزمة الشرق الأوسط.

الفصل العاشر

قيام دولة إسرائيل - هل كان معجزة إلهية
أم مؤامرة أوروبية أمريكية علي شعب أعزل

الفصل العاشر

قيام دولة إسرائيل - هل كان معجزة إلهية
أم مؤامرة أوروبية أمريكية علي شعب أعزل

يروج اليهود والمسيحيون من أتباع الكنيسة الإنجيلية الأمريكية دائما أن إسرائيل قامت بمعجزة ربانية حسب وعد الأب لشعب إسرائيل فى الكتاب المقدس أنه سوف يجمعهم من أطراف الأرض الأربعة ليقيموا للرب دولة على أرض فلسطين، ويعيدوا مجد الرب فى أورشليم ويبنوا هيكل سليمان من جديد فى مكان المسجد الأقصى المبارك تمهيدا لنزول السيد المسيح.

ويعتقد المسيحيون من أنصار الكنيسة الإنجيلية فى هذه الخرافة إعتقادا جازما شكل جزءاً هاما من السياسة الأمريكية على مدى نصف قرن، وكان معظم الرؤساء الأمريكيون يعتقدون فى تلك الخرافة ومازالوا يؤمنون بها، ولذلك فإن رسم السياسة الأمريكية وصناعة القرار يأتى دائما فى هذا المضمون، مدعما لإسرائيل على الدوام متبنيا لسياستها العدوانية على العرب، بل إن التعامل فى جميع مشاكل دول المنطقة من قبل الولايات المتحدة يصب دائماً وأولاً فى حماية أمن إسرائيل ورفاهيتها وتبنى مشاريعها التوسعية على حساب العرب.

وفى إحصائية صدرت حديثا عن مدى الدعم المادى الأمريكى الرسمى والشعبى لإسرائيل، يظهر فيها أن الفرد الواحد من سكان إسرائيل يحصل سنويا على ١٥ ألف دولارا أمريكيا من الدعم الأمريكى، وتحصل إسرائيل على نصيب الأسد من المعونة الخارجية الأمريكية، أما فى مجال التسليح فإن إسرائيل تعب من الترسانة الأمريكية للأسلحة كما تشاء ليكون جيشها أقوى جيش فى المنطقة، وقد ساعد الدول الأوروبية الأخرى مثل فرنسا وانجلترا وألمانيا إسرائيل على صناعة أسلحة نووية وصواريخ بعيدة ومتوسطة المدى، ولم تتخلف روسيا عن الدخول فى هذا المضمار، فقد ساعدت هى الأخرى إسرائيل بكل وسيلة على إنشاء صناعة حربية متطورة، والكل ينتظر الوقت الذى تنفذ فيه إسرائيل وعد الرب لها وتقضى

نهائيا على العرب والمسلمين فى المعركة القادمة التى تسميها الأساطير الدينية التوراتية معركة هارمجدون والتى يؤمن بوقوعها معظم المنتمين للكنيسة الإنجيلية الأمريكية.

دور الأساطير التلمودية في حشد التأييد للصهيونية:-

لعبت وسائل الدعاية لحشد التأييد لإنشاء اسرائيل ودعمها دورا كبيرا فى قيام الدولة العبرية، وإستغل الصهيونيون ما جاء من أساطير فى التلمودعن تعهد الرب بجمع اليهود فى فلسطين التى منحها لهم بعقد إتفاق بينه وبين إبراهيم فى بث الحماس فى المجتمعات المسيحية الغربية لإنشاء دولتهم وجمع المساعدات لها وقد سبق لنا أن ذكرنا نص هذا الإتفاق كما جاء فى «سفر تكوين الإصحاح السابع عشر»، ولا بأس هنا من التذكير بهذا النص الذى جاء فيه (ولما كان إبرام إبن تسع وتسعون سنة تجلى له الرب وكلمه وقال له لا يكون إسمك بعد اليوم إبرام بل يكون إسمك إبراهيم لانى جعلتك أب جمهور أمم، وسأنميك جد جدا، وأجعلك أمما، وملوك منك يخرجون، وأقيم عهدى بينى وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم عهد الدهر لأكون لك إلها ولنسلك من بعدك، وأعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك، جميع أرض كنعان ملك لك وأكون لهم إلها).

ولو سلمنا بصحة هذا العهد وما قال الرب فيه لإبراهيم لأنى جعلتك أب جمهور أمم وأسأنميك جد جدا وأجعلك أمما، لقلنا إن اليهود هم أمة واحدة من تلك الأمم، وأمة العرب أيضا من أبناء اسماعيل بن إبراهيم هى أيضا من الأمم التى شملها النص ومن حقهم أن يسكنوا أرض كنعان كما وعد الرب أبيهم إبراهيم. ولكن وقت انشاء اسرائيل لم يكونوا يملكون من وسائل الدعاية والإعلام شيئا وهم كذلك حتى الآن، بينما يملك اليهود معظم وسائل الإعلام فى العالم الغربى من صحف ومجلات وسينما وراديو وتلفزيون، لذلك كانت ناصية الإعلام بيدهم واستطاعوا أن ينفذوا بذلك إلى الجماهير الغربية فضلا عن صناع القرار فى دول أوروبا وأمريكا، ومنذ البداية روج الإعلام الصهيونى لفكرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» الصيحة التى أطلقها هرتزل مؤسس الصهيونية، بإعتبار أن أرض فلسطين أرض خالية من السكان لا يوجد بها إلا شراذم قليلة من البدو الجهل المتخلفين، وتجمع اليهود بها سوف يؤدى إلى نهضة هذه البلاد وتعميرها، وتجاهلوا تماما وجود شعب عربى فيها له

حضارته وقيمه وتاريخه وأنه يسكن هذه الديار قبل ظهور بنى إسرائيل إلى الوجود، وتواجده مستمر فيها من بعد ظهور الإسلام حتى الأن، ولكن الدعاية الصهيونية وتبنى قادة الإنجليز من غلاة المستعمرين لهذه النظرية كان لها دور الغلبة خصوصا بعد الإنتداب الانجليزى على فلسطين.

المؤامرة الغربية التي حولوها إلي معجزة

تدعى وسائل الإعلام اليهودية والغربية أن قيام إسرائيل فى أرض فلسطين كان معجزة إلهية نفذ فيها الرب وعده وجمع اليهود من أطراف الأرض الأربعة فى فلسطين، وهزم أمامهم جيوش أعدائهم العرب بسهولة وبلا مجهود يذكر وفى أسرع وقت، ومايزال العرب مهزومين أمامهم لأن الرب ينفذ الآن ما وعد به إبراهيم، ولم يقتصر وعد الرب لهم على أرض فلسطين وحدها بل وعدهم كذلك بأراضى الدول المحيطة بفلسطين كما جاء فى «سفر تكوين- ١٧»:-

«قطع الرب مع أبرام ميثاقا، لنسلك أعطى هذه الأرض من مصر إلى النهر الكبير نهر الفراتن، القينيين والفنزيين والقدمونيين والحيثيين والعرزيين والرفائين والأموريين والكنعانيين والجرجاسيين واليبوسيين».

ومع أن هذه الشعوب جميعا قد زالت من الوجود، ولم يبق فى هذه الأراضى سوى شعب واحد هو الشعب العربى الذى ينتسب إلى إبراهيم، فإن الدعاية الصهيونية تستغل جهل شعوب الغرب بالجغرافيا والتاريخ وتروج هذه الأسطورة لتبرر بها التوسع فى أراضى الدول المجاورة لفلسطين مثل سوريا والأردن ومصر والعراق فى المستقبل.

ولا نجد من الإعلام العربى المضاد تفنيدا لتلك المزاعم.

إنحياز المجتمعات الغربية إلي جانب إسرائيل:-

كان للإنحياز الشديد للمجتمعات الغربية فى أوروبا وأمريكا للصهيونية أكبر دور فى قيام الدوله العبرية وأكبر مشجع لها على مواصلة الإعتداء على الشعب الفلسطينى والشعوب

العربية، وترخيصا للصهاينة بممارسة عمليات الإبادة الجماعية والطرد الجماعى لشعب فلسطين من القرى والمدن الفلسطينية والاستيلاء على المزارع والمصانع والمتاجر والمساكن بصورة لم يسبق لها مثيل فى العصر الحديث إلا ما حدث بعد ذلك من عمليات مشابهة قام بها الصرب ضد سكان البوسنة من المسلمين.

ولعل المحرك الأول للوجدان الغربى المتعاطف مع الصهيونية هو ما إستقر فى الذاكرة الغربية من هزيمة الصلبيين وخروجهم من أرض فلسطين على يد القائد صلاح الدين وخلفاءه من بعده، ولم ينس الفرنسيون أبدا هزيمة الملك لويس التاسع فى مصر وأسره هو وقواده على يد المماليك.

كذلك لم ينس الأوربيون فتح العرب للأندلس وإستقرارهم فيها ثمانية قرون وإنشائهم لحضارة عظيمة على أرضها، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن تعاونت الشعوب الأوروبية ضدهم وطردتهم.

وكان توسع الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا وفتحها لجميع دول البلقان وجزءا كبيرا من النمسا وبولندا واستمرار الحكم العثمانى فى هذه البلاد خمسة قرون أثرا لا يمحى من الذاكرة الأوروبية هذه الأحداث جميعها ترسبت فى الذاكرة الأوروبية، وملأتها حقدا على العرب والمسلمين واستمر هذا الحقد يشتعل حتى يومنا هذا، كل هذه الرواسب التاريخية جعلت الدول الأوروبية تتحمس لقيام الدولة الصهيونية فى فلسطين، قلب العالم العربى لتكون حائلا دون إلتحام شقى العالم العربى فى إفريقية وآسيا وتشكيل كيان عربى كبير يكون خطرا على أوروبا ولاسيما وأن الأرض العربية فى آسيا وأفريقيا تزخر بالثروات الطبيعية التى يحتاج إليها الغرب فى نهضته وصناعاته كالبترول وغيرها، وبها إمكانيات لقيام إقتصاد زراعى كبير ينافس الغرب، ولشعوبها من الإرث الحضارى والثقافى ما يمكنها من انشاء نهضة صناعية كبرى وتجمع حضارى عظيم.

لذلك عملت الدول الأوروبية على تنفيذ مخطط لإنشاء الدولة العبرية قبل أن يفكر فى ذلك اليهود بأكثر من نصف قرن كما سبق أن ذكرنا.

الإنتداب الانجليزي علي فلسطين ودوره في تأسيس إسرائيل:-

بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ وهزيمة الدولة العثمانية فى هذه الحرب، قرر الحلفاء المنتصرون تقسيم التركة العثمانية فيما بينهم، فأطلقوا يد فرنسا فى سوريا، وكان الانتداب الفرنسى الذى قسم سوريا إلى دولتين -سوريا ولبنان-، وفرض الإنتداب البريطانى على فلسطين، ومنذ اليوم الأول من الإنتداب البريطانى، والإنجليز يعملون بدأب على تنفيذ وعد بلفور الإنجليزى وتهويد البلاد، ففتحوا باب الهجرة لليهود على مصراعيه وأقبلت السفن إلى فلسطين من كل مكان تحمل الآلاف من المستوطنين اليهود، ومنحت لهم الحكومة البريطانية مساحات كبيرة من أرض فلسطين لإقامة المستوطنات عليها باعتبار تلك الأراضى أملاكا أميرية، وساهم سير روتشيلد صاحب بنك روتشيلد الإنجليزى اليهودى بالتبرع بملايين الدولارات لجلب اليهود إلى فلسطين وإقامة المستوطنات اليهودية وشراء الأراضى والعقارات لهم، وجاءتهم التبرعات كالمطر من جميع أنحاء أوروبا لتثبيت أقدامهم فى أرض فلسطين وإغراء الآخرين الذين لما يهاجروا للهجرة إلى هذه البلاد التى إبتليت بالحكم البريطانى الإستعمارى المتعصب، وبدأ البريطانيون يشكلون من المهاجرين الجدد ميليشيات مسلحة يمدونها بالسلاح ويدربون أفرادها فى المعسكرات البريطانية، وتقوم هذه الميليشيات بدورها فى الإعتداء على سكان البلاد وترويعهم ونزع أراضيهم تحت حماية الإنجليز وبموافقتهم، وأعطى الإنجليز مفاتيح الإقتصاد الفلسطينى إلى شراذم المهاجرين وساعدوهم على الامساك بخيوط الإقتصادى فى أيديهم من تجارة وصناعة، وأذلوا أهل البلاد وأذاقوهم الهوان مما دفع الفلسطينيين إلى الإستغاثة بإخوانهم العرب دون معين، وثار الشعب الفلسطينى ضد اليهود والإنجليز عدة ثورات بدأت بثورة البراق سنة ١٩٢٩، وسميت هذه الثورة العارمة بهذا الإسم لأن اليهود حاولوا فيها بمساعدة الإنجليز الإستيلاء على حائط البراق أو حائط المبكى كما يسميه اليهود وهو الحائط العربى للمسجد الأقصى، وسقط فى أثناء هذه الثورة أعدادا كبيرة من الشهداء على أيدى القوات البريطانية، وقد لفتت هذه الثورة أفكار بعض السياسيين والمفكرين فى الغرب إلى حجم المشكلة، ولكن معظم البلاد العربية فى هذا الوقت كانت ترزح تحت نير الاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى ولا حول لها ولا قوة.

بداية تنظيم المقاومة الفلسطينية ضد الوجود الانجليزي الصهيوني:-

شعر الفلسطينيون بتزايد الخطر على وجودهم ووطنهم، واستمرار جيش الإحتلال الإنجليزى والسلطة الإنجليزية فى جلب المهاجرين اليهود وتدعيمهم ونشر المستعمرات الصهيونية بشكل سرطانى فى جميع أنحاء البلاد، فقرر الشعب الفلسطينى تشكيل لجنة من زعمائه تقوده فى مقاومة التعدى الانجليزى الصهيونى وسلب الوطن بالتدريج قطعة فقطعة، لذلك بعد إنقضاء الثورة الفلسطينية الأولى، قام الفلسطينيون بتشكيل اللجنة التنفيذية العربية، وتكونت هذه اللجنة من بعض الزعماء الفلسطينيين السياسيين، وحاولت هذه اللجنة بعد أن تشكلت وقف عجلة التهويد المتسارعة والسعى لدى السلطات البريطانية ولدى المنظمات والحكومات العربية لمساعدتهم على ذلك، وكان من نتيجة هذا السعى إنعقاد المؤتمر الإسلامى العالمى فى القدس سنة ١٩٣١، وحضره عدد كبير من رجالات العالم الإسلامى، ومن مصر حضره أحمد زكى باشا وعلوبة باشا وعبدالرحمن عزام باشا، وكان لعبدالرحمن عزام دورا كبيرا فى إدارة جلسات المؤتمر والدعوة الى وقف الهجرة والإستيطان، مما دعا السلطات البريطانية إلى إصدار قرار بطرده من فلسطين فورا، وقادوه مخفورا بالجنود البريطانيين حتى الحدود المصرية.

وفى يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٣، قامت فى القدس وسائر المدن الفلسطينية ثورة شعبية عارمة، بدأت بخروج مظاهرة كبيرة من المسجد الأقصى الشريف متحدية أوامر السلطة البريطانية بمنع المظاهرات، ورافق هذه المظاهرة مظاهرة أخرى كبيرة من السيدات الفلسطينيات، وإصطدمت هذه المظاهرات بالقوات البريطانية، ووقع فى مدينة يافا وحدها أكثر من ٢٠٠ جريح وثلاثون شهيدا فى يوم ٢٧ أكتوبر، هذا ناهيك عن الشهداء والجرحى الذين سقطوا فى المناطق الأخرى، وتعرض رئيس اللجنة العربية التنفيذية العليا موسى كاظم باشا الحسينى إلى الاعتقال والضرب، وساند الشعب المصرى حكومة وشعبا الشعب الفلسطينى فى ثورته هذه مساندة قوية، ثم توالت مواكب ثورات الشعب الفلسطينى ضد اليهود والإنجليز، بعد ثورتى ١٩٣١ ثم ١٩٣٣ ثم ثورة ١٩٣٦، وكانت أعتاها ثورة ١٩٣٩ التى هزت الكيان الصهيونى وجعلت بريطانيا توقف هجرة اليهود مؤقتا، واتصل الإنجليز بحكام البلاد العربية وزعمائها للتوسط بينهم وبين الفلسطينيين لإيقاف هذه الثورة حيث كانت نذر الحرب العالمية

الثانية قد برزت فى الأفق وخشيت بريطانيا من التأييد الكبير الذى لقيته هذه الثورة من الشعب المصرى وزعمائه ورجالات الأحزاب المصرية والأزهر، كما كان لهذه الثورة أصداء كبيرة فى جنبات العالم الإسلامى كله، وتولى الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر ورئيس جمعية الدفاع عن الاسلام القيام بدور كبير فى حشد التأييد للشعب الفلسطينى، وتألفت فى مصر اللجنة العليا لمساعدة ضحايا فلسطين، وقامت المظاهرات فى كل مكان ضد الإستعمار البريطانى واليهودى فى فلسطين، وبلغت غضبة الأزهر الشريف القمة، فأرسل الشيخ مصطفى المراغى برقية إلى موسى كاظم الحسينى زعيم فلسطين تحدث له فيها عن مدى الإرتياع الذى عم مصر لأخبار الفواجع التى فجعت بها فلسطين بسبب موقفها من الدفاع عن أعز شيء لديها وهو الوطن والمقدسات، «ولقد حز فى نفوسنا أن يسلط الأقوياء عليكم وأنتم فى موقف الدفاع عن حقكم، وإننا لنخشى كما تخشون أن تكون النتيجة القريبة والبعيدة لسيل الهجرة اليهودية إلى البلاد المقدسة تحويل هذه البلاد العربية الإسلامية إلى بلاد يهودية لا يذكر فيها الإسلام، ولاشك أن الذى تشعرون به من الألم والحزن يشعر به المسلمون فى سائر الأقطار الإسلامية، ويشعر به العرب جميعا سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين، والله تعالى هو المسئول أن يضمد جراحكم ويتجمل عزاؤكم ويجعل ما تبلغونه من الأمانى بهذا الدفاع المجيد شفاء لالآمكم».

كذلك أبرق الأمير عمر طوسون. وكان له مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى. ببرقية مؤثرة وتبعه جميع رؤساء الأحزاب المصرية فى مواساة الشعب الفلسطينى فى محنته، وكان منهم مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا وصفية زغلول، وحمد الباسل باشا الذى كان له برقية بالغة التأثير حيث قال «إنما تلقونه من ضروب القسوة والإرهاق فى سبيل الدفاع عن مبادئكم والذود عن حقوقكم من التنكيل بالرجال والنساء والأطفال يهز قلوبنا وقلوب الأقطار العربية نحو الشقيقة العانية، وإنا نشاطر آلامها وأحزانها مترحمين على القتلى وداعين للجرحى، وإن بلادا أنجبت بسالتكم الباهرة لها المجد والظفر بحول الله».

ونظرا لعنف هذه الثورة الفلسطينية وكثرة ما سقط فيها من شهداء على أيدى القوات البريطانية، وعنف صداها فى جميع الأقطار العربية والإسلامية، ونذر الحرب العالمية الثانية التى بدأت تلوح فى الأفق كما سبق أن ذكرنا، عمد الإنجليز إلى الاستعانة بالزعماء والملوك

العرب لتهدئة الشعب الفلسطينى، ووعدوهم بوقف الهجرة اليهودية، وأصدروا فى ذلك ما يسمى الكتاب الأبيض.

تدريب الإنجليز للفيلق اليهودي في مصر وتسليحه في أثناء الحرب العالمية الثانية:-

شبت نيران الحرب العالمية الثانية فى خريف ١٩٣٩، واشتركت فيها بريطانيا مع دول الحلفاء ضد ألمانيا ودول المحور المؤيد لها، ومع قيام هذه الحرب تملق الإنجليز زعماء وحكام البلاد العربية ومنهم مصر للوقوف إلى جانبهم فى الحرب أو مساندتهم على الأقل، وكانوا يحصلون طوال هذه الحرب على النفط اللازم لإدارة أدوات الحرب من طائرات وبوارج ودبابات وناقلات للجنود من حقول النفط السعودية والخليجية والمصرية، أما طعام الجنود الذى إشتركوا فى هذه الحرب فى الصحراء الغربية وليبيا فكانوا يستمدونه من مصر دون أن يدفعوا الثمن فورا بل بصكوك دين على إنجلترا لمصر سمى فى النهاية الأرصدة الاسترلينية وبلغت نحو ٦٠٠ مليون جنيها إسترلينيا، وكانوا يستخدمون السكك الحديدية المصرية فى نقل الجنود من وإلى ميدان المعركة ويطلبون من الجيش المصرى تأمين خطوط المواصلات التى يستخدمونها فى مصر كل ذلك بناء على معاهدة ١٩٣٦ المعقودة بين مصر وانجلترا. ولولا هذه المساعدات ما إنتصرت انجلترا فى معارك الصحراء الغربية ولخسر الحلفاء الحرب أمام جيوش المانيا بقيادة مارشال رومل.

ومع كل هذا لم يصرف الإنجليز أبدا نظرهم عن هدفهم الأسمى ألا وهو انشاء دولة إسرائيل على أنقاض شعبها العربى، فجندوا من اليهودة عدة آلاف سموهم الفيلق اليهودى، وكان من ضباط هذا الفيلق القائد الإسرائيلى المعروف موشيه ديان، ودرب الإنجليز هذا الفيلق فى منطقة القناة تدريبا جيدا على سبيل الحرث الحديثة، وسلحوا أفراده بأحدث الأسلحة البريطانية، واشترك هذا الفيلق مع جنود الحلفاء فى بعض معارك الصحراء الغربية ضد الألمان، وفقد موشيه ديان إحدى عينيه أثناد إشتراكه فى معركة من تلك المعارك، وكان هذا الفيلق هو الأساس الأول للجيش الإسرائيلى فيما بعد.

تكثيف الوجود اليهودي في فلسطين بعد إنتها. الحرب العالمية الثانية:-

بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٤، أخذ الإنجليز فى مساعدة الوكالة اليهودية على جلب أعداد ضخمة من اليهود من أوروبا إلى فلسطين بحجة تعرضهم للتعذيب على يد الألمان فى أثناء الحرب ولاسيما فى بولندا التى زعم اليهود والحلفاء أن الألمان أقاموا فيها المحارق لليهود فيما يعرف «بالهولوكوست»، لذلك إستغل اليهود هذا المناخ وراحت الوكالة اليهودية تنقل عشرات الآلاف من اليهود إلى الموانىء الفلسطينية، وأخذ اليهود الجدد والقدامى بمساعدة من بريطانيا- فى تشكيل المليشيات المسلحة وتدريبها على أيدى الضباط الإنجليز، وهذه المليشيات هى التى كونت جيش الدفاع الإسرائيلى فيما بعد، من قادة هذه العصابات الإجرامية، تكون الرعيل الأول من حكام إسرائيل فيما بعد مثل ديفيد بن جوريون وإسحاق شامير وغيرهم من السفاحين والمجرمين.

وأخذت الميليشيات اليهودية تعتدى على الأهالى الفلسطينيين بالقتل والحرق والإستيلاء على الأراضى والمساكن بالقوة تحت حماية الإنجليز، ولم يكن الإنجليز يسمحون لأى فلسطينى بحمل سلاح حتى ولو كان سكينا، وصادروا القليل من السلاح الذى وجدوه مع الأهالى يحمون به الأرض والدور.

إنتها. الإنتداب الإنجليزي علي فلسطين بقرار مفاجي. سنة ١٩٤٧:-

بقرار مفاجىء قررت إنجلترا إنهاء إنتدابها على فلسطين وسحب الجيش الإنجليزى منها، وقد أصدرت إنجلترا هذا القرار بالاتفاق مع الوكالة اليهودية والعصابات الصهيونية فى فلسطين، عند إنسحاب الجيش الإنجليزى من معسكراته كان يسلمها فورا إلى العصابات اليهودية بما تحتويه من مخازن للسلاح والذخيرة، وفى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ أصدرت الأمم المتحدة قرارا بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما يهودية والأخرى عربية، ووقفت أمريكا وانجلترا وروسيا وأوروبا كلها خلف هذا القرار، وما أن حل عام ١٩٤٨ وإتمام جلاء الجيش البريطانى عنها حتى قامت العصابات الصهيونية الفاشية المسلحة تقتحم القرى والمدن والمنازل وتقوم بعمليات القتل الجماعى والإبادة والطرد، وتعتبر مذبحة دير ياسين فى شهر

إبريل سنة ١٩٤٨فى قمة الوحشية والإجرام الصهيونى وقد قامت بارتكابها عصابة الهاجاناة بقيادة ديفيد بن جوريون، وكانت العصابة تقتل الرجال والنساء والأطفال وتلقى بهم فى بئر بالقرية حتى إمتلأ البئر بالجثث، ثم قاموا بإحراق باقى السكان فى منازلهم، وأسروا عددا كبيرا من شباب القرية وأركبوهم مقيدى الأرجل والأيدى فى شاحنات مكشوفة وطافوا بهم فى شوارع القدس الغربية ليتفرج عليهم جماهير اليهود الذين هللوا فرحا وطربا عند مرور الشاحنات من أمامهم، ثم أنزلوهم من الشاحنات وأعدموهم جميعا رميا بالرصاص، وكانت هذه الحادثة سببا فى إذاعة الذعر والخوف فى نفوس الأهالى العزل، وتهيأت الفرصة للعصابات اليهودية لإتمام عملها فى طرد الأهالى من القرى والمدن والاستيلاء على كل ممتلكاتهم، وزادت مساحة الأراضى التى إستولت عليها العصابات الصهيونية كثيرا عن الأراضى التى خصصتها لهم الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وهاجر من السكان على مدى فترة وجيزة مليونى نسمة لجأوا إلى الدول المجاورة وإلى الأماكن التى لم تصل إليها بعد أيدى العصابات اليهودية مثل غزة والضفة الغربية، وفى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ أعلن اليهود قيام دولتهم على أرض فلسطين، واعترف بهذه الدولة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فور إعلان قيامها ثم تبعتها باقى دول أوروبا.

دخول الجيوش العربية الي فلسطين وبدأ مسلسل الخيانة:-

إجتمعت دول الجامعة العربية السبع برئاسة الملك فاروق ملك مصر، وكانت الجامعة العربية فى هذا الوقت تتكون من مصر وسوريا ولبنان وإمارة شرق الأردن والمملكة العربية السعودية واليمن والعراق.

وكانت مصر والعراق هى أكبر هذه الدول ولكن منهماجيش هو أفضل حالا من جيوش باقى دول الجامعة، ولكن هذه الجيوش جميعا كان ينقصها التسليح الجيد والتدريب ولم يشترك أى منها فى أى حرب، وكان الجيش المصرى يعتمد فى تسليحه على ما يشتريه من بريطانيا من سلاح، وبريطانيا فى ذلك الوقت كانت تحتل منطقة قناة السويس ويهمها ألا يتكون فى مصر جيش قوى، ولم يكن لدى الجيش أسلحة حديثة كذلك لم يكن لديه قادة محنكين مدربين على أساليب الحرب الحديثة.

فالمطلوب من هذا الجيش فقط هو أن يبدو فى مظهر حسن فخم فى أثناء الإستعراضات التى تقام فى المناسبات والأعياد الملكية.

أما الجيش العراقى فرغم تسليحه تسليحا جيدا، فإن زعماء العراق وملكها كانوا مرتبطين بانجلترا إرتباطا كبيرا، فهى التى أوجدت هذه المملكة، ونصبت أولاد شريف مكة ملوكا عليها، وكان الجيش الإنجليزى يقيم فى قواعد مهمة له على أرض العراق مثل قاعدة الحبانية الشهيرة. وأما جيش شرق الأردن فكان يقوده قائد بريطانى، منحه الأمير عبدالله أمير شرق الأردن لقب الباشوية فصار يسمى «جلوب باشا»، والأمير عبدالله هو الأخر يدين بوجوده ووجود إمارته إلى الإنجليز، فهم الذين أوجدوا له هذه الإمارة من العدم فى الصحراء ونصبوه أميرا عليها ليكون حليفهم الدائم، وتكون هذه الإمارة فى المستقبل منفذا يستوعب مئات الألوف من الفلسطينيين المطرودين من فلسطين أما الجيوش العربية الأخرى فلم يكن لها وزن يذكر لا فى التسليح أو التدريب.

بد. الحرب بين الدول العربية وإسرائيل:-

بدأت الحرب بين العرب وإسرائيل بين الجيش الإسرائيلى المكون من العصابات اليهودية التى إتحدت مع بعضها وبين ميليشيات عربية مكونة فى أغلبها من المتطوعين المصريين يقودهم الصاغ أحمد عبدالعزيز، وكان هذا القائد من ضباط الجيش المصرى ثم إستقال من الجيش ونذر نفسه للجهاد مع الفدائيين ضد الصهاينة حتى أستشهد فيما بعد، كذلك قامت بعض الفرق الفدائية الفلسطينية بالإستبسال والدفاع عن الأرض والأهل ضد الزحف الصهيونى بقيادة البطل عبدالقادر موسى الحسينى الذى أستشهد فى معركة القسطل. وهؤلاء الفدائيون سواء أكانوا مصريين أم فلسطينيين بثوا الرعب فى صفوف الصهيونيين رغم رداءة تسليحهم، ولكنهم كانوا قد عزموا العهد على الشهادة فاستبسلوا فى الدفاع وانتزعوا من الجيش الصهيونى الكثير من القرى والمواقع التى كان قد إحتلها.

وفى هذه الأثناء قررت الدول العربية إرسال جيوشها إلى فلسطين وكان فى مقدمة هذه الجيوش الجيش المصرى، وصاحب الملك فاروق بنفسه طلائع الجيش إلى حدود فلسطين وأطلق طلقة المدفعية الأولى على مستعمرة الدنجور التى كانت موجودة على الحدود

المصرية، كذلك دخل جيش إمارة شرق الأردن بقيادة جلوب باشا إلى الضفة الغربية والقدس، ودخل فلسطين من الشمال الجيش السورى مع فرقة من المتطوعين العرب بقيادة فوزى القاوقجى عن طريق لبنان.

وبدأت الحرب بين الجيوش العربية والعصابات الصهيونية، وقرر العرب تنصيب الأمير عبدالله قائدا عاما على الجيوش العربية، أما الجيش العراقى قد حلت منه فرقة إستقرت فى شرق الأردن، زحف الجيش المصرى فى أعقاب الفدائيين المصريين حتى إقترب من مدينة يافا وشمال فلسطين، كما إحتل الجيش الأردنى النقب والضفة الغربية ووسط فلسطين، أما الجيش العراقى فاستقر فى موقعه دون أن يشترك فى القتال فى إنتظار الأوامر من حكومته، ولم تصدر أى من هذه الأطر حتى هذه الساعة، وصار ضباطه يردون على من يسألهم متى يحاربون هذا الرد الذى صار فيما بعد طرفة مضحكة. وهو «ماكو أوامر». وبينما كان النصر قاب قوسين أو أدنى، إذ لم يكن الجيش الإسرائيلى المكون من العصابات مؤهلا آنذاك لحرب نظامية، اتصل الإنجليز بالحكومة المصرية والحكومات العربية الأخرى، وتوسطوا لعقد هدنة بين العرب وإسرائيل، فوافق هؤلاء وكانت هدنة رودس الأولى المشئومة بين النقراشى باشا رئيس وزراء مصر والصهاينة، وأصدر النقراشى باشا بعدها أوامره بوقف القتال وكذلك فعلت الجيوش العربية الأخرى، وفى فترة الهدنة الأولى نقض اليهود هذه الهدنة بعد أن أعادوا تجميع قواهم ووصلتهم أمدادات وفيرة من الذخائر والأسلحة الجديدة والمتطوعين الأوروبيين، وهجم الجيش الصهيونى على الجيوش العربية التى إنسحبت أمامه دون معارك وتركت لهم جزءاً كبيرا من الأراضى التى كان الفدائيون قد حرروها.

ثم حدثت هدنة أخرى بين العرب والصهاينة، وفى أثناء الهدنة الثانية تم تزويد الجيش المصرى بأسلحة وذخائر فاسدة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، زوده بها سماسرة السلاح الإيطاليين بالإتفاق مع السماسرة المصريين من رجال الحاشية الملكية، وكانت هذه الصفقة أسوأ ما حدث فى هذه الحرب.

وبعد نقض اليهود للهدنة الثانية إنسحب الجيش الأردنى بقيادة الجنرال جلوب فجأة دون حرب من مدينتى اللد والرملة ثم أتبع ذلك بالانسحاب من النقب وسلم الأراضى التى إنسحب

منها لليهود، وكان ذلك بأوامر من بريطانيا التي وعدت الأمير عبدالله أمير شرق الأردن بضم الضفة الغربية والقدس الى إمارته وجعلهما مملكة وتنصيبه عليهما ملكا باسم ملك المملكة الأردنية الهاشمية، فوافق فورا على الخطة وسلم لليهود الأراضى التى إتفق على تسليمها لهم، ولعبت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل فيما بعد دورا هاما فى إقناع الملك بالفكرة، وكانت دائمة التردد عليه فى القصر الملكى بعمان وتربطهما صداقة متينة.

وكانت هذه اللطمة الشديدة أول لطمة عنيفة وخيانة لفلسطين، وتلاها تدفق أهالى المناطق التى سلمت للصهاينة الى شرق الأرض كلاجئين، وفرح الملك بذلك، إذ سيزيد عدد سكان مملكته الى الضعف وبادر بمنح اللاجئين الجنسية الأردنية، وكان هذا فى الأساس هو هدف الإنجليز من تأسيس إمارة الأردن الصحراوية الخالية من الثروات والعديمة الموارد، وجعلوها تعتمد عليهم إعتمدا تاما فى الحصول على ميزانيتها وراتب الأمير وجيشه.

وحمل الفلسطينيون فى أنفسهم مرارة الخيانة التى قام بها الملك عبدالله، وإغتالوه بعد ذلك عندما كان يهم بالخروج من المسجد الأقصى.

أما الجيش المصرى فوجد نفسه وحيدا وقد كشف ظهره بعد إنسحاب الجيش الأردنى من النقب، وزاد الطين بله عدم فاعلية السلاح الذى زودوه به، والذخيرة الفاسدة التى كانت تنفجر فى الجنود المصريين ولا تصيب العدو.

ويبدو أن مسلسل الخيانة كان قد وصل إلى مداه، فأصدرت الأوامر للجيش المصرى بالإنسحاب حتى قطاع غزة، فنفذ الأمر، و كان قطاعا غزة مصمما من قبل من الذين رسموا خطوط النكبة لتركه فى يد الجيش المصرى حتى يستوعب عشرات الألوف من الفلسطينيين اللاجئين والمطرودين من باقى أراضى فلسطين التى إستولى عليها الجيش الإسرائيلى دون حرب.

أما الفدائيون المصريون الذى رفضوا أوامر الإنسحاب من مواقعهم وصمدوا فيها، فقد صدرت الأوامر للجيش المصرى باعتقالهم وإرسالهم إلى معتقل جبل الطور فى مصر، وأما قائدهم البطل أحمد عبدالعزيز فقد أرداه أحد الجنوب المصريين ليلا برصاصة غادرة بحجة أنه سأله عن كلمة سر الليل ولم يجاوبه بها.

وكانت هذه هى ثانى أكبر الخيانات التى حدثت فى هذه الحرب، حرب الخيانة المأساوية، والتى أدت فيما بعد إلى إغتيال محمود فهمى النقراشى باشا أثناء توجهه إلى مبنى مجلس الوزراء وما تبع ذلك من أحداث خطيرة فى مصر إنتهت بثورة يوليو ١٩٥٢ وطرد الملك فاروق وإعلان الجمهورية.

وأما الجيش السورى فقد إنسحب هو الآخر دون حرب وترك شمال فلسطين لليهود، وسحب معه كذلك المتطوعين الذين كان يقودهم فوزى القاوقجى وكان وزير الدفاع السورى وقتئذ متزوجا من أخت زوجة موشيه شاريت وزير الدفاع الإسرائيلى.

إنتهت الحرب الإسرائيلية الأولى بهذه النهاية المأساوية، وكان من نتيجتها إستيلاء اليهود على ٧٠٪ من أراضى فلسطين وتشريد أهلها، وتكوين مملكة هزيلة فى الشرق مكونة من الضفة الغربية بما فيها القدس وشرق الأردن.

أما ما بقى من فلسطين فكان شريطا ضيقا من الأرض فى الغرب هو قطاع غزة ترك تحت حكم مصر. هذه هى صورة فلسطين وما آل إليه حالها بعد الحرب العربية الإسرائيلية الأولى وتكوين دولة إسرائيل.

وإذا تأملنا فى ثنايا وقائع هذا الفصل، فلابد لنا أن نخرج بنتيجة هامة وهى أن دولة إسرائيل القرن العشرين لم تنشأ كمعجزة إلهية وهدية من يهوة الى شعبه كما يدعى اليهود الأمريكيون، بل نشأت كسلسلة من المؤامرات الإنجليزية والأوروبية والأمريكية والخيانات العربية، زد على ذلك ضعف العالم الإسلامى وتخاذله وخضوعه خضوعا تاما للدول الأوربية الكبرى والولايات المتحدة الأمريكية، وهانت على الجميع أنفسهم حتى هانوا على الله سبحانه وتعالى فأذلهم وأهانهم.

أما عقد الإتفاق الذى عقده يهوه مع إبراهيم عليه السلام لمنح ذريته من اليهود منطقة الشرق الأوسط، فهو عقد مزيف نقضه اليهود أنفسهم أكثر من مرة ولم يلتزموا أبدا بشروطه، فأذلهم الله وشردهم فى بقاع الأرض وهم للآن لا يلتزمون بشروط العقد، بل مازالوا يرتكبون الآثام والموبقات والجرائم فى كل مكان، يقتلون الضعفاء ويبيدون الأبرياء ويشردونهم، ولا أظن أن الله تعالى سوف يتركهم على ما هم فيه من ظلم وإنحلال إلى ما لا نهاية.

الفصل الحادى عشر

أسطورة تفوق العنصر اليهودي
وسموه علي باقي أجناس البشر

الفصل الحادى عشر

أسطورة تفوق العنصر اليهودي
وسموه على باقي أجناس البشر

يدعى اليهود دائما أنهم عنصر متفوق يسمو على جميع شعوب وأمم الأرض الذين يطلق عليهم اليهود «الأغيار»، ويعتقدون أن الرب قد خلق العالم كله بما فيهم الأغيار لخدمتهم، وهم شعب الله المختار الذين إختارهم وفضلهم على سائر العالمين، كما يعتقدون أنه فى آخر الزمان سيظهر المسيح اليهودى من بينهم يستعبدون به أمم الأرض جميعا ويسخرونها فى خدمتهم، ومن منطلق هذه الأسطورة يتعامل اليهود مع شعوب الأرض، فالربا مثلا محرم فيما بينهم ولكنهم يأكلونه أضعافا مضاعفة إذا جاء عن طريق تعاملهم مع الأغيار، كما أن سرقة الأغيار وسلبهم والحصول على أموالهم بالخديعة أو أى طريق آخر حلال عليهم، ونشر الدعارة والفساد ودور اللهو والقمار فى المجتمعات الإنسانية حلال أيضا، كذلك إيقاد نار الحروب بين الشعوب وجنى ثمارها عن طريق الإتجار فى الأسلحة وبيع الأسرار الحربية والتجسس لا بأس به، وخلق الفتن الطائفية والعنصرية والحروب الأهلية هنا وهناك مشروع إذا كانوا سيجنون من ورائها مالا وفيرا.

ومن الغريب أنهم يسوقون من الأدلة ما يستفاد منها تفوقهم العنصرى، وذلك مثل ظهور بعض العلماء النوابغ من بين يهود العالم، معتبرين أن الدين اليهودى، هو قومية وعرق يميز معتنقيه عن غيرهم، مع أنه دين ككل الأديان يعتنقه من يعتنقه من أفراد ذوى جنسيات وأعراق متعددة منهم الأبيض والأسمر والأسود والأوروبى والأسيوى والإفريقي وليس قاصرا على عنصر معين.

والنوابغ من الناس يظهرون فى كل زمان ومكان وفى كل جيل وحضارة منذ أقدم العصور، فالحضارة المصرية القديمة مثلا بشوامخها من آثار وعلوم أدهشت العالم أجمع- مسطرة على أوراق البردى وعلى الأحجار- قد قامت على أكتاب نوابغ العلماء فى الرياضة

والفلك والهندسة والطب، ومايزال فن التحنيط لغزا مذهلا محيرا حتى الآن، وبناء الأهرامات العظيمة بهذه الهندسة المذهلة الفريدة منذ ٤ آلاف سنة شاهدة على نبوغ من صمعها ومن نفذ بناءها.

كما بنيت الحضارات الأخرى القديمة من بابلية ويونانية وفارسية ورومانية وهندية وصينية على نواتج أفكار نوابغ العلماء، وقدم العرب والمسلمون للعالم حضارة زاهرة عظيمة كانت هى الأساس الذى بنيت عليه الحضارة الأوروبية الحديثة، وكان منهم الأساطين فى الرياضيات والفلك والطب والهندسة وغير ذلك، ويكفى أنهم هم أول من إخترع الأرقام العربية والصفر الحسابى التى يسير عليها العالم أجمع حتى الآن والتى تعمل بها أجهزة الحاسوب والأجهزة الأليكترونية، واكتشفوا أيضا علم الجبر وبرزوا فى علم الكيمياء وعلوم النبات والحيوان، وظهر من بينهم علماء دوليون من عباقرة العصور الوسطى مثل البيرونى الرياضى الفلكى الذى إستطاع بعلم الرياضة أن يقدر طول خط الإستواء بلا خطأ يذكر، وابن سينا أسطورة الطب الذى ظلت كتبه فى الطب تدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر، والزهراوى جراح وطبيب الأندلس وجابر بن حيان عالم الكيمياء التجريبية الفذ وابن الهيثم أستاذ البصريات مخترع العدسات البصرية ونظريات الضوء وغيرهم كثير.

الأساطير التوراتيةودورها في تمسك اليهود بنظرية الشعب المختار

ساهمت الأساطير التوراتية والتلمودية التى كتبت فى عصر السبى البابلى وما بعده فى تمسك اليهود بنظريات الأفضلية والعرق المتميز المختار وغير ذلك من الخزعبلات التى شقيوا بها وأشقوا معهم البرية طوال عصورهم، وجعلتهم منبوذين فى كل مكان يتواجدون فيه، وجلبت عليهم كراهية الشعوب الأخرى وإضطهادها لهم ومحاولتها التخلص منهم أو عزلهم فى أحياء خاصة بهم هى الجيتو أو حارات اليهود، ومن هذه الأساطير ما يلى:-

نظرية المسيح اليهودي المنتظر:-

لا يؤمن اليهود بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ولكنهم يؤمنون بمسيح آخر يهودى ينتظرون ظهوره من بينهم فى آخر الزمان، فبعد أن توالت عليهم المحن والمصائب ودالت

دولتهم مرتين وهدم هيكلهم وأزيلت مدينتهم وتفرقوا فى جنبات الأرض، بدأوا يحلمون بمسيح مخلص يأتيهم ويتولى قيادتهم ويكون ملكا عليهم وينصرهم على كافة أمم وشعوب الأرض، ويجبر كل من فى الأرض على السجود لإله إسرائيل، فقد جاء فى العهد القديم «سفر أشعيا»

(ويخرج قضيب من جذر يسى، وينمى فرع فى أصله، ويستقر عليه روح الرب وروح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح العلم وتقوى الرب، وينتقم بمخافة الرب ولا يقضى بحسب رؤية عينية، ولا يحكم بحسب سماع أذنيه، بل يقضى للمساكين بالعدل،ويحكم لبائس الأرض بإنصاف، فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدى ويكون الشبل والعجل المعلوف معا وصبى صغير يسوقهما، وترعى البقرة والدب معا، ويربض أولادهما معا، والأسد يأكل التبن كالثور ويلعب المرضع على حجر الأفعى، ويضع العظم فى الأرقم، لا يسيئون ولا يفسدون فى كل جبل قدسى، لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر).

وتعليقنا على ذلك أن هذه نبوءة طيبة تبشر بانتشار السلام على الأرض على يد المسيح، ولكن هذا المسيح الذى يؤمنون به ليس هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذى لا يؤمنون به، ونؤمن به نحن المسلمون، وهو الذى بشر بقدوم نبى الإسلام، نبى الرحمة محمد عليه الصلاة والسلام.

ولكن بعد هذه النبوءة التى تبشر بنشر السلام على الأرض ولكل ساكنيها، تأتى نبوءة أخرى فى نفس الإصحاح «أشعيا-١١» تنقض كل ما قيل عن السلام فى النبوءة السابقة، ونتكلم عن بناء مسيحهم المنتظر للقدس وإستعباده لكافة شعوب الأرض وتسخيرها فى خدمة اليهود كعبيد أذلاء لا حول لهم ولا قوة حيث تقول هذه النبوءة:-

(وبنو الغرباء (أى الأغيار) يبنون أسوارك، وملوكهم يخدمونك، لأنى فى غضبى ضربتك وفى رضاى رحمتك، وتتفتح أبوابك دائما لا تغلق نهارا ولا ليلا ليؤتى إليك بغنى الأمم وتحضر ملوكهم إليك، لأن الأمة والمملكة التى لا تتعبد لك (أى تستعبد) تهلك والأمم تخرب خرابا، آتى بالذهب بدل النحاس وآتى بالفضة بدل الحديد، وبالحديد بدل الحجارة).

فأى إذلال سينال البشرية على أيديهم بعد ظهور مسيحهم المنتظر أبشع من هذا الإذلال والاستعباد وخراب البلاد؟

وتصل هذه النبوء إلى ذروتها فى الفصل الخامس والستين من هذه الرؤيا الطويلة لأشعيا حيث تقول (وأبتهج بأورشليم وأسر بشعبى ولا يسمع فيها بعد من صوت بكاء ولا صوت صراخ، ولا يكون هناك من بعد طفل ولا شيخ لم يستكمل أيامه لأن الصبى يموت وهو إبن مائة سنة، والخاطىء يلعن وهو إبن مائة سنة، وقبل أن أدعو أجيب وفيما هم يتكلمون أستجيب، الذئب والحمل يرعيان معا، والأسد كبقرة يأكل التبن، أما الحية فالتراب يكون طعامها، لا يضرون ولا يفسدون فى جبل قدسى).

هذا، وكأن الرب سبحانه وتعالى لم يخلق من البشر إلا إياهم، ولا يهمه مصلحة أحد من خلقه ولا ينزل الرحمة إلا عليهم، وكأنه يدللهم رغم ما هم فيه من عصيان وما هم غارقون فيه من منكرات، وهذه النبوءات المذكورة فى هذا الإصحاح هى التى أوحت إليهم بأنهم شعب متميز، وأن شعوب العالم الأخرى كلها لا تساوى شيئا بجانبهم، وهذا هو سر عنصريتهم الشديدة وصلفهم وعنجهيتهم التى تظهر فى تعاملهم مع الشعب الفلسطينى الأعزل، ومحاولاتهم المستمرة لإذلال هذا الشعب العربى الأصيل ومحوه من الوجوه، وإنتفاضه الأقصى المبارك هى خبر شاهد على ذلك.

نظرية القومية اليهودية

يدعى اليهود فى إسرائيل وغيرها أن اليهودية والقومية شىء واحد، فكل يهودى يوجد فى أى مكان فى العالم هو إسرائيلى الجنسية مغترب ولا تزول غربته إلا بقدومه إلى إسرائيل، ويسوقون هذه النظرية لجلب اليهود من شتى أجزاء الأرض وتجميعهم فى فلسطين، وقد نشأت هذه النظرية قبل نشوء دولة إسرائيل، قال بها عتاة المستعمرين الإنجليز فى القرن الثامن عشر وما بعده، وتبناها هرتزل مؤسس الصهيونية، واتخذت منها الوكالة اليهودية ذريعة لنقل اليهود الى فلسطين.

فهل هذه النظرية صحيحة؟ للإجابة على ذلك كان لزاما على أن أرجع الى بحث فى هذا الموضوع أجراه باحث فى مركز الدراسات الإستراتيجية الفلسطينية عام ١٩٦٩ هو الأستاذ مصطفى عبدالعزيز، ونلخصه فيما يلى:-

المفهوم الإسرائيلي للشعب اليهودي وعلاقته بيهود العالم

إستحدث زعماء إسرائيل والصهيونية مفهوما جديدا لليهودية يستطيعون به ربط كل من يؤمنون باليهودية بأهدافهم، فاستخدموا مصطلح الشعب اليهودى ويعنون به يهود إسرائيل ويهود العالم، ولهذا إعتبروا أن لهذا الشعب كيانا قانونيا وسياسيا واحدا متكاملا، ومعنى هذا أن سلطة دولة إسرائيل تمتد لتشمل جميع يهود العالم، ويعتمد إدعاء إسرائيل هذا على منطلقات فكرية متعددة، بعضها قانونى كوجود وعد بلفور، وبعضها دينى يحاول تفسير المعتقدات الدينية اليهودية لتجعل منها دينا وقومية، وبعضها عنصرى يجعل من اليهود شعبا يشكل عنصر متميزا، وبعضها تاريخى يرى أن تاريخ اليهود الفريد يكفى وحده ليجعل منهم شعبا له صفاته الخاصة به.

وهذه المنطلقات الفكرية واضحة فى أقوال زعماء إسرائيل والصهيونية، فيقول بن جوريون «إن العقيدة اليهودية لا تتمثل فى الإيمان بالتوحيد ووجود إله واحد فحسب، ولكن يلازمها دوافع قومية وإقليمية هى التى أدت إلى إرتباط اليهود إرتباطا روحيا عميقا بأرضهم القديمة (فلسطين) حتى أثناء إقامتهم بالمنفى».

ويقول أبا إيبان فى خطاب ألقاه فى إجتماع المجلس الصهيونى العام الذى إنعقد فى القدس المحتلة فى ١٩٦٦/١/١١ ما يلى:- «إننا نرى أنفسنا محورا وقلعة لشعب عالمى لا دولة صغيرة فقط محدودة بحدودها الجغرافية». وقد أكدت إسرائيل هذا المفهوم، فقد تضمن أول قانون أصدرته سنة ١٩٥٠ وهو قانون العودة «إن دولة إسرائيل تعتبر نفسها من خلق وإبداع الشعب اليهودى».

وقد علق بن جوريون رئيس الوزراء آنذاك فى إسرائيل على هذا القانون فقال «إن قانون العودة هو قانون البقاء التاريخى لليهود، وإستمرارا للصلة القائمة بين اليهود وإسرائيل خارجها، كما سيعود إليه الفضل فى بقائها ونموها وتحقيق رسالتها فى الخلاص القومى».

وقد أكد المؤتمر الصهيونى الخامس والعشرون على ما يلى:-

١ - كل يهودى فى العالم هو جزء من مجموعة قومية واحدة هى الشعب اليهودى.

٢ - على كل يهودى إلتزامات قومية تجاه إسرائيل.

٣ - هجرة كل يهودى إلى اسرائيل واجب قومى، وهذا الواجب القومى منبثق من العقيدة الدينية.

٤ - لا يمكن لأى يهودى أن يعيش حياة يهودية كاملة خارج إسرائيل.

٥ - هجرة اليهود إلى إسرائيل واجبة، لأنهم إذا لم يهاجروا فإنهم معرضون لخطر الذوبان فى البلاد التى يعيشون فيها أو الإضطهاد.

وينتقل الباحث ليسأل هذا السؤال ويجيب عليه:-

هل توفر الديانة اليهودية الرباط القومى الشامل الذى يؤكد وجود أمة يهودية وشعب يهودى بالمدلول السياسى؟.

والرد على هذا السؤال يأتى فى البحث الذى أجراه «نورتون مزفنسكى» Norton Mezi-vinsky المتخصص فى التاريخ اليهودى وعنوان بحثه (هل تعنى الديانة اليهودية وجود شعب يهودى؟). ويجيب على ذلك بقوله:- «إن الإنقسامات الحادة فى الماضى والحاضر بين الفروع المختلفة لليهودية تناهض فكرة وجود الديانة اليهودية الشاملة التى يكون الأفراد المنتمون إليها تجمعا عرقيا واحدا، فاليهود الأمريكيون مثلا توجد بينهم إختلافات إجتماعية وعرقية شاسعة، واختلاف فى المفاهيم والطقوس الدينية. وتوضيحا لذلك فإننا نجد أن اليهودية الإصلاحية للدين اليهودى تؤكد على أنه عقيدة دينية فقط، بينما نجد أن اليهودية الأرثوذكسية تتمسك بالشرع القديم وترى فى اليهودية ديناوقومية، ومن ناحية أخرى فإن النصوص الدينية اليهودية لم ترد فيها عبارة الشعب اليهودى، أبدا، إنما ورد فيها شعب إسرائيل وهو مصطلح يشير إلى من إعتنقوا اليهودية دينا دون أى إشارة إلى إرتباط هذا المفهوم بأن لهذا الشعب قومية واحدة».

وهذا هو ما قاله أيضا بعض رجالات اليهود مثل الدكتور سولومون شيشر Solomon Schecher فى مذكرته التى قدمها للمجلس الأمريكى لليهودية بتاريخ ١٩٥٢/٤/٨ وورد فيها ما يلى: «يجب أن نعلم أن لفظ إسرائيل لا يعنى أمة بالمعنى العام للكلمة» وورد فى الكتاب الذى نشره المجلس الأمريكى لليهودية بعنوان «اليهودية دين لا قومية» إن الشعب اليهودى بالمعنى السياسى والطائفى ليس له وجود، وإنما كان يرمز بعبارة الشعب اليهودى أو الشعب الإسرائيلى الى الناحية الروحية».

ويرى تيودور هرتزل فى كتابه الدولة اليهودية أن اليهود يشكلون شعبا واحدا وجنسا متميزا، فهل كان حقا من الناحية العلمية ما يثبت أن اليهود يشكلون جنسا وشعبا واحدا؟

يثبت الواقع العلمى غير ذلك، فقد أثبتت الدراسات الانثروبولوجية أن بين الجماعات اليهودية المنتشرة فى بقاع الأرض فوارق جنسية واضحة، بسبب إنحدارها من شعوب وسلالات بشرية متباينة ومتعددة، ومن هذه الدراسات الهامة ما يشرح بالتفصيل كيف أن اليهود لا يكونون جنسا واحدا دراسات قام بها جوان كوماس Juan Comas أستاذ التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية فى الجامعة الوطنية بمكسيكو، وعنوان بحثه «أسطورة الجنس اليهودى» والباحث سلامان R.N. Salaman والباحث فشبرج Fishberg ومن النتائج التى توصلوا إليها أن الأنف المعقوف أحد الخواص المميزة لليهود لا يوجد إلا بين ٤٤٪ من أولئك الذين يعتنقون اليهودية، بينما يظهر الأنف الرومانى بين ٩٪ منهم والأنف المنحرف إلى أعلى بين ٧٪ منهم، وهذا دليل على إنعدام وحدة الظواهر الجسدية بين الذين يسمون الشعب اليهودى. ويقول سلامان «إن نقاوة الجنس اليهودى أمر خيالى حيث يظهر بين اليهود مختلف العناصر السلالية» ثم يورد بعد ذلك تفصيلا عن تركيب الجمجمة ولون الشعر. ولكن ما هو تفسير وجود بعض اليهود الذين يمكن التعرف عليهم من أول نظرة؟ يرى جوان كوماس أن هؤلاء اليهود الذين إحتفظوا ببعض مميزات اليهود الساميين مثل الأنف المعقوف والجلد الباهت اللون والشعر الأسود والعيون السوداء، ولكن هذه الصفات توجد أيضا بين سكان منطقة الشرق الأوسط عامة وبين سكان الجزيرة العربية خاصة ومعظمهم ليسوا من اليهود ولم يكونوا فى يوم ما من اليهود، ويضاف الى ذلك أن النسبة الكبرى من اليهود لا يمكن التعرف عليهم من الظواهر الجسدية.

ويرى بعض زعماء الصهيونية وهو (ناحوم جولدمان): (أن تاريخ الشعب اليهودى الفريد قد خلق وحدة جماعية فريدة)، ولكن الواقع التاريخى يقول أن اليهود لم يكن لهم تاريخ مشترك، فهم لا يقطنون جميعا أرضا واحدة ولا يتكلمون لغة واحدة، وقد عاش اليهود خلال السنوات الألفين الماضية منتشرين فى دول مختلفة.

ولا يحس بهذه الوحدة التاريخية التى يتحدث عنها ناحوم جولدمان حتى سكان إسرائيل أنفسهم، وقد فصل هذا الجانب الكاتب الإسرائيلى ميخائيل سلزر فى كتابه (منبوذو إسرائيل)، حيث تحدث عن التمييز القائم بين اليهود فيها وقد أحسن التعبير عن نفسية اليهودى فيها حين قال «إن اليهود المهاجرين إلى إسرائيل يفكرون ويتصرفون بحسب البلاد التى جاؤوا منها، وإذا كان هناك عامل يجذبهم إلى إسرائيل هو اليهودية، فإن هناك عامل آخر يدفعهم إلى خارجها هو الأصول الحضارية والإجتماعية التى ينتمون إليها، واليهود فى إسرائيل على ألسنتهم القول التالى (حين كنت فى المجر أو... كنت فى... كنت أعتبر نفسى يهوديا، والآن وأنا فى إسرائيل أعتبر نفسى مجريا أو.... إلخ».

إسرائيل وسياسة تجميع يهود المنفي:-

بعد أن حددت إسرائيل مفهوم الشعب اليهودى، شرعت فى تجميع يهود المنفى فى الأرض المحتلة، ومن أجل تنفيذ مخططها، أخذت فى خلق المبررات التى بها تقنع يهود العالم بضرورة الهجرة الى فلسطين، فالهجرة بالنسبة لليهود الذين يعيشون فى بلاد متقدمة عملية إنقاذ روحى، وواضح من هذه السياسة أنها تقترن بمخططات توسعية على حساب الدول المجاورة، وهذه حقيقة عبر عنها زعماء إسرائيل بوضوح ودون مواربة، ويقول بن جوريون «أنا لا أستطيع أن أتصور كيف تضاعف إسرائيل عدد سكانها خمس مرات ثم تظل فى إطار حدودها الحالية».

ومن أجل تجميع اليهود فى فلسطين المحتلة أصدرت إسرائيل قانون العودة عام ١٩٥٠، وهو قانون يعطى لأى يهودى فى العالم الحق فى المجيىء الى إسرائيل بصفة مهاجر عائد للإستيطان فيها فى أى وقت يشاء، ولا تشترط إسرائيل أن يتنازل اليهودى المهاجر عن جنسيته الأصلية، وهكذا فإن اليهودى حتى فى موطنه حيث يسكن فى أى مكان فى العالم

يعتبر ذا ولائين، وولاؤه لإسرائيل يأتى أولا، ولعله هو الولاء الأوحد الذى هو ملتزم به فى نظر زعماء إسرائيل والصهيونية، وليس الإيمان بالدين اليهودى هو ما يجعل اليهودى يهوديا لأن كثيرين جدا من اليهود لا يؤمنون بالدين، ولكن الذى يجعل منهم يهودا أنهم يعدون أنفسهم كذلك، أو كما قال النائب العالم الإسرائيلى غداة الموافقة على قانون العودة «إنه لا يوجد تعريف قانونى لكلمة يهودى، ونحن نعد من اليهود كل من يعد نفسه يهوديا» ومن لوازم إغراء اليهود بالهجرة إلى إسرائيل، فإن اسرائيل والمنظمة اليهودية تحاولان دائما إيهام اليهود بأنهم معرضون لخطر الإضطهاد فى البلاد التى يقيمون فيها، ولذلك فإن عليهم أن ينجو بأنفسهم إلى الأرض التى كتبها الله لهم، وقد عملت أجهزة المخابرات الإسرائيلية والوكالة اليهودية على خلق جو من الإرهاب والذعر بين اليهود الذين يقيمون فى بعض البلاد خارج إسرائيل حتى يهاجروا، مثل تدبير حوادث الإنفجارات فى أماكن العبادة اليهودية، وقد عبر أحد محررى جريدة دافار الإسرائيلية عن هذا الموضوع بوضوح عندما قال «أنا لا أشعر بالخجل وأنا أعترف هنا أنه لو كانت لدى سلطة، لأخذت عشرات من الشباب الأذكياء المخلصين لمثلنا العليا ثم أرسلتهم متنكرين إلى البلاد التى إستكان فيها اليهود إلى رغد العيش وذلك من أجل نشر شعارات معادية للسامية وما شابه ذلك من الشعارات، وأنا على يقين بأن هذه سوف تؤدى الى نتائج جيدة بشأن الهجرة إلى إسرائيل، وهذا أفضل بكثير من البعثات التى ترسلها لتصب وعظها فى آذان صماء».

تهويد وصهينة البرامج الثقافية ليهود العالم:-

تلجأ إسرائيل والأجهزة الصهيونية الى وضع خطط لربط يهود العالم بإسرائيل، ومن ذلك صهينة برامج التعليم عن طريق التدخل المباشر فى الشئون الثقافية والتعليمية ليهود العالم، وإيفاد المدرسين الإسرائيليين للعمل فى المدارس اليهودية فى الخارج، وتقديم المنح الدراسية ليهود العالم لكى يدرسوا فى إسرائيل، وإرسال حاخامين إسرائيليين للعمل فى المعابد اليهودية فى البلاد الأخرى.

وقد عارض العديد من اليهود الأساليب والوسائل التى تتدخل فى شئونهم، ومثال ذلك ان بن جوريون زار الدانمرك سنة ١٩٦٢، وأخذ يحث يهودها على الهجرة الى إسرائيل،

فوقف أوتوليفيش رئيس الجالية اليهودية فى الدانمارك ليقول له «إنا نحن اليهود الدانماركيين لا نريد مكانا آخر لنعيش فيه حياة أسعد من حياتنا هنا فى الدانمارك، إننا جزء أصيل من الشعب الدانماركى فنحن دانماركيون أولا ثم يهود». ورد عليه رئيس حاخامى الدانمارك قائلا «إن أى فرد مهما علا مركزه ومن أى مكان جاء، ليس له الحق أن يغير ولو مثقال ذرة من الوضع الذى ظل عليه اليهود الدانماركيون سنين طويلة يعيشون سعداء مع باقى إخوانهم الدانماركيين».

دعم يهود العالم لإسرائيل ماديا وفنيا:-

من الحقائق الواضحة أن الإقتصاد الإسرائيلى يعتمد إعتمادا جوهريا على المساعدات الخارجية التى تحصل عليها إسرائيل من الدول الكبرى والولايات المتحدة الأمريكية وكذلك من التبرعات التى تأتيهم من يهود العالم، ومثلا فإن المساعدات التى حصلت عليها إسرائيل من يهود العالم خلال المدة من سنة ١٩٤٩ حتى سنة ١٩٥٩ بلغت ١٤٦٩ مليون دولار، أى ما يعادل ٤٧,٢ ٪ من المال المستورد، وترى اسرائيل أن هذه التبرعات أمر حيوى لبقائها وتوسعها، وهى لا ترى فى هذه التبرعات حسنة أو منة يجود بها يهود العالم عليها، بل هى فى نظرها ضريبة قومية إلزامية مفروضة على المتبرعين، لهذا نجد أن زعماء إسرائيل والصهاينة يلجأون إلى كل الحيل والضغوط من أجل دفع اليهود للتبرع لإسرائيل، ومن يزر أحد المعابد اليهودية فى نيويورك مثلا أو فى أى مدينة أمريكية يهوله حجم التبرعات التى يلقى بها المصلون فى يوم السبت فى صناديق التبرعات المعدة لإرسالها لإسرائيل.

ويقوم العالم أيضا بتزويد إسرائيل بخبراتهم الفنية والتقنية، والمثال الواضح على ذلك هجرة ١٣٠ ألفا من العلماء والمهندسين من دول الإتحاد السوفييتى السابق إلى إسرائيل ليزيدوا من قدراتها الصناعية والتقنية، ويوجد مثال آخر لتفانى اليهود فى الوقوف الى جانب إسرائيل، فقد جاء فى بيان وزارة التجارة الأمريكية أن تحويل الأموال من الولايات المتحدة إلى إسرائيل منذ شهر يونية حتى شهر سبتمبر سنة ١٩٦٧ قد إرتفع بما لا يقل عن ٢١٠ مليون دولار، والسبب فى هذه الزيادة هو قيام اليهود الأمريكيين بتحويل مبالغ كبيرة إلى إسرائيل بعد حرب يونية ١٩٦٧، وأعلن المشرفون على صندوق بريطانى لجمع التبرعات

لإسرائيل بتاريخ ١٩٦٧/٦/٢ أنهم قد جمعوا ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيها إسترلينيا فى أسبوع واحد، وفى نفس الوقت أسهمت أسرة روتشليد وحدها بمبلغ مليون جنيها إسترلينيا، وأعلنت الوكالة اليهودية أنها جمعت تبرعات من بريطانيا تقدر بستة ملايين جنيها إسترلينيا وذلك تلبية للنداء الذى أطلقته لجمع ٥٠٠ مليون دولار لإسرائيل بعد حرب ١٩٦٧، كما قرر أكثر من ٤٠٠ زعيم يهودى أمريكى وكندى تغطية المبالغ المطلوبة لدائرة الإعمار الإسرائيلى بعد هذه الحرب ومقدارها ٢٨٩ مليون دولار، وتبرع يهود مدينة تورنتو الكندية وحدهم بأكثر من ١٠ مليون دولار أثناء عدوان ١٩٦٧ وبعده، وقدرت وكالة يونيتد برس للأنباء بتاريخ ١٩٦٧/٦/٢٥ التبرعات التى جمعت فى الولايات المتحدة لصالح إسرائيل بحوالى ٨٥ مليون دولار فى الأيام الأولى للعدوان الإسرائيلى فقط، وذكرت تلك الوكالة أن ما جمع من ولاية نيويورك وحدها هو ٢٢ مليون دولار أثناء إحدى الحملات التى قام بها النداء اليهودى الموحد فى كندا، هذا غير الأموال التى تدفقت على إسرائيل من المانيا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من الدول بمناسبة عدوان ١٩٦٧ أيضا، والتى ساهمت فى سرعة بناء المستوطنات الجديدة فى الأرض الجديدة التى احتلتها إسرائيل فى ذلك الوقت وإبتلاع الجزء الأكبر من أراضى الضفة الغربية والقدس.

أنظر إلى هذا التفانى فى تزويد هذه الدويلة المعتدية بطوفان من الأموال والسلاح بعد كل إعتداء تقوم به على الشعوب العربية وما تقدمه الآن الدول العربية الغنية من مساعدات الى الفلسطينيين الواقعين تحت الحصار والتجويع والاعتداء الدائم عليهم برا وجوا وبحرا وبصفة مستمرة من إنتفاضة الأقصى المبارك حتى اليوم، وتخاذل أغنياء العرب وعدم مبالاتهم بما يجرى، مما أفقدهم إحترام العالم لهم واستهانته بأمرهم فأصبح لا يحسب لهم حساب ولا وزن.

الفصل الثاني عشر

الأدب الصهيوني إستعلاء وعنصرية ودعوة للعنف والقتل

الفصل الثانى عشر

الأدب الصهيوني إستعلاء. وعنصرية ودعوة للعنف والقتل

التحدث باللغة العبرية هو من أعقد المشاكل التى تواجه اليهود القادمين من البلاد الغربية حيث أنه من الصعب عليهم نطلق بعد الحروف العبرية كالعين والحاء والقاف، وهذه كلها حروف صعبة النطق بالنسبة للمتحدثين باللغات الآرية، ولكن بمجرد وصول المهاجرين الى الأرض المحتلة تبدأ مرحلة هامة وشاقة وهى تلقينهم اللغة العبرية لكى يندمجوا فى المجتمع الإسرائيلى ويتحدثون لغته، وفى السنوات الأخيرة، وبعد سقوط الإتحاد السوفيتى، وفد إلى إسرائيل عشرات الآلاف من اليهود الروس وكونوا لأنفسهم مجتمعا جديدا خاصا بهم داخل المجتمع الإسرائيلى، يتحدثون فيما بينهم باللغة الروسية، ويصدرون صحفا ومجلات مكتوبة بالروسية ويمارسون حياتهم العادية كما كانوا يمارسونها فى بلادهم الأصلية، ونشروا فى أماكن تواجدهم الحانات التى تقدم فيها الفودكا والراكيا وغيرها من الخمور الروسية، والكثيرين منهم لا يذهبون إلى المعابد ولا يمارسون الطقوس الدينية حتى الآن، والعديد من هؤلاء مازالوا يكتبون أدبهم باللغة الروسية، ويعرضون على مسارحهم التمثيليات باللغة الروسية، ولكن المهاجرين القدامى الذين أتقنوا اللغة العبرية حريصون على أن يصدر إنتاجهم الأدبى باللغة العبرية، ولقد لعب الأدب الصهيونى منذ إنبعاثه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دورا خطيرا فى التمهيد لظهور الدولة العبرية، والترويج للصهيونية السياسية، ووفرت لها كل أسباب الرواج والذيوع.

وقد ظهر هذا الأدب فى الأماكن المتفرقة التى كان يعيش فيها اليهود وبلغات الشعوب التى عاشوا بينها، وقد إتجه هذا الأدب القديم من خلال نتاجاته الشعرية والقصصية والروائية إلى مخاطبة اليهود من أجل الإلتفاف حول فكرة الإنبعاث القومى والتبشير بالصهيونية السامية قبل أن تختمر فى خبال هرتزل فكرة الدولة اليهودية. وهكذا حاولت الصهيونية

الأدبية ما وسعتها المحاولة أن تشد اليهودى أينما كان وحيثما وجد إلى هذه الفكرة، فشحذت كل أسلحتها وحشدت كل إنتاجها لتلقى به فى خضم هذه المعركة من أجل كسب الأنصار للصهيونية حتى قبل أن تظهر، ولكى تنجح فى هذه المهمة، لجأت فى بداية الأمر إلى التركيز على العامل الدينى والتوراة. ومن خلال هذا التركيز كان لابد أن يؤدى ذلك حتما إلى إستخدام هذا العامل كمدخل إلى أمور أخرى تسعى إليها الصهيونية الأدبية، وكان من الطبيعى أن تنبثق عنه فكرة «شعب الله المختار وأرض الميعاد».

كان التركيز على هذه الفكرة الصهيونية ضروريا بالنسبة للصهيونية الأدبية لكى تتيح للبذرة التى بذرتها خلال معطياتها أن تنمو فى أرض خصبة زاد فى خصوبتها الحديث عن معاناة اليهودى فى التيه وداخل الجيتو- الأماكن التى عزل فيها اليهود أنفسهم عن الآخرين، واضهادهم على يد الأغيار الذين لا تأخذهم باليهود رحمة ولا شفقة، لذلك تعددت صور الأدب الصهيونى القديم وصب فى هذه الاتجاهات:-

الدعـــــوة للخـــــلاص:

من الطبيعى أن يكون الإضطهاد والمعاناة هما جوهر الفكر الصهيونى والمحور الذى يدور حوله كل نتاج أدبى صهيونى من نثر وشعر ورواية، فالتيه هو حجم الأرض التى يصطلى اليهود بنارها وأرض الميعاد هى الجنة التى ينبغى أن يسعى اليهودى اليها لكى ينعم بعسلها ولبنها ويعيش بين خيراتها، وبدأ الأدباء الصهاينة من خلال أدبهم يدعون للتخلص من وصمة الذل والعار والضياع والاضطهاد التى يلقاها اليهود على يد الأغيار، ولا يمكن أن يتحقق الخلاص والنفس اليهودية خائفة مرتجفة تعيش الخنوع والإستكانة والذل وتتقبل الإضطهاد راضية، ومن هنا لجأت الصهيونية الادبية إلى استخدام إنتاجها من أجل نفخ القوة والثقة فى النفس اليهودية الخائفة المرتجفة والمضطربة، أى محاولة شد اليهودى الى التأزم والإنفعال المستمر عن طريق إثارة النوازع النفسية والخوف من المنفى ثم الإنتقال الى تحريضه على التمرد على واقع الجيتو والانتقال من موقع الدفاع الى موقع الهجوم، وهذا يتطلب جرأة وشجاعة للتحول الى بطل، ومن هنا يمكن أن نفسر أساليب التعبير التى

إستخدمها هذا الأدب، ويمكننا فى ضوء ذلك أن نتصور التنويع الذى ينسجم بداهة مع تعدد الأهداف التى سعى إليها من حيث الأهمية والمراحل التى قطعها فى النقاط التالية:-

١ - **أدب التراث**:- إنطلق هذا النوع من الأدب مستندا إلى الأسطورة الدينية والتراث الدينى المستمد من التوراة والتلمود وما يتفرع عنهما من موضوعات عن شعب الله المختار وأرض الميعاد والهيكل .

٢ - **أدب الرثاء** أو بعبارة أخرى أدب البكاء والنواح الذى يجسد روح المنفى ويحكى قصة معاناة اليهود فى ظل الإضطهاد وفى الجيتو ومحاولة المبالغة والتهويل فى وصف هذه المعاناة وإجترار الآلام إستدرارا للعطف، ثم محاولة إستثمار ذلك للتحريض على الأغيار المضطهدين والتفوق عليهم واستخراج نزعة السمو والتعالى من عقد الضّعَةْ والهوان.

٣ - **أدب الحنين الى الأرض**:-

وهذا النوع من الأدب دأب على إستخدام كل أنواع التعبير بين الرواية التاريخية والشعر والقصة من أجل تأكيد المقولة التى تدعى الملكية التاريخية لليهود فى فلسطين، وذلك بالحديث عن العودة إلى صهيون باعتبارها الملاذ.

٤ - **أدب المقاومة**:-

إستهدف هذا الأدب خلق نموذج من اليهودى المتمرد على واقع الجيتو، اليهودى البطل المتفوق الذى يتحلى بخصائص وصفات مقصورة عليه ولا توجد فى غيره، وكان رواد هذا النوع من الأدب الشعراء الصهاينة وكتاب القصة والرواية، سواء ما كتب منها باللغة اليدشية (لغة يهود المنفى) أم العبرية من أمثال آحاد هعام وبياليك وبيرسى سمولنكن وهس والذى يعنينا فى المقام هو النوع الأخير من الأدب نظرا لدوره الخطير فى التعبئة الحاقدة على الأغيار، وشحنه للنفس اليهودية بشحنات الحقد المعززة بالدعوة الى الاعتقاد بتفوق اليهود على كل بنى البشر، وكان هدف هذا النوع من الأدب هو إنتشال اليهودى من وهدة الضياع والاستكانة ودفعه الى موقع المقاومة والتصدى للإضطهاد الذى يتعرض له وتوصيله الى مرحلة البطولة حسب المواصفات التى حددها هذا النوع من الأدب للفرد وهو أن يكون

شخصا مندفعا مغامرا خارقا فى بطولته لا يشق له غبار فى مقاومة الأغيار ولا يعرف الشفقة والرحمة ولا التسامح معهم.

وهكذا رسم رواد الأدباء الصهاينة من خلال إنتاجهم الأدبى سمات الشخصية الصهيونية ذات النزعة العدوانية من خلال التركيز على البطولة اليهودية وما تعنيه من ممارسات وقواعد سلوكية عدوانية، وروجوا للعنصرية العرقية بتأكيدهم دائما على تفوق اليهودى وسموه وتميزه، وسوف نورد هنا نماذج من هذا الأدب الذى يصور البطل اليهودى قبل أن يولد وتحديد صفات وميزات الشعب ونسبة ملاحم وهمية له، وإنصب هذا الأدب وسعى إلى غايته فى خلق صهيونية عدوانية وخلق الفرد الصهيونى، وعليه فإن هذا الأدب الصهيونى بكل صوره سواء أكانت روائية أو غيرها قد إنطلق من فراغ ليصل الى هدفه الأسمى وهو بلورة قاعدة سلوكية عنصرية لليهودى وترك بصماته على التكوين النفسى لليهود، ولذلك امتلأ بالشعارات التى يغص بها إنتاج اليهود الأدبى مثل «الشعب المختار» ومن مثلك ياشعب إسرائيل بين الشعوب» «وإقتلوا الأغيار دون شفقة أو تردد» «وبادر الى قتل من يضمر لك السوء» إلخ. وهذه هى مادة التربية الأدبية التى تهدف الى شحن النفس اليهودية بشحنات من العقد والتعالى

أمثلة من الأدب الصهيونى العنصرى:-

جسد الأديب الصهيونى «شالوم عليخوم» ومعنى اسمه باللغة العربية السلام عليكم- فى روايته بائع الحليب صراع اليهودى فى المنفى، ففى الفصل الأول من الرواية يظهر طوبيا بائع الحليب وهو يجوب القرية ليوزع الحليب على أهلها، يستبد به شعور الخوف ويعذبه، فأبناء القرية ناكرون للجميل ويتربصون به الدوائر ويكيدون له ويسعون الى هلاكه رغم ما يؤديه لهم من عمل خير وحين يشعر بشبح الخطر يطارده أينما ذهب، يلجأ إلى شيخ القرية بروبولو يلتمس عنده الأمان، ولكن هذا الشيخ رغم جبروته وسطوته لا يوفر له الأمان المنشود، فيعود كسير النفس الى منزله وهو يرتعد خوفا على بناته السبع من أبناء القرية، اللذين لا تأخذهم به ولا بأفراد أسرته شفقة ولا رحمة، وفى هذا الفصل يصور كاتب الرواية- شالوم عليخوم- طوبيا بائع الحليب اليهودى فى صورة البائس الخائف دائما من المحيط

الإجتماعى الذى يحيط به والذى يكيد له كيدا ويسعى الى الفتك به واستعباد بناته السبع، والشيخ صاحب السلطة فى القرية لا يفعل شيئا لإنقاذه، وهنا يفكر طوبيا فى حل لمشكلته.

ويستطرد كاتب الرواية فى تصوير أحداث روايته ليصل إلى الهدف الذى يريده منها، وينتقل بالأحداث الى صورة أخرى فى الفصل الأخير، صورة طوبيا بعد أن تغلب على خوفه وقرر أن يواجه التحدى بالتحدى، فينصب قامته وينفض عن نفسه غبار الخوف ويقرر مواجهة أهل القرية، وأمام هذه الشجاعة يتراجع أهل القرية، وبعد ذلك يقرر طوبيا الهجرة الى أرض صهيون مع بناته السبع اللاتى لا يجدن عرسانا فى القرية، ويجد فى الأرض الموعودة الملاذ والأمان والعرسان لبناته.

ومر الأدب اليهودى بعد ذلك فى مرحلة تطور أخرى فليس من مصلحة الصهيونية تصوير يهود المنفى دائما على أنهم قوم مقهورون مطأطىء الرءوس دائما وضحايا الخوف، بل يرقى لتصوير اليهودى على أنه المتفوق المتميز عنصريا على سائر البشر من الأغيار، وبدأ رواد الأدب الصهيونى يتعهدون اليهود بنشأة جديدة أساسها غرس الشعور بالثقة والقوة والسمو والتحرر من عقدة الضعف والضعة والخنوع التى تحكمت فيهم فى المنفى، ويتكفل الأدب اليهودى فى هذه المرحلة بخلق اليهودى البطل الذى لا يعرف الخوف ولا تقف فى طريقه قوة، ونذكر فيما يلى مثال لذلك فى شعر مناجم بياليك شاعر الصهيونية الأدبية، ومن خلال شعر مناحم صور اليهودى بصورة البطل الذى يتحدى الخوف غير هياب ولا وجل، وهذا نموذج من شعره:-

شعب لا يرهب ولا يتزحزح، لا يخاف

عدوه ليس أسدا هصورا

الأصوات لا تخيف، فالرجال أبطال شجعان

يتحدث البطل ويحطم الأغلال ويسمو بالشعب ولو سفك الدم فشعبنا يده طولى دائما ويسير شاعر صهيونى آخر على نفس الدرب وهو شمعون هالكن نختار من قصيدة له هذه الأبيات:-

هلا كنتم كالآباء تحديا
ياحراس المزامير المقدسة
أنتم ضحايا الجيتو
تتفوقون على الأغيار
فأنتم معجزة
مهما تريدون يكون

وهكذا راح الأدب الصهيونى يتغنى بالبطولة والأبطال اليهود قبل ظهور الصهيونية السياسية والى الإغراق والتهويل فى الحديث عن صفات هذا البطل، وعن تفرده بالبطولة والحط من شأن الأغيار، وراح فى نفس الوقت يروج لعنصرية أدبية لم يكن أدبا إنسانيا وجد لخدمة أهداف إنسانية، بل هو فى مجمله عنصرى الجوهر والبناء، لحمته العنصرية وسداه الشوفينية.

إن الأدب وهو نتاج لعمليات فكرية إنسانية لا يمكن أن يتحول إلى أداة تحريض على القتل وعلى إحتقار الآخرين والتعالى عليهم.

وقد سار النثر الصهيونى أيضا فى هذا الطريق، فمثلا إنبرى الأديب والفيلسوف الصهيونى آحاد هعام ليمجد البطولة والإندفاع والقوة المقرونة بالإعتداء على الآخرين وذلك عبر كتابه «رسائل ومقالات آحاد هعام» التى يقول فيها:- إن شعبنا وهو يبحث عن وطن قومى ويتلمس الطريق إلى حياة قومية خاصة به، ليكون قدوة للآخرين ومنارة للأغيار يندفع الى مواجهة الخطر بخطوات جريئة قوية، إنه يجهز على العدو غير هياب ولا وجل، حتى ولو كان أقوى منه عدة وعددا، إنه يلقى بنفسه فى عرض البحر وهو عاصف مائج، الجرأة هى النبراس الذى يضىء طريقه، والقوة هى التى ترهب الأغيار، ومن مثل شعبنا أحوج إلى القوة التى تجعل من مبدأ «لا تخش عبيدك يايعقوب» مبدأ ذات معنى عملى.

إذا فالبطولة والشجاعة فى مثل هذا الأدب هى بهدف تربية اليهود تربية عدوانية عنصرية تتخذان من العاطفة وإثارة الخيال والتحريض على العدوان بل على القتل وتغذية الروح بالعنصرية سندا وركيزة، هذا ما فاض به الأدب الصهيونى وهو ما يزال فى الشتات

(الدياسبور)، ومع بدء تدفق موجات المهاجرين اليهود الى فلسطين تحت تأثير التحريض والحث المتواصل، وإستجابة للدعوة التى أطلقها هرتزل، بدأ هذا الأدب يهاجر من الشتات الى فلسطين، ويمارس دورا أخطر مما كان يمارسه فى الشتات، إذ أخذ يضطلع بوظيفة دعائية وسياسية بلا حدود ولا قيود وعبر وسائل إتصال جماهيرى أوسع، وجندت الحركة الصهيونية هذا الأدب وطوته تحت أجنحتها بعد إعادة تشكيله فى إطار تنظيمى لخدمة أهداف الحركة الصهيونية، ويحاول أن يسهم فى بلورة الشخصية الصهيونية بصفاتها الجدية ومواصفتها المتميزة، واندفع هذا الأدب بعد الهجرة يشيد بالرواد الأوائل المهاجرين فى الهجرتين الأولى والثانية، ويغالى الى حد الخيال فى وصف تسجيل إرادته فى مواجهة التحديات، كما يسمى البدء فى بناء المستوطنات وتجفيف المستنقعات ومصارعة المرض وقهر الطبيعة عملا بطوليا، ويفاخر بتخلصه من سلبيات الشتات وشفاءه من عللها وخصوصا الخنوع والذل، وظل الحال هكذا حتى الثلاثينيات من القرن العشرين حيث بدأ يتحدث عن اليهودى ذى المزايا الإيجابية والكفاءة والإرادة والقدرة الفائقة على أداء المهمات وفعل المعجزات، ثم اليهودى البطل الذى يهزم كل من يحاول أن يقف فى طريق عمله وهو يسعى الى إقامة وطنه القومي، وهنا أيضا حاول هذا الأدب ما وسعته الحيلة التركيز على صفة البطولة الجماعية والمشتركة التى تجاوزت البطولة الفردية.

الأدب الصهيوني بعد عام ١٩٤٨:-

بعد زرع الكيان الصهيونى الإغتصابى على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ واصل هذا الأدب- على الرغم من كثرة الأدباء واتساع رقعة الإنتاج الأدبى بأشكاله وأنواعه- تأدية مهمة التحريض وإذكاء نار الحقد والعنصرية، فقصص موشيه شامير- وهو قصص روائى، وروايات سى يزهار وشعر حورى والتمان ومسرحيات وروايات أهرون ميجيد التى حفل بها الشارع الأدبى الصهيونى كان لها دورها فى بلورة السلوك العدوانى للمجتمع اليهودى بأفراده وجماعاته، فهذا الأدب يصف القتل- الذى لا يسلم منه حتى النساء والأطفال- على أنه بطولة تستحق التقدير وأنواط الشجاعة، وهذا الأدب الصهيونى حاول أن يصنع من اليهودى سوبرمان لا يضاهيه فرد فى الدنيا، ولا يصل إلى مرتبته أحد، أى أن هذا المستوطن كما

يقول شامير يظل يندفع الى الأمام فيهرب منه الأغيار، ولا شيء يوقفه حتى الموت، وحتى الموت لا يجد سبيلا غير أن يحنى رأسه أمام هذه البطولة.

وتوجد من نحو هذا الأدب أمثلة كثيرة لا يتسع المجال هنا لذكرها، وهذه الأمثلة تعد دليلا ونموذجا على عنصرية هذا الأدب ذى المنحى العدوانى الذى لعب دوره ومايزال فى تبرير العدوان والجريمة، والترويج للأفكار العنصرية والشوفينية التى تحط من شأن الآخرين، وتسفه كيانهم ووجودهم فى نفس الوقت الذى تعمل فيه جاهدة على تمجيد الذات اليهودية.

وقد أذكت هزيمة جيوش الدول العربية فى حرب الأيام الستة أمام الجيش الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧ فى إذكاء هذا الشعور وتأكيده، ففى هذه الحرب لم تقاتل الجيوش العربية الجيش الإسرائيلى ولو فى معركة واحدة يشار إليها بالبنان، بل إنهزمت جميعها دون حرب أمام الإسرائيليين واستولى الإسرائيليين نتيجة لهذه الحرب على الضفة الغربية والقدس وسيناء والجولان فى فترة زمنية لا تذكر، وهلل الغرب كله لهذا الإنتصار الذى تم بدون مجهود، وروج اليهود آنذاك الفقرة التى وردت فى التلمود وهى «عبيدك يايعقوب يهربون أمامك». فارتفعت الروح المعنوية الصهيونية الى القمة، وأثبت الأدباء الصهاينة أن كل ما كتبوه من أدب كان صحيحا، وأنهم لو أرادوا إحتلال باقى الأراضى التابعة للدول العربية المحيطة بإسرائيل ما إستعصت عليهم، وتوالت عليهم المنح المالية من كل حدب وصوب لتساعدهم على بناء المستوطنات فى الأرض التى إستولوا عليها، وبعد ذلك إستطاعوا أن يبثوا المستوطنات فى كل مكان فى الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة بهمة وروح المنتصر وبتشجيع ومباركة من دول أوروبا وأمريكا.

وما يحدث فى أيامنا هذه من حصار وتجويع وسفك دماء الفلسطينيين وهدم منازلهم والإستيلاء على أراضيهم وقصف الأهالى العزل برا وبحرا وجوا، والإعتداء على الأطفال وقتلهم والتمثيل بجثثهم، مع مباركة جميع طوائف الشعب الإسرائيلى لهذه الأعمال الإجرامية التى يقوم الجيش والمستوطنون، كل هذا دليل على ما ذكرنا هنا من تشكيل الشخصية اليهودية على العدوان والعنصرية وسفك الدماء وسلب ممتلكات الغير، ومما يثير

الدهشة تصريح كبير حاخامات اسرائيل ورئيس حزب شاس الدينى بأن «الرب قد ندم لأنه خلق العرب» حاشا لله سبحانه وتعالى، ووصف العرب بأنهم أنجاس الموت لهم أفضل من الحياة.

الفصل الثالث عشر

صورة العربي الفلسطيني في الفكر الصهيوني الإستيطاني

الفصل الثالث عشر

صورة العربي الفلسطيني في الفكر الصهيوني الإستيطاني

تعتبر الصهيونية بكل قيمها ومبررات وجودها مشروعا إستعماريا غربيا، نشأ فى الدول الأوروبية قبل أن يفكر فيه اليهود الأوروبين، وتتبلور أهداف هذا المشروع الإستعمارى الإستيطانى فى نقل اليهود الأوروبيين من البلاد التى يعيشون فيها إلى أرض فلسطين، ونقل أهالى فلسطين العرب من ديارهم وتشريدهم فى أماكن أخرى أو إبادتهم

ويستند مصمموا المشروع على ركنين أساسيين لتبرير أهداف مشروعهم هما:

١ – التفوق الغربى الذى يبرر الاستعمار

٢ – التأخر الشرقى الذى يبرر الطرد والإبادة

وتعلل دور بلفور الإنجليزى صاحب وعد بلفور المشهور لتنفيذ مشروعه بأن هناك حقيقة تاريخية واضحة تبرر عدم المساواة بين أجناس البشر، حيث توجد أجناس متفوقة هى الأجناس الأوروبية وأخرى متخلفة هى شعوب آسيا وإفريقية، ويمثل الإستعمار الاستيطانى حق اللأجناس المتفوقة فى إستعمار وتسخير الأجناس المتخلفة، ونادى الكثير من الزعماء الإنجليز بدعوى مفادها أن الاستعمار الأوروبى الإستيطانى هو حق للرجل الأبيض فى بسط سلطانه على البلاد المتخلفة لنشر المدنية الغربية وقيمها الخلقية والدينية بين ربوعها، لذلك فالإحتلال الأوروبى لدول آسيا وإفريقية هو نعمة كبيرة ومنحة من الرب لسكان هذه البلاد المتخلفين الذين إما أن يأخذوا بهذه الحضارة ويضعون أنفسهم تحت سيطرة الرجل الأبيض يستغلهم ويسخرهم فى خدمته كيفما شاء أو تحق عليهم الإبادة لتحل الأجناس البيضاء محلهم، وهذا هو ما حدث فى بعض المستعمرات الإفريقية والآسيوية، وما حل من إبادة على سكان قارة أمريكا من الهنود الحمر حتى فنوا عن آخرهم.

وهذه النظرية أخذت طريقها الى فكر المفكرين الصهاينة وتبنوها ودعوا إليها بإعتبار الحركة الصهيونية فى أساسها هى من صميم الحضارة الغربية الحديثة ونتاجها، وعليه وبهذا المنظار نظر الصهاينة الى الفلسطينيين العرب وللعرب عامة، فالصهيونية مثلها مثل الإستعمار الغربى تقسم سكان العالم إلى أجناس عليا متفوقة ويأتى اليهود على قمتهم، وأجناس دنيا متخلفة يندرج الفلسطينيون والعرب فيهم، ويرى بعض الصهاينة أنهم ينتمون الى الجنس الأبيض الآرى المتفوق ولا ينتمون الى الجنس السامى، ولذلك فمن حقهم التمتع بمزايا الجنس الأبيض فى الإستعمار وإحتلال ما بريدون من أراضى الأجناس المتخلفة، وكان هرتزل مؤسس الصهيونية يرى أن مشروعه الصهيونى فى جوهره هو مشروع لنقل الحضارة الغربية البيضاء المتفوقة إلى الشرق، كما قارن كثير من زعماء الصهيونية مثل وايزمان وزانجويل وبن جوريون وأبا إيبان بين المستوطنين اليهود من جهة والمستوطنين البيض فى أمريكا من جهة أخرى.

وصم العرب بالتخلف:-

وفى مقابل هذا التفوق العرقى الحضارى طرح الصهاينة فكرة التخلف العربى والحضارى أيضا، وحين تحدث هرتزل عن تفوق الحضارة الغربية ممثلة فى المستعمر الصهيونى فإنه تحدث أيضا عن فلسطين باعتبارها «هذا الركن الموبوء والخالى من الشرق»، وقد عبر عن رغبته فى أن تكون الدولة الصهيونية بمثابة الخط المنيع الذى يقف ضد الهمجية الشرقية التى يمثلها العرب بطبيعة الحال والفلسطينيون.

وقد كتب وايزمان كتابا إلى ترومان يدافع فيه عن مشروعه الصهيونى مستندا الى نفس الثنائية العرقية، فأخبره عن المجتمع الصهيونى المتقدم الذى يضم العمال والفلاحين فى الأساس ومتعلمين وطبقة صناعية ماهرة تعيش على مستوى عال، ثم قارن بين هذه الصورة المشرقة والصورة الكئيبة القائمة للمجتمعات الأمية الفقيرة فى فلسطين، وبطبيعة الحال لم يحاول وايزمان أن يشرح للرئيس الأمريكى السبب الكائن وراء هذا الوضع ولا السبب الخفى وراء عدم بزوغ فجر الحضارة بعد خمسين عاما من الإستعمار البريطانى الصهيونى.

وهذه الرؤية للإنسان الفلسطيني الذى لا يستحق سوى الطرد أو الإبادة لاتزال لها إمتداداتها داخل المجتمع الإسرائيلي حتى الآن، فمثلا كتب أحد ضباط الجيش مجموعة من قصص الأطفال بطلها كلب بوليسي على درجة كبيرة من الذكاء تفوق ذكاء أى فلسطيني وجاء فى استطلاعات الرأى المنشورة فى إسرائيل أن ٧٦٪ من الإسرائيليين يؤمنون بأن العرب لم يصلوا إلى مستوى التقدم الذى وصل اليه اليهود. وجاء فى كتاب للأستاذ سيد ياسين الشخصية العربية بين المفهوم العربى والمفهوم الإسرائيلى، تحقيق عن هذا التصور الإسرائيلى للشخصية العربية الفلسطينية لخصه فى العبارات التالية «العرب لا يفهمون سوى لغة القوة، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هو الأسلوب الأمثل، وهم قوم فرديون مفككون، يميلون الى الكذب والمبالغة وخداع الذات، وهم بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى وجبناء وخونة، ومستوى ذكائهم منخفض أو على الجملة فهم أدنى من الإسرائيليين».

وهذه المعتقدات الإسرائيلية تفسر لنا تصرف رؤساء وزارات إسرائيل وقوادها سواء كانوا من حزب العمل أو حزب الليكود، فشمعون بيريز رئيس الوزراء الأسبق ورئيس حزب العمل الإسرائيلى حاليا والذى يعتبرونه من الحمائم والحائز على جائزة نوبل للسلام، هو صاحب مذبحة قانا فى لبنان فى أثناء حملته، على لبنان والتى سماها عناقيد الغضب سنة ١٩٩٦، وقتل فى هذه المذبحة مئات من الأطفال والشيوخ والنساء الذين إلتجأوا الى مبنى للأمم المتحدة هربا من الغارات الجوية الاسرائيلية، ولكن الطائرات لحقت بهم هناك ودمرت المبنى فوق رءوسهم وضربتهم وبالنابالم والقنابل العنقودية، أما باراك الذى إعتبره الكثيرون حمامة من حمائم السلام، فمذابحه ضد الفلسطينيين العزل وحصاره للمدن والقرى الفلسطينية وأمره بقصفها جوا وبحرا وبرا وقتل أطفال فلسطين بالجملة أمر معروف، وأما السفاح شارون صاحب مذابح صبرا وشاتيلا فى لبنان ومذابح دير ياسين وقبية فى فلسطين وأوامره بإعدام الاسرى المصريين بعد حرب ١٩٧٣ أشهر من أن يعرف به، وهو الآن يمارس هوايته فى سفك دماء الفلسطينيين بكل قسوة وبشاعة بعد أن أيقن بتأييد الإدارة الأمريكية الجديدة له فى إجرامه الوحشى وتزويدها له بالأسلحة الأمريكية الفتاكة والمحرمة دوليا ليجريها فى الفتك بالشعب الفلسطينى الأعزل. وهذا يثبت ترسب القيم الصهيونية العنصرية فى نفسية كل زعماء إسرائيل وقواد هذه الدولة العبرية المعتدية، ثم تغلغل هذه المفاهيم والقيم الصهيونية

بين جميع أفراد الشعب الإسرائيلى وطبقاته حتى من يدعى منهم أنه من أنصار السلام أو داعية للسلام، والسلام والأمن يعنى عند الجميع التخلص من الفلسطينيين والعرب بالقتل والإبادة لأنهم جنس من الأغيار لا يستحقون الحياة، وكما يقولون دائما عند إرتكاب جرائمهم «هكذا يريد الرب، ونحن جنوده المنفذين لمشيئته».

والأوصاف العنصرية التى يصبها الإسرائيليون على المجتمع الفلسطينى والعرب جميعا هى عبارة عن قوالب لفظية وأنماط تصورية جاهزة تطبقها أى جماعة عنصرية منتصرة على جماعات المقهورين، ومن يدرس السلوك العنصرى للجماعات يعرف أن مثل هذه الأوصاف كانت تستخدم أيضا للإشارة إلى السود سواء كانوا فى جنوب إفريقية أم فى القارة الأمريكية.

والصورة العنصرية للجماعات البشرية عند العنصرين البيض والصهاينة تجرد الضحية– وتجعل منها وحدة لا شأن لها ولا قيمة تنتمى إلى محيط بشرى أكبر (كالسود والفلسطينيين والعرب)، وعملية التجريد هذه تجعل من الضحية شيئا ثابتا لا يتغير موجود خارج الزمان ولا قيمة لوجوده، بل إن لوجوده أثرا سلبيا.

ويسقط عامل الزمان من الرؤية العنصرية الإسرائيلية للعربى فى المستقبل، فلو فرضنا جدلا أن العرب والفلسطينيون متخلفون الآن لهذه الدرجة، فهل سيبقى تخلفهم هذا ملازما لهم عبر الزمان؟.

أليس من المحتمل أن يتطوروا ويتعلموا علوم الغرب وفنونه ويأخذون بأسباب قوته ثم يرتدوا ليسحقوا هذا الجيب الصهيونى الذى زرع فى قلب بلادهم؟ فالعقل الصهيونى لا يتصور أبدا هذا التصور، ويتعامل مع العرب على أنهم قوم يعيشون خارج الزمان وسيظلون هكذا إلى الأبد، وإن كانت توجد لحظات نادرة يضطر فيها العقل الصهيونى أن يفيق من غفلته مضطرا ويواجه الكيان العربى ككيان تاريخى متميز، خصوصا عندما يواجه هذا العقل مشكلة مثل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين أو يعترف بوجود شعب فلسطينى مازال موجودا على الأرض الفلسطينية، ويرى مايوكالن الفيلسوف الأمريكى الصهيونى أن الصورة المثلى للفلسطينى فى المستقبل هى صورة اللاجىء الذى يحمل جواز سفره وغيره من الوثائق التى

تمكنه من التحرك بحرية فى العالم بحثا عن مكان مناسب يستقر فيه، «وهذه تشبه صورة اليهودى التائه فى الماضى القريب». ومفهوم هذا الفيلسوف غريب كل الغرابة، فهو يعتقد بأنه إذا تم تحديث الشخصية الفلسطينية فإنها سوف تقبل المشروع الصهيونى وترحل عن فلسطين فى سلام وسكينة، ويرى فلاسفة الصهيونية الآن أن عدم التماثل الحضارى بين إسرائيل والعرب هى من أهم أسباب العداء بينهما ويشكل أساس الصراع العربى الإسرائيلى، ويرى هؤلاء أن عملية تحديث العالم العربى سوف تستغرق مدة طويلة، قد تكون مائة عام، ولذا فإنهم يرون أنه يجب إحاطة اسرائيل بحزام من الأسلحة النووية إلى أن يتم تحديث العرب ويقبلوا بوجودها ويتم حينئذ ظهور السلام بين إسرائيل وبين جيرانها، ويتصور الصهاينة أن الشخصية العربية سوف تتلاشى بعد عملية التحديث وينحسر خطرها، وتتفتت الدول العربية إلى دويلات أثنية وعرقية ودينية مختلفة مثل دويلات درزية وسنية وشيعية ومارونية وكردية وهكذا، وهذه هى الرؤية الإستراتيجية الإسرائيلية المستقبلية للعالم العربى، وهى العمل على تقسيم المنطقة إلى دويلات صغيرة ضعيفة متناحرة، تكون إسرائيل فى وسطها بمثابة القائد والرائد والحكم، وبذلك يتم القضاء على حلم الأمة العربية فى الوحدة وتكوين دولة واحدة، وهذه السياسة الاستراتيجية هى التى حاولت إسرائيل بدء تنفيذها فى لبنان وأشعلت الحرب بين الطوائف اللبنانية لمدة ١٥ عاما، وأخيرا باء المشروع الصهيونى فى لبنان بالفشل، وتماسكت الطوائف اللبنانية من جديد، وبرزت الدولة اللبنانية الموحدة، بل إشتعلت المقاومة اللبنانية الشرسة فى الجنوب ضد الوجود الإسرائيلى والذى كان الهدف منه تكريس هذا المخطط والبدء بإنشاء دويلة فى الجنوب اللبنانى تعتمد على إسرائيل إعتمادا كليا وتكون تابعة لها، ولكن المقاومة اللبنانية أفشلت هذا المخطط وانسحب الجيش الإسرائيلى من لبنان على عجل دون تخطيط، وكانت هذه هى أول هزيمة تلحق به بعد حرب ١٩٧٣، ولكن الصهيونيون لا يزالون يحلمون بتنفيذ مثل هذا المشروع حيث تقوم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حاليا بمشورة من الكيان الصهيونى بمحاولة لتقسيم العراق إلى ثلاث دويلات هزيلة، واحدة للشيعة فى الجنوب وأخرى للاكراد فى الشمال وثالثة للسنة فى الوسط، وتفرض الدولتان حظرا للطيران العراقى فوق إثنتين من هذه المناطق- الكردية والشيعية- وتقوم بغارات جوية شبه يومية على الأهداف العراقية فيهما، كما تشجع قيام الحركات

الإنفصالية فيهما وترصد لذلك أموالا ضخمة، ورغم مضى أكثر من ١٠ سنوات على هذه الخطة فلم يتحقق منها شيء يذكر حتى الآن رغم كثرة ما أنفقوه من جهد ومال لتنفيذها، ويعتبر العراق ثانى أكبر الدول العربية، وتجربة تفكيكه هذا سوف تكون كالقالب الذى يمكن تطبيقه فى المستقبل على أى دولة عربية أخرى، وبذلك يتحقق الأمان الذى ينشده الكيان الصهيونى.

لذلك إصطدم التفاؤل الصهيونى بالفشل فى تنفيذ هذا المخطط حتى الان سواء أكانت محاولة تنفيذه تجرى فى لبنان أو العراق أو السودان، لذلك إنفجرت العدوانية الهستيرية الصهيونية بسبب هذا الفشل الذى أصاب مخططها ولو بصفة مؤقتة، وخلعت الدولة العبرية عنها قناع السلام المزيف الذى طالما خدعت به العرب لفترة طويلة، ولجأت إلى إستعمال الأسلحة الأمريكية الفتاكة فى ضرب الشعب الفلسطينى بعنف وضراوة، وأستخدمت سلاح الإغتيال لاغتيال رموز وقواد حركات المقاومة الفلسطينية، آملة بث الخوف والرعب فى باقى الدول العربية المجاورة وحملها على طأطأة رءوسها أمام العربدة الصهيونية، ومن ذلك ما تفوه به بعض وزراء شارون من تهديد بضرب السد العالى بالقنابل النووية، وتهجم وقح على مصر وقادتها.

التعامل مع الشعب الفلسطيني ينبع من نظرية الإمتياز الإسرائيلي:

إن نظرية إمتياز الشعب الإسرائيلى وسموه على باقى شعوب العالم (الأغيار) ينبعث من الأساطير الدينية الإسرائيلية التى تصف دائما اليهود بأنهم شعب الله المختار الذى من أجله خلق الرب العالم وسخر البشر كلهم لخدمتهم، أما الفلسطينيون خاصة والعرب عامة فهم من طبقة الأغيار الدنيا غير المتحضرة والتى لا يجب أن يكون لها حق فى الوجود، لذلك كانت علاقة اليهود بهؤلاء الأغيار المتخلفين علاقة عداء دائم لأنهم فى نظر اليهود ذئاب قتلة وهم أعداء اليهود الأزليين، وحسب هذه المفاهيم فإنه لا يجب التعامل مع الفلسطينيين خاصة والعرب عامة إلا بالسلاح والقوة، وهى اللغة التى يفهمها هؤلاء الأغيار ويرضخون لها، ولا يصح أبدا التحاور مع العرب إلا ليسلم هؤلاء بما يمليه عليهم اليهود دون نقض أو إبرام.

وهذا التصور اليهودى للعرب قديم قدم وعد بلفور الذى يشير إلى العرب من سكان إسرائيل بأنهم الجماعات غير اليهودية رغم أنهم كانوا يشكلون وقتئذ نحو ٩٣٪ من سكان فلسطين، وذلك دون أن يحدد هذه الجماعات أو يذكر إسمها، حتى تظل على مستوى عال من التجريد، وعليه يسهل إتخاذ قرار بحرمانها من حقوقها أو حتى إبادتها.

وقد أفتى كبار الحاخامات اليهود بشرعية إبادة العرب، فمن كلمات الحاخام إبراهام أفيدون حاخام القيادة المركزية للجيش الإسرائيلى للجنود أنه «مصرح لكم بل من واجبكم طبقا للشريعة اليهودية أن تقتلوا المدنيين من الأغيار حتى لو كانوا خيرين»، ثم إقتبس من التلمود هذه الكلمات «ينبغى عليك أن تقتل أفضل الأغيار»، وما مناداة الحاخام الأكبر عوفاديايوسف فى هذه الأيام «بإبادة العرب حتى ولو إستخدمت القنابل النووية لأنهم لئام لا يستحقون إلا الإبادة لأن الرب قد ندم لما خلق العرب». لأكبر دليل على هذه النزعة العنصرية المستمدة من أساطير التلمود وغيره من كتبهم الدينية.

وتبعا لهذه المفاهيم الإسرائيلية فإن العربى الفلسطينى لا ينبغى أن يكون له وجود ولا حق له فى مال أو عقار فوق أرض فلسطين، لذلك فاللاجئون الفلسطينيون شأن لا وجود له ولا يهم إسرائيل فى قليل أو كثير، لأن وجودهم فى أرض الميعاد قبل ذلك كان وجودا غير شرعى إنتهى بطردهم منها، بعكس العلاقة القائمة بين اليهود وفلسطين التى تسمى «ممارتس يسرائيل» فى الأدبيات الصهيونية، فهى علاقة صوفية مقدسة وتعتبر من الأسرار الدينية، وإنطلاقا من هذه النظرة الصوفية، أمكن لليهود أن يروجوا مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وروج الصهاينة لهذه المقولة على أوسع نطاق، حتى أن بعض زعماء الصهيونية الذين لم تطأ أقدامهم أرض فلسطين صدقوا ما كان يقال لهم إلى أن ذهبوا إلى فلسطين ووجدوا أن عمليات الذبح والإرهاب كانت قائمة على قدم وساق، ولذلك يمكننا القول بأن العربى الغائب هو حلم من الأحلام الصهيونية، ومعناه سياسيا انه العربى الذى يجب أن يغيب، ومن هذا السياق نستطيع أن نفهم عملية طرد العرب على نطاق واسع من الأراضى الفلسطينية، كذلك يمكن فهم مبررات المذابح المتكررة ضد الفلسطينيين فى كل مكان فى الأرض الفلسطينية، وحتى فى خارج فلسطين مثل مذبحة صبرا وشاتيلا فى بيروت، لأن

مجرد وجود الفلسطينيين فى أى مكان هو دليل على أن الصهيونية تستند إلى أكذوبة، الأمر الذى يفقدها شرعيتها، ولهذا لاحظنا فى مفاوضات السلام المزعومة بين باراك والفلسطينيين تنكر باراك الشديد لوجود اللاجئين الفلسطينيين وعدم موافقته على عودتهم أبدا أو حتى دفع تعويضات إليهم.

وفى النهاية يمكننا أن نقول بأن الرؤية الصهيونية للعرب بأبعادها الثلاثة:- العربى المتخلف، والعربى الممثل للأغيار، والعربى الغائب تترجم عند الإسرائيليين إلى واقع سياسى تسانده مؤسسات وقوانين صهيونية راسخة مثل قانون العودة الذى يمكن اليهود وحدهم من الإستيطان فى فلسطين، ويحجب هذا الحق عن العرب، والصندوق القومى اليهودى الذى يسهل لليهود الإستيلاء على الأراضى العربية الزراعية ويجعل من المستحيل على الفلسطينيين حتى مجرد العمل فيها، ولذلك فإنه من الوهم تصور أن الإسرائيليين سوف يتنازلون عن أطماعهم فى الأرض بمجرد التفاوض والحوار معهم، وهاهى محادثات السلام التى بدأت فى أسلو واستمرت عشر سنوات كاملة يسقطها الإسرائيليون كلها مرة واحدة، ويبدأون جولة جديدة من الإعتداءات الإجرامية على الشعب الفلسطينى الأعزل باستخدام كل ما فى الترسانة الأمريكية من سلاح، ويعلم الجميع الآن أن محادثات السلام هذه كانت خدعة صهيونية توفر للإسرائيليين الوقت اللازم لإبتلاع أراضى الضفة وغزة والقدس الشريف وبناء المستعمرات فوقها ونقل مئات الآلاف من المستوطنين اليهود إليها، بما يؤدى إلى تغيير الواقع السكانى على الأرض، ثم يكملوا هذه الجريمة بجريمة أبشع هى القتل والإرهاب وقصف المدن والقرى ومحاصراتها وقتل الأطفال والنساء بالجملة وإبادة الزعماء الفلسطينيين بالإغتيال، وقتل رجال الشرطة والأمن الفلسطينيين، لدفع الجميع فى النهاية الى التيه خارج أرض فلسطين ثم هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل مكانه.

والشعب العربى الفلسطينى يعى هذه الأمور جميعا منذ البداية، لذلك كانت هناك مقاومة شعبية ضد نظريات التفاوض والسلام الإستراتيجى وسلام الشجعان وغير ذلك من المقولات التى أثبتت الأيام زيفها.

الفصل الرابع عشر

رأي الكنيسة المسيحية المصرية في ميثاق إبراهيم مع الرب الذريعة التى إتخذت لإقامة الدولة الصهيونية وإسرائيل في العقيدة المسيحية البروتستانتينية

الفصل الرابع عشر

رأي الكنيسة المسيحية المصرية في ميثاق إبراهيم مع الرب الذريعة التي أتخذت لإقامة الدولة الصهيونية وإسرائيل في العقيدة المسيحية البروتستانتينية

من المهم جدا أن نسمع لرأى الكنيسة المسيحية المصرية فى تفسيرها لنص من نصوص العهد القديم والذى إتخذ ذريعة لاغتصاب أرض فلسطين، وإقامة دولة إسرائيل عليها، ولقد جاء هذا التفسير للنص المذكور فى ثنايا مقال للقس المصرى دكتور مكرم نجيب نشر فى جريدة الأهرام المصرية فى شهر مارس سنة ٢٠٠١، وعنوانه «فلسطين بين النبوات القديمة والأساطير الإسرائيلية المعاصرة». وأورد هنا أهم ما ذكره الكاتب فى هذا الشأن:-

ولد جيلنا مع ميلاد الكيان الإسرائيلى، وتفتحت مشاعرنا وعشنا عمرنا كله حول القضية الفلسطينية حروبا ومعاناة وتداعيات حتى الآن، وكلما تطالعنا الصحف ووكالات الأنباء بسياسات القمع الإسرائيلى فى الأرض المحتلة، وجولات المفاوضات والضغوط والتصلف، عدت بذاكرتى إلى مسار هذا الشعب فى القديم، إلى تقاليدهم وتلمودهم وانغلاقهم ثم الى الحركة الصهيونية الحديثة وإسرائيلياتاهم وأساطيرهم، وكيف حاولوا ويحاولون إعلاميا وسياسيا أن يحركوا أفكارا دينية قديمة لبعض الفرق، وأن يعودوا إلى مزاعم العبرانيين القدماء التى إحتكرت الله تعالى لشعبهم المختار، وتوهموه حبيس جدران جنسهم وسلالتهم، وأنهم هم وحدهم مستودع يهوه وأن مجرى الحضارة والتاريخ يدور حول حياتهم ومصيرهم، فأغلقوا قلوبهم وعقولهم عن الدلالات الإيمانية لكلام الله، وفصلوا بين النصوص وبين اطارها الزمانى والمكانى، وسخروا النبوات المقدسة لخدمة أغراضهم السياسية وأطماعهم التوسعية.

ومن النصوص الأساسية فى العهد القديم التى ترددها أبواق الصهيونية ومن معها من فرق وجماعات غربية النص الذى نسميه الميثاق الإبراهيمى نسبة الى العهد الذى أقامه الله

مع أبينا إبراهيم عندما دعاه من أور في جنوب العراق ليذهب إلى أرض كنعان والذى نجده فى سفر «التكوين ١٢ :، ٧»، ثم يتكرر عدة مرات فى نفس السفر وخاصة فى «الإصحاحات ١٥ ، ١٧ ، ٢٢»، وملخص هذا الميثاق أنه يشير إلى ثلاثة أمور:- الشعب أو نسل إبراهيم الذى يكون أمة عظيمة كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطىء البحر والأرض أرض الميعاد وخاصة العبارة التى وردت فى «تكوين ١٥ ، ١٨» لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات، وأخبره أن يكونوا بركة لجميع شعوب الأرض ونحن نعلم أن الله تعالى عندما يتكلم عن سلطانه وإرادته الصالحة للبشر يعلن ذلك من خلال كلامه على فم أنبيائه ومن خلال أعماله فى التاريخ الإنسانى لتحقيق كلامه ومقاصده، كما أن معظم النبوات القديمة التى تحدث بها الله والتى أرسلها على فم أنبيائه من العهد القديم كانت تخاطب الشعب القديم فى ظروف تاريخية معينة لتواجه حاجاتهم وأزماتهم فى هذه الظروف، وبالتالى لابد أن نبحث عن تحقيق هذه النبوات فى الإطار التاريخى لذلك الشعب قبل أن نقفز فوق النصوص والتاريخ والشعب العبرانى القديم نفسه ونربط النبوات بإسرائيل الحديثة ويعود اليهود الى أرض الميعاد الآن.

وإذا عدنا على هذا الأساس إلى الميثاق الإبراهيمى ووعود الشعب والأرض والبركة، فسوف نترك إلى حين الشعب ونركز على وعد الأرض لنرى فى بساطة ووضوح أن تاريخ العهد القديم نفسه قد حسم الأرض فى أكثر من مرحلة من مراحل هذا الشعب وهو يشير إلى الميثاق الإبراهيمى وإلى تحقيقه كاملا.

وسوف نكتفى فى هذه المراحل التاريخية بثلاث:-

الأولى فى يشوع الرجل الثانى بعد موسى النبى والذى قاد الشعب إلى امتلاك الأرض، فيقول تحديدا فى «يشوع ٢١ ، ٤٣ ، ٤٥» **(فأعطى الرب لإسرائيل جميع الأرض التى تكلم لآبائهم فامتلكوها وسكنوا بها ولم تسقط كلمة من جميع الكلام الصالح الذى كلم به الرب بيت إسرائيل، بل الكل صار.**

والمرحلة الثانية فى أيام الملك سليمان بن داوود وهى فترة من فترات إزدهار المملكة القديمة، ونقرأ فى سفر «الملوك الأول ٤ و ٢١».

(وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر، كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون كل أيام حياته).

والمرحلة الثالثة والأخيرة هى مرحلة ما بعد السبى البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد، وسماح قورش الفارسى للشعب اليهودى بالعودة على أفواج، وبالفعل عاد منهم من عاد وبنو الهيكل وللمرة الأخيرة تتحقق النبوءة ونجد الكلمات القاطعات فى سفر «نحميا ٩ ، ٧ ، ٨»:-

(أنت هو الرب الإله الذى إخترت أبرام وأخرجته من أور الكلدانيين، وجعلت إسمه إبراهيم، ووجدت قلبه أمينا أمامك، وقطعت من العهد أن تعطيه أرض الكلدانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين واليبوسيين والجرجاشيين وتعطيها لنسله وقد أنجزت وعدك الآن لأنك صادق). وهكذا إنتهت قضية النبوءة والأرض تماما.

أما قضية الشعب فبعد أيام سليمان إنقسمت المملكة إلى مملكتين، المملكة الشمالية وكانت تشمل غالبية أسباط بنى إسرائيل، وهذه تشتت وإنتهت بالسبى الأشورى فى عام ٧٢٢ ق. م.

والمملكة الجنوبية والتى أنتهت الى السبى البابلى فى عام ٥٨٦ ق. م، ثم بدأ قورش كما ذكرنا يسمح لهم بالعودة على أفواج أيام الإمبراطورية الفارسية، والتى أعادت بناء الهيكل فى عام ٥١٦ ق.م، وإستمرت بعد ذلك أيام اليونان عام ٣٢٠ ق. م وأيام السلوسيدين فى عام ١٧٤ ق.م، ثم الثورة المكابية حتى حكم الرومان إلى أن تم تدمير الهيكل تماما فى عام ٧٠ ميلادية بعد ثورة اليهود الأولى ضد روما، وبعدها بقليل قامت ثورة فاشلة أخرى كانت الضربة القاضية لهم وإنتهى تاريخ الشعب اليهودى إلى الشتات النهائى.

أما العهد الجديد فقد عاد الى الدلالة الإيمانية الكاملة للميثاق الإبراهيم، وهى التطبيق الروحى الذى يشمل كل البشر وكل من يدخل فى علاقة صحيحة مع الله ومع الآخرين، فيربط بين الدين والحياة فى أمانة ورحمة وعدل وطاعة من القلب، ولهذا يقول لهم السيد المسيح فى يوحنا (٨ و ٩ ، ٤٤) «لو كنتم أبناء إبراهيم لكنتم تعملون بأعمال إبراهيم، أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعطوا». ثم يأتى الرسول بولس ويعلن عن مساواة

البشر الكاملة أمام الله فيقول:- «ليس يهودى ولا يونانى، ليس عبد ولآخر، ليس ذكر ولا أنثى، إنكم جميعا واحد فى يسوع المسيح». ويضيف:- «لأنه لا فرق بين اليهودى واليونانى لأن ربا واحدا للجميع غنيا لجميع الذين يدعون به» (غلاطية ٣: ٢٨، ردمية ١٠ و ١٢).

من كل ما سبق يتضح أن دولة إسرائيل الآن والتى سبق قيامها ضغوط على تقسيم فلسطين الى دولتين يهودية وعربية عام ١٩٤٧، وقيام الكيان الإسرائيلى عام ١٩٤٨ بإعتراف فورى أمريكى سوفيتى، أقول أن دولة إسرائيل الآن لا علاقة لها على ضوء الدراسة التايخية اللاهوتية السابقة من قريب أو بعيد بالنبوءات القديمة والتى تحققت فعلا فى إطارها الزمنى فى العهد القديم، واكتملت دلالتها الروحية فى العهد الجديد، وأن كل ما يقال عن عودة اليهود الآن وربط ذلك بهذه النبوءات ثم بمجيىء المسيح ثانيا وإقامة الهيكل ومعركة هرمجدون ونهاية العالم الى آخره هو فكر قديم لبعض الفرق لا يتفق مع لاهوتنا الكتابى ولا مع عقائد الكنائس المسيحية الرسمية فى كل بلاد العالم، ولكن الأبواق الصهيونية العالمية تحاول دائما إحياء هذا التيار لخدمة أغراضها السياسية وهى مأساة كل التاريخ القديم، والحديث عندما يستغل الدين ويستخدم لصالح الأهواء والسياسات بدلا من أن يكون كما أراده الله نورا وتوجيها للبشر وللسياسات. وعليه يجب أن نتعامل مع إسرائيل كدولة وكواقع لها أن تعيش فى حدودها وأن تترك الأرض لأصحابها، وأن المفاوض الفلسطينى والعربى يستمر فى صبر ومثابرة مستندا الى الخبرة المصرية والى التيقن الكامل بأن العدالة لن تموت وقديما قالها السيد المسيح «إن يسكت هؤلاء فالحجارة تصرخ».

إسرائيل في المسيحية البروتستانتينية أو المسيحية اليهودية الأمريكية

سوف نحاول تفسير الإنحياز الأمريكى الدائم لإسرائيل والتأييد المطلق لها من كافة الجماعات والأحزاب الأمريكية فضلا عن الرؤساء ورجال السياسة ومراكز صناعة القرار، وهذا الإنحياز ليس له دوافع إستراتيجية كما يعتقد معظم المثقفون العرب، إذ يفسر الكثيرون من رجالات السياسة العرب أن سبب التهافت الأمريكى على تأييد جميع المواقف الإسرائيلية حتى ولو كانت عدوانية هو إعتبار إسرائيل بمثابة قاعدة عسكرية قوية تستطيع أمريكا أن تحمى بها منابع البترول العربية وتضمن إستمرار تدفقها، فكل من يحاول تعطيل هذا التدفق

يعمل كل حساب لقوة إسرائيل التي يعتبرها الأمريكيون ككلب حراسة يحرس مصالحهم في المنطقة، كذلك فسروا أن إحتضان أمريكا لهذه الدولة هو تدعيم لقوة عسكرية ضاربة تستطيع ردع الحركات الثورية في البلاد العربية في أي وقت ودرء خطرها عن المصالح الأمريكية، ولكن هذا التفسير الإستراتيجي للإنحياز الأمريكي لم يعد كافيا خصوصا بعد أن أصبح الوجود العسكري الأمريكي وجودا مباشرا بالقرب من آبار البترول في السعودية والكويت والبحرين وقطر بعد إنتهاء الحرب العراقية الكويتية، كل هذه الأمور واردة وقد يكون لها ما يبررها في وقت ما وحتى الآن، ولكن بعض الدراسات الهامة عن المجتمع الأمريكي أرجعت هذا الانحياز في الأصل الى أصول ثقافية لاهوتية.

ويقول الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر في ذلك «علاقة أمريكا بإسرائيل علاقة فريدة لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكي» وعن هذا الموضوع قام الكاتب المصري الاستاذ رضا هلال بتأليف كتاب عنوانه «المسيح اليهودي» توسع فيه في شرح هذه النظرية الإنحيازية الأمريكية الدائمة لإسرائيل على أساس ديني كنسي.

وفيه يقول إن حركة الإصلاح الديني البروتستانتنية في القرن السادس عشر الميلادي قد أدت الى «تهويد المسيحية»، وحمل المسيحيون من المهاجرين الأوائل إلى القارة الأمريكية مسيحية متهودة، وعندما استوطنوا أمريكا في القرن السابع عشر اعتبروها «إسرائيل الجديدة»، وكان يصلون باللغة العبرية ويطلقون على أبنائهم أسماءاً من قصص التوراة، وكان أول كتاب طبعوه هناك هو مزامير داوود.

وبحلول القرن الثامن عشر أصبح الإعتقاد بالبعث اليهودي في فلسطين يشكل جانبا مهما من اللاهوت البروتستانتي الأمريكي، واحتلت عقيدة (الألفية الميلية) أي عودة المسيح ليحكم العالم من صهيون في الألف عام السعيدة مكانا بارزا في الضمير الأمريكي، وفي أربعينيات القرن التاسع عشر (الصحوة الدينية) أطلقت المسيحية اليهودية الأمريكية حركة صهيونية مسيحية سبقت الصهيونية اليهودية التي إنطلقت في مؤتمر بازل ١٨٩٧، وكانت تلك المسيحية الصهيونية الأمريكية سباقة الى الإستيطان في فلسطين منذ منتصف القرن التاسع

عشر، وكان على رأس تلك الحركة المبشر البروتستانتى وليام بلاكستون الذى قدم عريضة الى الرئيس الأمريكى هاريسون طالبا تدخل أمريكا لإعادة اليهود إلى فلسطين، بل إن بلاكستون هذا قد إتخذ موقفا متشددا من هرتزل عندما عرض الأخير إقامة وطن قومى لليهود فى قبرص أو أوغندا، وأرسل له نسخة من التوراة علم فيها على صفحات منها مشيرا الى فقرات تحبذ إتخاذ فلسطين وطنا لليهود أو شعب الله المختار.

ومن هذا يتضح أن الإتجاه الصهيونى للأمريكيين يسرى فى لاهوت وثقافة أمريكا، واتضح ذلك أيضا عندما أظهر الجمهور الأمريكى حماسا بالغا عندما ظهر وعد بلفور وعند الإنتداب البريطانى على فلسطين، ثم إشتدت هذه الحماسة عند قيام دولة إسرائيل ومطالبة الأمريكيين بحماية حدود إسرائيل وتوفير الأمن الدائم لها، وضمان تفوقها العسكرى على جميع شعوب المنطقة، وهذا ما انعكس على السياسة الأمريكية حتى قبل وجود اللوبى اليهودى بعقود، وهذا يفسر أيضا صهيونية كثير من أعضاء الكونجرس الأمريكى فى ولايات ليس للصوت اليهودى فيها أثرا يذكر، كولايات الجنوب والغرب الأوسط، فإسرائيل عند الأمريكيين هى وطن الأجداد الذين تقص قصصهم التوراة والتى ألهمت الرواد الأوائل إلى إستيطان أمريكا، كما أن إستيطان إسرائيل الحديثة يشابه التجربة الأمريكية، وإسرائيل بزعمهم تشابه أمريكا فى الحرية والديموقراطية والأخلاق، ولهذا بزعمهم إعتبروا أن إسرائيل هى صورة من أمريكا.

ويمكن تفسير إنحياز الشعب البريطانى البروتستانتى وحكامه الى إسرائيل بنفس التفسير، وبريطانيا هى التى جمعت اليهود من كل مكان ووطنتهم فى فلسطين، وساعدتهم على التفوق العسكرى على سكان البلاد وطردهم من ديارهم، وحتى الآن مايزال الإنحياز البريطانى لإسرائيل شديدا، فجمعية أصدقاء إسرائيل البريطانية تضم فى عضويتها عددا كبيرا من أعضاء مجلس العموم ومجلس اللوردات على إختلاف إنتماءاتهم الحزبية، ويكفى دليلا على ذلك مفاخرة تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا الحالى على أنه عضو فى تلك الجمعية، وقد لعب الدهاء البريطانى دورا كبيرا فى صياغة قرارات مجلس الأمن التى تحتمل أكثر من تأويل بعد كل إعتداء إسرائيلى على الدول العربية أو فلسطين، وكان لبريطانيا دور

كبير فى تسليم أراضى الأوقاف الإسلامية فى فلسطين الى العصابات الصهيونية فى فلسطين لبناء المستوطنات عليها قبل قيام دولة إسرائيل، ودور أكبر فى الحملات الدولية لجمع التبرعات لإسرائيل، ولأجهزة الإعلام البريطانية الحكومية والأهلية باع طويل فى نشر الدعاية لإسرائيل وتبنى مواقفها ضد العرب.

الفصل الخامس عشر

القدس - القلب النابض للعرب والمسلمين والصراع العربي والدولي للمحافظة على هويتها العربية

الفصل الخامس عشر

القدس- القلب النابض للعرب والمسلمين والصراع العربي والدولي للمحافظة علي هويتها العربية

القدس – بيت المقدس قلب الإسلام النابض، والمظهر الدائم لعز الأمة العربية، إذا ذل العرب ذلت القدس، وإذا إرتفع شأنهم إرتفع شأنها، هكذا كان الحال منذ أن دخلتها جيوش الفتح الإسلامى فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولم يرض بطريرك القدس– الأنبا سفرونيوس– أن يسلم مفاتيح المدينة إلا للخليفة عمر نفسه، فحضر عمر من المدينة وتسلم المفاتيح من البطريك بعدما أعطى لأهلها الأمان والحماية فى كنف المسلمين، متمتعين بعدل المسلمين بعد أن زال عنهم كابوس الإحتلال البيزنطى، وكتب عمر رضى الله عنه فى كنيسة القيامة العهدة العمرية المشهورة التى أعطت لسكان المدينة حرياتهم كاملة، حرية العبادة فى الكنائس والصوامع وتعهد الدولة بصيانة جميع دور العبادة فى المدينة، وحفظ كرامة أهلها وإشاعة العدل والطمأنينة بينهم كما تعهدت العهدة العمرية بالدفاع عن المدينة ضد الأعداء وعدم السماح بإقامة اليهود فيها كما طالب البطريك بذلك، وعند ماحضرت الصلاة وأمير المؤمنين جالس فى كنيسة القيامة مع البطريك، إستأذن أمير المؤمنين البطريك فى الخروج للصلاة خارج الكنيسة، ولما سأله البطريك لماذا لا تصلى هنا داخل الكنيسة ؟ أجاب عمر بأنه يخشى أن يأتى الناس من بعده ويقولون هنا صلى عمر وينتزعون الكنيسة من أيدى النصارى ويحولونها إلى مسجد، فانظر إلى عدل أمير المؤمنين عمر وبعد نظره وعدله ورحمته وهو على رأس الجيش الفاتح.

وعاشت بيت المقدس طوال عهود الإسلام وهى محترمة مبجلة مقدسة، فهى مسرى النبى محمد صلى الله عليه وسلم، والتى صلى فيها إماما لجميع الرسل وعلى أرضها المباركة التى باركها الله فى القرآن الكريم وكانت القبلة الأولى للمسلمين قبل تحويل القبلة الى المسجد

الحرام بمكة، وساهم جميع خلفاء المسلمين وحكامهم بعد ذلك فى تعمير المدينة وحرصوا على رخائها وسعادة سكانها من مسلمين ومسيحيين دون تفرقة.

ولما إختلفت الطوائف المسيحية فى عهد من العهود على أحقية أى منهم فى سدانة كنيسة القيامة وحمل مفاتحها وخدمتها وتيسير إقامة الصلوات فيها، إتفقوا على إعطاء هذا الحق لأفراد أسرة مسلمة، ومازالت هذه الأسرة المسلمة تحتفظ بهذا الحق إلى اليوم.

ولم تتعرض المدينة أبدا للنكبات والكوارث إلا فى الفترات التى أغتصبت فيها من أيدى المسلمين فى أيام الغزو الصليبى لفلسطين، وفى الغزوة الصهيونية الحالية.

ويعكس ما يكتبه المفكرون والعلماء والكتاب عن القدس اليوم مدى القلق الذى يشعر به عدد كبير من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية على مصير المدينة، وخوفهم من طمس الإسرائيليين لهويتها العربية وتهويدها، ونعرض هنا لما صدر من كتابات بهذا الخصوص فى المجال العالمى، ونبدأها بملخص لكتاب صدر فى باريس باللغة الفرنسية عن القدس، اشترك فى تأليفه عدد كبير من الكتاب والساسة وعنوان هذا الكتاب الذى صدر فى عام ٢٠٠١ وباللغة الفرنسية هو J´ERUSALEM LE SACRE ET LE POLOTLQUE

١ - «القدس، بين القداسة والسياسة»

وقام بترجمته وتلخيصه د. أحمد يوسف، ونشر حلقة منه فى جريدة الأهرام القاهرية فى باب كتاب جديد، وجاء فى هذه الحلقة ما يلى:-

فى ترجمة الأحداث المتسارعة فى الشرق الأوسط وفى لهيب النار المستعرة حول الأماكن المقدسة، عاد موضوع مدينة القدس إلى واجهة الأحداث السياسية بعد أن كان هو العقبة الأولى التى أودت بالمفاوضات بين العرب وإسرائيل، وإذا كانت المدن فى الشرق الأوسط تصنع التاريخ على مر العصور، فإن مدينة القدس صنعتها أساطير التاريخ وحكايات الماضى ومعجزات الأنبياء وأنهار الدم التى خضبت المدينة بفعل الفتوحات والغزوات وجعلت منها أرضا مقدسة لعقائد مختلفة وأديان سماوية ورهبان ونساك من كل حدب وصوب.

وكتاب القدس بين السياسة والقداسة يعالج كل هذه الجوانب السابقة وهو وإن كان عنوانه الحقيقى بالفرنسية «القدس، المقدس والسياسة»، فإن معنى القداسة فى عمق الفلسفة الدينية هو المقصود فى هذا الكتاب، وأن السياسة بمعناها العملى ووجهها الدبلوماسي وشكلها العسكرى هى المعروضة على صفحات هذا الكتاب المثير، والكتاب موقع بثلاثة عشر إمضاء لثلاثة عشر كاتبا ومفكرا وسياسيا وعالم إجتماع عربا وفرنسيين، وجميع أعمالها جمعها ورتبها الكاتب السورى الكبير فاروق مردم بك مدير نشر دار «أكت سيد» التى نشرت الكتاب بالتعاون مع مجلس السفراء العرب بباريس والسياسى صنبر رئيس تحرير مجلة «دراسات فلسطينية» التى تصدر فى باريس.

والفصل الأول من الكتاب بقلم الشاعر اللبنانى دكتور صلاح ستيتة، وعنوان الفصل يوحى بما يحمله من معان عميقة قد نسيها الناس فى زحمة لغة السياسة وفى تسارع الأحداث والسباق نحو تحليلها، فالعنوان هو «القدس بين الحلم والعشية» ويدخل صلاح ستيتة مباشرة إلى لغة القرآن الكريم والقدس، وكيف أن مكة المكرمة يقابلها القدس الشريف، فالمكرمة هنا والشرف هناك، صفات روحية إسلامية بحتة تحمل من الشعر ما يرق له قلب المسلم فور سماع إسم هذه المدينة أو تلك، ويقول الشاعر إن الإسلام إستطاع أن يحتوى المدينة الكبيرة بتراثها الحضارى الضخم وتراثها الإبراهيمى نسبة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو ما يعنى أنها مدينة لكل الأديان السماوية.

إلا أن الإسلام وقد دخل المدينة فاتحا مرتين الاولى عام ٦٣٦ م فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، والثانى فى عهد صلاح الدين الأيوبى عام ١١٨٧م وبين هذين التاريخين تحقق حلم الإسلام، وأصبحت مدينة الإسراء والمعراج مدينة مقدسة، بمعنى أنها تحمل فى شوارعها وحواريها وفى أبنيتها روح دين سماوى يعترف بمريم وعيسى عليهما السلام، وبموسى عليه السلام، ويرى صلاح ستيته أن الإسلام والمسلم لا يصح أن يكون مسلما إلا إذا آمن بعيسى وموسى والأنبياء جميعا، وكلهم رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إسرائه ومعراجه.

أصبحت القدس بدءاً من هذه اللحظة مدينة السلام وقبلته الأولى ولها موقع القلب فى قلب كل مسلم على وجه الأرض.

٢ - جغرافي مسلم ومدينته في عام ١٠٠٠:-

وهذا عنوان لكتاب من تأليف المستشرق الفرنسى أندريه ميكيل عن أبا الجغرافيين العرب المقدسى، وهو الرحالة العربى الذى أعطى عن المدينة أول معالم وتضاريس فى كتاب.

ويقول إن المقدسى صنف المدينة كإحدى أهم المدن فى الشرق فى العصور الوسطى مثلها مثل القاهرة والإسكندرية ودمشق وبغداد.

وبعد الشعر والجغرافيا يبدأ الكتاب فصوله بمقال عن القدس والأماكن المقدسة فى التاريخ بقلم الأب يواكيم مبارك أحد أشهر المتخصصين فى تاريخ القدس وتلميذ العلامة المستشرق الكبير لويس ماسينيون. ويستعرض يواكيم مبارك تاريخ القدس فى العصور السحيقة ويقول ان أورشليم كلمة عربية حيث أن أصل كلمة شالم هو سالم بالعربية أى مدينة السلام وأن المصريين القدماء هم أول من سجل نصا كتابيا عن المدينة فى التاريخ وذلك فى نقوش جداريات تل العمارنة التى تعود الى عام ١٢٧٠ ق.م، والتى يطلب فيها حاكم المدينة من الفرعون إخناتون الحماية والمساعدة.

ويقول إن المصريين القدماء إهتموا بالمدينة، وكان أهم هؤلاء الفرعون أنخاو الذى هزم يوشع ملك القدس فى معركة مجدوا الخالدة عام ٦٠٨ ق. م. ويقول يواكيم مبارك أنه بعد زمن السبى البابلى لم يعد لليهود أى أثر بالمدينة وأنه كان على اليهود الإنتظار لحين مجيىء حكام مصريين الذين سيسمحون له بالإقامة والعيش فى المدينة باسم سماحة الإسلام خصوصا صلاح الدين الأيوبى والسلطان قايتباى، وحول الكوارث التى جلبتها المسيحية السياسية وليست الروحية يقول يواكيم إن كارثة إجتياح القدس فى ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ م من قبل الحملة الصليبية الأولى، وطرد الفاطميين المصريين منها كانت كارثة كبرى حيث أن الصليبيين أعملوا القتل والفتك بكل سكان المدينة إلى حد أن السائر فى الطريق كان يخوض بقدميه فى بحار من الدم والأشلاء.

ويقول يواكيم مبارك أن الحوار الإسلامى المسيحى حول القدس قد إستبعد من طريقه الجانب اليهودى وهو ما يعنى أن المدينة ترتبط روحيا بالإسلام والمسيحية وهو ما يثير عند

اليهود الكثير من الحنق لأن هذا يناقض الجهد الكبير لفلاسفة الفقه اليهودى، وعلى وجه الخصوص موسى بن ميمون الذى كان يطالب بوضعية روحية خاصة لليهودى المتدين على المدينة فإنه كان يطالب أيضا بأن يعترف اليهود واليهودية بمكانة المدينة فى الإسلام.

٣ - كتاب إسرائيلي أسود حول القدس

فى مقال للدكتور أحمد يوسف القرعى عن القدس فى جريدة الأهرام المصرية جعل عنوانه العنوان المذكور، وبدأه بالقول بأن ثمة فصل آخر من فصول الكتاب الأسود الإسرائيلى بشأن القدس وهو الكتاب المقترح إعداده ونشره موثقا بالحقائق الدامغة وشهادة شهود الرأى العام العالمى بمختلف اللغات.

وفصل اليوم يعرض وقائع تغيير الطابع العربى التاريخى والحضارى والدينى للقدس لإستكمال عملية تهويد المدينة برمتها كأمر واقع، وهو المخطط الذى تحترف إسرائيل إستخدامه منذ قيامها بصفة عامة منذ إحتلالها للقدس العربية عام ١٩٤٩ والقدس الشرقية عام ١٩٦٧ بصفة خاصة، حيث بدأت ممارسات إسرائيل بهدم الأحياء والمبانى الأثرية العربية ونهب وإختلاس الممتلكات الثقافية وسرقة وثائق الأوقاف الإسلامية، وحفر الأنفاق التى تركت مؤثراتها على أساسات الحرم الشريف والمقدسات الإسلامية، وكانت الأمم المتحدة قد حذرت إسرائيل مبكرا (بقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة من مخالفة قواعد القانون الدولى الإنسانى بإعتبار إسرائيل سلطة إحتلال وطالبتها بالحفاظ على الأماكن المقدسة فى القدس وآثارها التاريخية وطابعها العربى.

ومن منطلق رسالتها الحضارية والثقافية والإنسانية بادرت منظمة اليونسكو بتأكيد ما جاء فى القرارات الدولية نظرا لما لهذه الأماكن والممتلكات والآثار من أهمية فنية وتاريخية ودينية، ووجهت اليونسكو نداء دوليا عاجلا يطالب إسرائيل بأن تحافظ بكل دقة على جميع المواقع والمبانى وسائر الممتلكات الثقافية فى القدس وأن تكف إسرائيل عن أى حفريات للتنقيب عن آثار وعن نقل ملكية هذه الممتلكات أو تغيير معالمها أو طابعها الثقافى والدينى. وفى قرارات لاحقة أكدت اليونسكو على نحو مضطرد ضرورة حماية التراث الثقافى والتاريخى والدينى للمدينة بكاملها باعتبارها جزءاً من التراث المشترك للإنسانية، وأدانت

المنظمة أيضا الحفريات التى تجريها إسرائيل تنقيبا عن الآثار وسائر إجراءاتها الرامية الى تغيير الشكل التاريخى والثقافى العام للقدس مخالفة ذلك كله لأهداف ومبادىء ودستور اليونسكو وإتفاقية ١٩٥٤ لحماية الممتلكات الثقافية فى حالة وقوع إحتلال عسكرى وهى الإتفاقية التى تحظر على سلطات الإحتلال أى شكل من أشكال السرقة أو النهب أو الإختلاس للممتلكات الثقافية أى أعمال تخريبية موجهة ضدها. واكتسبت أعمال اليونسكو فى هذا الشأن أهمية متزايدة بإيفاد ممثل شخصى للمدير العام لليونسكو إلى القدس لتقصى الحقائق وبشكل دورى وتقديم تقرير عن حالة التراث الثقافى والدينى وآثار عملية التنقيب الإسرائيلى وهدم المبانى وبناء المستوطنات على هذا التراث والإجراءات اللازمة لحفظه وتجديده.

وعندما إستشعرت اليونسكو ما سوف يجرى داخل القدس بعد إعلان الكنيست توحيد القدس عام ١٩٨٠ وإتخاذها عاصمة لإسرائيل، قامت اليونسكو بإدراج القدس الشرقية وأسوارها فى قائمة التراث العالمى عام ١٩٨١، وفى قائمة التراث العالمى المعرض للخطر عام ١٩٨٢ وذلك فى سياق إتفاقية ١٩٧٢ بشأن حماية التراث الثقافى والطبيعى فى العالم.

وبموجب هذه الإتفاقية وجهت اليونسكو منذ عام ١٩٨٧ نداء رسميا من أجل القيام بصفة خاصة بحماية التراث الإسلامى الثقافى والدينى التابع للأوقاف الاسلامية وشرعت المنظمة فى السنوات الأخيرة فى دراسة حصر الممتلكات الثقافية وتحديد أولوية مشروعات صيانتها، وشكلت مجموعات من الخبراء الدوليين بهدف متابعة حالة آثار بعينها داخل القدس إسلامية ومسيحية وتقديم توصيات من أجل المحافظة عليها وترميمها.

وبعد إنطلاق عملية التسوية السلمية فى مدريد عام ١٩٩١، واصلت اليونسكو أداء رسالتها فى صون تراث القدس فى إنتظار نتائج مفاوضات السلام وتحديد وضع المدينة مستقبلا، وفى مواجهة إجراءات إسرائيل لإقامة نفق القدس، لم تتردد اليونسكو فى إعلان خطورة هذا فى وثيقة رسمية صدرت عن المجلس التنفيذى للمنظمة مؤكدة أن ثبات أساسات الحرم الشريف مهددة بالخطر بسبب إستخدام مواد كيماوية فى حفر النفق عبر الكتلة الصخرية التى تقوم عليها تلك المبانى مما قد يهدد بصورة خطيرة إستقرارها وثباتها نظرا لما تتسم به الكتلة الصخرية من طبيعة مساوية واضحة.

وفى مواجهة تلك الإنتهاكات، لم يتردد فيدريكو مايور المدير العام السابق لليونسكو فى أن يقول كلمة حق يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٩٦ يوم إفتتاح نفق القدس، حيث أصدر بيانا قصيرا ولكنه جرىء لأنه يمثل ضمير الأسرة الدولية ويترجم رسالة اليونسكو الإنسانية فى نشر ثقافة السلام والتسامح والوئام فى العالم، حيث طالب مايور السلطات الاسرائيلية بكل حزم بإلغاء النفق الذى إفتتحته آنذاك كممر للسياح بالقرب من المسجد الأقصى المبارك والذى أدى إلى تفجير أحداث دموية فى المدينة المقدسة وباقى المدن الفلسطينية، وإلى سقوط عشرات القتلى والجرحى هناك.

وجاء فى بيان مايور إتهام واضح وصريح للسلطات الإسرائيلية المحتلة مؤكدا أن تفجر الأحداث جاء نتيجة لقرار هذه السلطات فى شق النفق، وأن هذا القرار يتنافى وتوصيات نيودلهى سنة ١٩٥٦ التى تحظر إجراء حفريات فى الأراضى المحتلة، وكانت إسرائيل نفسها قد وقعت حينها على نصوص هذه التوصيات، ودعا مايور الحكومة الإسرائيلية إلى أن تقوم بإلغاء مشروعها هذا وإغلاق النفق.

وظلت اليونسكو من ذلك الوقت تراقب عن كثب كل ما يجرى داخل المدينة المقدسة ولم نتردد فى تقصى الحقائق وإصدار القرارات القوية والفورية التى تشجب ممارسات إسرائيل وتقديم العون المادى للإسهام فى عمليات الترميم وحفظ الممتلكات الثقافية وذلك بالتعاون مع دائرة الأوقات الاسلامية والهيئات الدينية المسيحية بالمدينة المقدسة برغم مضايقة سلطات الإحتلال لها.

وإستند موقف اليونسكو المشرف تجاه القدس إلى مرجعيات أساسية فى مقدمتها مبادىء وأهداف ميثاق المنظمة وأحكام إتفاقية لاهاى سنة ١٩٥٤ من إتفاقية جنيف الرابعة نسبة ١٩٤٨، وبروتوكولاتها الإضافية وبيان وقرارات مؤتمر علماء الآثار فى نيودلهى عام ١٩٥٦ والإتفاقية الخاصة بحماية التراث الثقافى والطبيعى فى العالم سنة ١٩٧٢.

وفضلا عن إلتزام اليونسكو بمثل تلك المرجعيات ذات الصلة بنشاطها الثقافى فإن المنظمة قد إلتزمت أيضا بمبادىء السلوك الدولى التى تحظر على السلطات القائمة بالإحتلال إقتراف ما من شأنه أن يشكل تدخلا فى الحياة العادية والعامة للسكان المدنيين الخاضعين

للإحتلال، كما تحظر الإعتداء على حرية العبادة فى الأماكن المقدسة والتدخل فى هذه الحرية.

ولاشك أن ملفات اليونسكو تمثل أدلة إتهام موثقة لإنتهاكات إسرائيل فى المدينة المقدسة وفى الوقت نفسه تعد تلك الملفات شهادة دولية موثقة من قبل منظمة عالمية أدانت سلطات الإحتلال الإسرائيلى على ما إقترفته من ممارسات عدوانية تشكل فصلا من الكتاب الإسرائيلى الأسود بشأن القدس.

٤- إستهانة إسرائيل بالعرب والمسلمين الآن أكثر من أي وقت مضي:-

فى هذا الإطار كتب الأستاذ فهمى هويدى الكاتب والمفكر الإسلامى الكبير مقالا فى جريدة الأهرام المصرية، وكانت إنتفاضة الأقصى حينئذ مازالت فى بدايتها وقد إتسم هذا المقال بالموضوعية وعمق التحليل وصدق الرؤية مما يجعلنى مضطرا الى سرد أهم ما جاء فى ذلك المقال هنا، وكان عنوان هذا المقال «تحذير إلى من يهمه الأمر»، وإليك مجمل ما جاء فيه:-

مذبحة الأقصى خبر فلسطينى قديم، يجرى إستنساخه بين الحين والحين الآخر فى صحف الصباح مع تغيير طفيف لا يتجاوز إسم المكان، ١٥٠ قتيلا، ٧٥٠ جريحا حصاد ومواجهة إنتفاضة الأقصى (يبلغ هذا العدد الآن أكثر من ٨٠٠ قتيل، ١٥ ألف جريح)، لا مفاجأة، فقافلة الشهداء والجرحى تخضب أرض فلسطين بالدم منذ الثلاثينيات، شيء واحد إستجد على المشهد، هو أن وقائعه الدامية تتلاحق تحت رايات السلام وفى أجواء معزوفة ما برحت تردد أن الطرفين القاتل والقتيل أقرب إلى بعضها أكثر من أى وقت مضى (كان ذلك فى نهاية عهد الرئيس كلينتون)، كم يكون عدد الضحايا لو أنهم كانوا أبعد.

ولأن الأمر كذلك، فاحسب أن إنتفاضة الجمعة رسالة مهمة ينبغى أن تقرأ جيدا وبغير إبطاء.

أ - غضبة الجماهير حدثت بعد زيارة شارون لبيت المقدس ومعه قادة الليكود، هذا صحيح ولكنه غير دقيق، ان الانتفاضة وقعت بعد تلك الزيارة البائسة، وغير دقيق لأن

الغضب الفلسطيني متراكم في الأعماق منذ عدة عقود، ولأن الإسرائيليين لا يكفون عن إذلال الفلسطينيين والإزدراء بهم بعدما أصاب المحيط العربي من إنفراط في العقد وفتور في الهمة.

وفي عام ١٩٦٧ بعد ما هزم العرب وإحتل الإسرائيليون كامل تراب القدس إستبدت النشوة ببعض جنود المظلات فرفعوا العلم الإسرائيلي على بيت المقدس، ولكن موشيه دايان الذي كان رئيسا للأركان آنذاك أمر جنوده بإنزال العلم، وهو ما حدث بالفعل، وفي تفسير ذلك قال الذين حضروا الواقعة إن دايان أراد ألا يصدم المشاعر الإسلامية لإدراكه لمدى حساسية الموضوع بالنسبة لملايين المسلمين، ثم إن اليهود لم يكن لهم مطالب آنذاك في بيت المقدس، وهو ما تجلى في نقل السلطات الإسرائيلية صلاحيات إدارة الحرم القدسي إلى الأوقاف الإسلامية التي تحملت تلك المسئولية كاملة منذ ذلك الحين. وقتذاك ورغم الهزيمة ورغم أنهم كانوا في ذروة النصر، خشي دايان من عواقب رفع العلم الاسرائيلي فوق بيت المقدس، وهو ما تغير بالكامل بعد مرور اكثر من ثلاثة عقود، حيث لم يقتصر الإسرائيليون على دخول الحرم القدسي بأحذيتهم وسلاحهم، وإنما أيضا أصبحوا يطالبون ببناء كنيس لهم فوق أرض الحرم بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة. المسلمون والعرب الذين حرص دايان على تجنب إستفزاز مشاعرهم لا يزالون موجودين حتى الآن، بل إنهم إزدادو عددا وثراء، الأمر الذي يدعونا في محاولة تفسير تفاوت الموقفين السابق والحالي، عما إذا كانوا قد أصبحوا أقل قيمة، حيث عمل لهم دايان حسابا في مرحلة وأسقطهم باراك وشارون من حسابه في مرحلة أخرى؟

(ب) في واشنطن التقى يوسي بلين وزير العدل الإسرائيلي مع مجموعة من اليهود الذين يصنفون ضمن معسكر «أنصار السلام» وهم الذين يضمهم مركز السلام والتعاون الإقتصادي، ولم يكن لقاؤه معهم بوصفه وزيرا في الحكومة الإسرائيلية، وإنما أيضا باعتباره إحدى ركائز دعاة السلام في إسرائيل، بهاتين الصفتين تحدث الرجل الى سامعيه في أمور عدة يهمنا منها ما تعلق بقضيتي القدس واللاجئين.

فيما يخص القدس قال بيلين بوضوح ان الإسرائيليين ليسوا أمام محاكمة، ببساطة لأنهم هم القضاة، وهم الذين سيقررون مصير الملفات العالقة، وهم أيضا لا يعتبرون أن هناك شيئا

ليس قابلا للنقاش أو اللمس، وهم يلتزمون بهذا الموقف فإنهم يدركون جيدا أنهم لا يريدون السلام بأى ثمن، ويعرفون تماما أنهم لا ينبغى أن يرضوا الفلسطينيين، وحسب كلامه فإن كل شيء قابل للحل، حتى مشكلة المسجد الأقصى، لابد أن يعرف الجميع حقنا فى بناء المعبد اليهودى أو الهيكل الى جوار المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

فيما يتعلق باللاجئين قال بيلين انه ينبغى أن يكون حل قضيتهم رمزيا، ورمزيا فقط، وأن يبقى ذلك الحل فى إطار التعويض والتأهيل، وبعد أن اختصر خيارات حل مشكلة خمسة ملايين لاجيء فى هاتين الكلمتين اللتين تعنيان إعطاء اللاجئين حفنة دولارات تعويضا لهم عن الوطن الذى فقدوه والمال والعقار الذى تركوه، ثم إعدادهم للإعتماد على أنفسهم وإكتساب مورد رزق لهم فى الأقطار التى سيتم توطينهم فيها.

أضاف بيلين قائلا: إن على الفلسطينيين أن يفهموا أن عودة اللاجئين هى أكثر الخطوط الحمراء إحمرارا بالنسبة لإسرائيل وأنه ليس هناك أى خلاف فى اسرائيل حول هذا الموضوع، لا صقور ولا حمائم، ولابد لهم أن يعلموا أنه لا يمكن قيام دولة فلسطينية الا بموافقتنا، وأنه لن يكون هناك حل إلا من خلال المفتاح الذى نملكه، بهذه اللهجة المليئة بالصلف والإستكبار تكلم الرجل (الحمامة) قبل أسابيع قليلة فى واشنطن والموقف الذى عبر عنه فى اللقاء مختلف عن الموقف الذى عبر عنه قبل ٥ سنوات على الأقل طبقا لما هو ثابت فى الوثيقة التى أعدت سنة ١٩٩٥ فى شهر أكتوبر أيضا، وهى التى عرفت فيما بعد بوثيقة «بيلين أبو مازن» وتعرضت لمختلف قضايا الحل النهائى، وفيها نص يقول انه فى داخل مدينة القدس يقر الطرفان بأن الجزء الشرقى العربى منها الخاضع للسيادة الفلسطينية سيسمى القدس ويصبح عاصمة للدولة الفلسطينية، وفيما يتعلق بالمدينة القديمة فإن الوثيقة حددت ترتيبات خاصة تتعلق بسيادة الحرم الشريف تحت إدارة الأوقاف الإسلامية فى القدس، وأن إتفاقا مماثلا سوف يتم بالنسبة لكنيسة القيامة، بيلين فى وثيقة ٩٥ يتبنى موقفا مغايرا ويتحدث بلغة مغايرة عن تلك التى يتحدث بها أو يعنيها فى تصريحاته التى أعلنها فى شهر سبتمبر ٢٠٠٠، وهذا التفاوت يستدعى فى تفسيره السؤال الذى طرحناه توا، ويستصحب الإحتمال الذى أوردناه، ذلك الذى يسجل إزدراء الإسرائيليين بالعرب والمسلمين واستخفافهم بهم إلى الإستكبار وسقوط الإعتبار.

(جـ) لا يقف الأمر عند حدود الإزدراء والإستكبار فحسب، إنما تعامل الإسرائيليون مع الفلسطينيين والعرب فى موضوع القدس بالذات بدرجة عالية من الإستغفال أيضا فالقدس فى الخطاب الإسرائيلى ليست شيئا واحدا، إنما ثلاثة أشياء أو قل ثلاثة أقسام:- أولها البلدة القديمة أو الأحياء السكنية الواقعة داخل سور القدس وهى الأحياء الإسلامية والمسيحية واليهودية، أما القسم الثانى فهو بلدية القدس كما رسمتها الدولة الإسرائيلية، والثالث هو القدس الكبرى التى إبتدعها إسحاق رابين ويفترض أن تضم الى جانب بلدية القدس جميع المستعمرات التى تمت إقامتها حول المدينة المقدسة لغرض سنشير إليه توا.

بلدة القدس القديمة الواقعة داخل الأسوار مساحتها أقل من كيلو متر مربع، ومقسمة إلى أربعة أحياء، أكبرها الحى الإسلامى ٣٤٢٠٠ وحدة سكنية، ويقطنه ٣١ ألف نسمة، وفيه الحرم القدسى الشريف ومعه الحى المسيحى ٤٧٤٠ وحدة سكنية يعيش فيها ٤٦٠٠ نسمة وفيه ٤٠ ديرا، ثم الحى اليهودى ٥٤٨٠ وحدة سكنية يقطنها ٢٤٠٠ شخص، وأخيرا الحى الأرمنى ويضم ٤٧٨ وحدة سكنية وفيه ٢١٠٠ نسمة.

ومنذ إحتلال القدس سنة ١٩٦٧ وإسرائيل تحاول جاهدة توسيع رقعتها السكنية وملكيتها العقارية فى المدينة القديمة خصوصا على حساب الحى الاسلامى الذى هدمت فيه حى الشرق وحى المغاربة المجاورية للحى اليهودى وشردت سكانها الفلسطينيين، إضافة الى ذلك فهى تحتال لشراء العقارات فى الأحياء الأخرى من خلال سماسرة وشركات حقيقية أو وهمية.

وفيما يتعلق بمنطة الحرم القدسي ومساحتها ١٤١ دونما أو ١٤٠ الف متر مربع تقريبا، فإسرائيل تسيطر على البوابات وعلى المنطقة المحيطة به، وتلك الواقعة أسفله، وفى المنطقة الأخيرة تجرى منذ سنوات عمليات التنقيب للعثور على أى دليل يثبت وجود الهيكل تحت قبة الصخرة، وإزاء اليأس من ذلك فإن إسرائيل بدأت تتبنى ما توصل اليه عالم الآثار الإسرائيلى طوبيا سعنيف من أن الهيكل ليس تحت قبة الصخرة ولكنه بنى بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة، لذلك بدأت تتحدث عن سيادتها على أسفل الحرم القدسي باعتباره رمزا لجبل الهيكل وهو الاسم الذى تطلقه اسرائيل على منطقة الحرم القدسى والذى إستخدمته وزيرة

الخارجية الأمريكية السابقة فى جلسات التفاوض مع الرئيس ياسر عرفات الأمر الذى إضطر الى تنبيهها بأن إسمه الحقيقى هو المسجد الأقصى.

بلدية القدس كما رسمتها البلدية الإسرائيلية مساحتها ٧٢ كيلو مترا مربعا، وفى العهد الأردنى لم تتجاوز ٦,٥ كيلو مترا مربعا، وقد ضمت إسرائيل الى القدس بعض القرى والضواحى المحيطة بها، وعدد الفلسطينيين فى القدس الشرقية ٢٣٠ ألفا رغم أن الإحصائيات الرسمية تحصرهم فى ١٩١ ألف نسمة، أما المستوطنون الموجودون فى المستعمرات المقامة فى تلك المنطقة فعددهم ١٨٣٨٠٠ مستوطن، وتدعو الخطط الإسرائيلية إلى ضرورة السيطرة على السكان العرب بحيث لا تزيد نسبتهم على ٢٢ ٪ مع تكثيف الوجود الإسرائيلى فيها، ولكن الإحصاءات الأخيرة خيبت ظن الإسرائيليين وبينت أن نسبة الفلسطينيين فى القدس الشرقية وصلت الى ٣٥ ٪، وبسبب تزايد معدلات النمو الفلسطينى إستخرج الأبالسة حيلة جديدة أطلقوا عليها اسم القدس الكبرى.

بمقتضى الحيلة الجديدة شرعت إسرائيل فى ضم المستعمرات المحيطة بمدينة القدس التى تحولت إلى مدن كبيرة الى حدود بلدية القدس، ولأن سكان تلك المستوطنات يبلغ عددهم ٩٠ ألفا تقريبا فمن شأن ضمهم الى المدينة أن يحدثوا إنقلابا فى خريطتها السكانية، إذ فى هذه الحالة ستصبح القدس بشطريها الشرقى والغربى فضلا عن المستوطنات مدينة تتسع لـ ٦٠٠ ألف يهودى وأقلية عربية لا تتجاوز فى أحسن حالاتها ٢٥٠ ألف فلسطينى، وبذلك تحقق إسرائيل من أن اليهود كانوا منذ القرن السادس عشر يشكلون أغلبية القدس.

(د) ما الذى ينتظر من العرب الفلسطينيين حين يرون ذلك يحدث أمامهم ويرون بأعينهم مدينتهم تغتصب يوما بعد يوم، وأن مخطط الإغتصاب واصل إلى الحرم القدسى ذاته، وما هو رد الفعل المتوقع لتبنى الولايات المتحدة الأمريكية للموقف الإسرائيلى، وإستخدام مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة لاسم جبل الهيكل فى إجتراء مذهل على المسجد الأقصى الذى هو الإسم الأصلى والتاريخى.

إن فقدان الثقة فى كل ما يجرى وفى الوسيط الذى يحاول التوفيق بين الطرفين الفلسطينى والإسرائيلى هو نتيجة طبيعية لا إدعاء فيها ولا إنفعال.

لقد تم توقيع نحو ١٠ إتفاقيات بين إسرائيل والفلسطينيين منذ أوسلو ١٩٩٣، ويفترض أن تلك الإتفاقيات ما هى إلا خطوات متلاحقة على طريق (سلام الشجعان)، ولعل الكثيرين يذكرون تلك التصريحات التى كانت تصدر بعد كل إتفاق مؤكدة أن «قفزة إلى الأمام» وإنتصار دبلوماسى إلخ..، غير أن سجل الإنحياز والإنتصار توقف فى كامب ديفيد الثانية حيث إنتظر كثيرون بقلق ولأنه «أم الإتفاقات» ذلك الذى لا يقتصر على القضايا المؤقتة، إنما يشمل أيضا القضايا المستعصية والصعبة التى أرجئت إلى مفاوضات الوضع النهائى، وهو الذى كان يفترض أن يأتى بجائزة نوبل الى الرئيس بل كلنتون ويضم إيهود باراك الى أنبياء إسرائيل، وينصب من ياسر عرفات صلاح الدين القرن الحادى والعشرين.

فى كامب ديفيد الثانية جاءت لحظة الحقيقة، وحين إستبق باراك وأعلن لاءاته فى شهر يوليو الماضى فإنه لم يصدر صكا بالفشل على المحادثات قبل أن تبدأ بحسب، وإنما أيضا فضح عملية أوسلو ذاتها، ذلك وأنها بدت كستار يراد الإحتماء به لتنفيذ المخطط التوسعى الإستيطانى الإسرائيلى على مهل بعد إجهاض الإنتفاضة وإسكات صوت المقاومة الفلسطينية، ونبين فى النهاية عندما وضعت القضايا على الطاولة، أن ما سيسمح به للفلسطينيين فى مقابل قبولهم باسرائيل على ٧٧٪ من أراضيهم السابقة سيكون دولة مجزأة بلا سيادة وبلا حدود بمساحة حدود لا تتجاوز ٦١٪ من الـ ٢٣٪ من الأرض الباقية «ستبقى ١٤٪ تحت سيطرة اسرائيل الأمنية للوقت الراهن وتضم إسرائيل الـ ٢٥٪ الباقية التى تشمل المستوطنات الإستراتيجية، أما تنازلات إسرائيل فى القدس فلم تتجاوز وضع أقل من ١٥٪ من الـ ٦٤ كم مربع التى إحتلتها إسرائيل فى سنة ١٩٦٧ تحت السيطرة الإدارية الفلسطينية، ومن ثم فغاية ما يمكن أن يحدث هو أن يتمتع الفلسطينيون بالشعور بالسيادة فى مناطق من المدينة، أى أن المطب هو مجرد إشعارهم بالسيادة فى مناطق من المدينة لأنه يفتقدون الى ذلك وهى السيادة التى يمكن أن تسلب فى أى وقت بقرار إسرائيلى.

(هـ) ان ما يجرى فى القدس هو مجرد إنذار للأطراف التى أغراها الإستغواء فذهبت بعيدا فى العبث بقضايا المصير، وإستهانت كثيرا بردود فعل الشارع الفلسطينى والعربى حتى تطاولت على المقدسات، وأحسب أن العدوان على المسجد الأقصى يمكن أن تتسع دائرته لكى تشغل آفاقا لا تخطر على بال اللاعبين والعابثين، وإذا كان العمق العقيدى له دوره فى

إنتفاضة الجمعة، إلا أن تكرار اللعب والعبث بمصير اللاجئين لن يمر بدوره بسلام خصوصا وأن الأمر يخص كتلة بشرية تضم ما يقرب من خمسة ملايين شخص يتعذر إقتلاعهم وإسقاطهم من الحسبان بالمجان.

لقد أمضينا سبع سنوات ونحن نتحرك بطيئا على تخوم وهوامش القضية، فكم من الوقت سنحتاجه حقا لكى يكون بوسعنا التوصل إلى حل عادل للقضية.

الفصل السادس عشر

إنتفاضة الأقصى
وتداعياتها داخل المجتمعات العربية
والمجتمع الإسرائيلي

الفصل السادس عشر

إنتفاضة الأقصى
وتداعياتها داخل المجتمعات العربية
والمجتمع الإسرائيلى

إنطلقت إنتفاضة الأقصى- فى أثناء كتابة هذا الفصل- منذ أكثر من ثمانية أشهر، وكما سبق أن ذكر إنطلقت هذه الإنتفاضة المباركة في يوم جمعه بعد أن دخل إرئيل شارون مع بضع آلاف من الجند بأحذيتهم وأسلحتهم إلى باحة المسجد الأقصى المبارك، وبذلك أشعل هذا السفاح الوغد فتيل هذه الإنتفاضة المباركة التى إشتعلت بعنف لم يكن الصهاينة يتوقعونه، فزلزلت الكيان الصهيوني زلزلة عظيمة، وهزت نظام حكم السفاح باراك وكشفت خداعه وزيفه، وفى البداية راهن هذا السفاح على كبح جماح هذه الإنتفاضة، وإستخدم فى ذلك كل ما أوتى جيشه من أسلحة أمريكية متطورة، فقصف المدن والقرى بالدبابات والصواريخ والطائرات والبوارج، وإتبع سياسة إغتيال الزعماء الفلسطينيين ورؤوس المقاومة الفلسطينية، ثم لجأ إلى سلاح الإغلاق والتجويع وتدمير البنية التحتية للمدن والقرى الفلسطينية، وأطلق جموع المستوطنين كالوحوش الجائعة تقتل الأهالى وتجرف مزارع الزيتون وتعتدى على الممتلكات والعقارات الفلسطينية، ولكن ذلك كله لم يفت فى عضد الثورة الفلسطينية واستمرت جذوتها مشتعلة بعنف وقوة، رغم التفاوت العظيم فى القوى بين المعتدى والمعتدى عليه ورغم تأييد أمريكا للمعتدى ووقوف الإتحاد الأوروبى موقفا مائعا وكأنه يؤيد العدوان، وازدادت عربدة الإسرائيليين جيشا ومستعمرين والشعب الفلسطيني يقاوم ببسالة ويتحمل كل صنوف العسف والعذاب بكل شجاعة لا تلين له قناة، إنها إما حياة أو موت وليس بينهما حل آخر.

ولما فشل باراك فى كبت الإنتفاضة، ترك الحكم لسفاح آخر هو أشد السفاحين الإسرائيليين ضراوة ووحشية فى تاريخ إسرائيل، ألا وهو السفاح شارون الذى تلطخت يده

بدماء الفلسطينيين والعرب حتى قبل أن تقوم دولة إسرائيل، فهو صاحب مذابح دير ياسين وقبية الشهيرتان، و مخطط مذبحة صبرا وشاتيلا، وصاحب الملف الأسود فى قتله لمئات من الأسرى المصريين بعد حربى ١٩٦٧، ١٩٧٣، وأعطى الشعب الإسرائيلى أصواته بما يشبه الإجماع أملا فى أن يستخدم كل ما أدنى من وحشية فى قمع الإنتفاضة، وتعهد الرجل أن يتم هذه المهمة القذرة فى خلال مائة يوم، وصعد من استخدام القوة الغاشمة من جيش ومستوطنين، ومن إغتيالات لرموز المقاومة وتجويع الشعب الفلسطينى وتقطيع الأوصال بين المدن والقرى الفلسطينية، ومنع مرور الأغذية والأدوية والوقود إليه، ثم لجأ إلى عمل الغارات الوحشية على مراكز الأمن الفلسطينية وشن الهجمات الصاروخية على مقار الإدارة الفلسطينية، ومضت المائة يوم الموعودة، ومائة أخرى غيرها دون أن تنطفأ جذوة الإنتفاضة أو يفى بوعده فى توفير الأمن للشعب الإسرائيلى الذى وضعه فى منصبه لتنفيذ هذه المهمة، وأخيرا وجد حلفاءه الأمريكيين ورجال الادارة الأمريكية أنه فى ورطة، فحاولوا إنقاذه وإخماد جذوة الإنتفاضة بالحيلة، فأرسلوا إلى فلسطين لجنة جورج ميتشل لتقصى الحقائق، ثم أصدرت هذه اللجنة بيانا فيه شروط التهدئة ليلتزم بها الفلسطينيون ولا يعيرها شارون إلتفاتا، ثم أرسلوا بعد ذلك رئيس المخابرات الأمريكية لنفس السبب، ولكن هذه الحيل لم تنطل على الشعب الفلسطينى وهو ماض فى جهاده حتى حين كتابة هذه الأسطر.

والعجيب فى الأمر تخاذل معظم الدول العربية عن مساعدة إخوانهم الفلسطينيين اللهم إلا بالخطب العنترية والحماس الحار، رغم إجتماع مجلس الجامعة العربية مرتين إحداهما على مستوى القمة، ولذلك نجد أن لدول الإتحاد الأوروبى عذرها فى تذرعها بالصمت حيال ما يجرى من وحشية للشعب الفلسطينى على أرضه، ولا يرتفع صوت من هنا أو هناك يستنكر الأهوال التى يوقعها سفاحوا إسرائيل بشعب فلسطين، اللهم إلا أصوات خافتة تتردد على إستحياء بين الحين والآخر، أما مواثيق حقوق الإنسان العالمية، فيبدوا أنها لا تنطبق على هؤلاء المنكوبين لأنهم لا يستحقون الحماية ولا العطف اللذان يستحقهما بقر أوروبا الذى أثار ثائرة جمعيات الرفق بالحيوان والمحافظة على حقوقه فى كل مكان، فطالبوا بوقف إعدام البقر المصاب بالحمى القلاعية رأفة ورحمة بهذه الحيوانات المسكينة.

تداعيات الإنتفاضة في المجتمعات العربية:-

منذ اليوم الأول لقيام إنتفاضة الأقصى، تحركت الجماهير العربية فى كل بلد عربى تحركات تلقائية تطالب الحكومات بمساعدة الشعب الفلسطينى ضد العدوان، وتكونت لجان فى كل مكان لجمع المساعدات ودفعها إلى الفلسطينيين المحاصرين ولليتامى والأرامل والأسر التى فقدت عوائلها والعمال الذين فقدوا مصدر رزقهم، وللحق والحق يقال فإن وقفة جماهير الشعوب العربية كانت وقفة قوية أحرجت حكومات تلك الشعوب، وأشاعت الذعر فى نفوس رجال الأعمال الأمريكيين من إقدام الجماهير العربية على مقاطعة البضائع والمصالح الأمريكية، وحدث هذا بالفعل فى مصر والسعودية مما كان له أثره فى إفلاس عدد من الشركات الإنجليزية والأمريكية العاملة فى البلدين ورحيلها، وبات بعض الحكام الموالين للغرب فى حيرة من أمرهم، وحاولوا تأييد الشعب الفلسطينى بالخطب والأقوال الرنانة ولكن ذلك لم ينطل على أحد، وأعتقد أن المعونات التى تقدمها الشعوب العربية فى دول الخليج وبعض دول الشرق الأوسط الأخرى إلى الشعب الفلسطينى هى إحدى عوامل إستمرارية الإنتفاضة بهذه القوة والزخم حتى الآن، وكان للكتاب المصريين والعرب دور هام فى إجلاء الحقائق وكشف جرائم الصهاينة والتواطىء الأمريكى الأوروبى معهم، كما أثرت أحداث الإنتفاضة تأثيرا كبيرا على المجتمع الإسرائيلى الذى أعطى تأييده الكامل للسفاح شارون، ثم حدث تغيير ولو أنه بطىء فى أفكار الإسرائيليين بعد أن خاب أملهم فى الأمن الذى وعدهم به شارون، وظهر ذلك فى مقالات كتابهم فى الصحف الاسرائيلية، لذلك سوف نورد هنا بعضا مما نشر عن الإنتفاضة فى الصحف العربية والإسرائيلية.

أولا: ما نشر في الصحف العربية:-

منذ قيام الإنتفاضة، عجت الصحف العربية بمقالات كتبها كبار الكتاب والمحللين السياسيين فى العالم العربى، وقد عكست هذه الكتابات نبض جماهير الشارع العربى فى كل مكان يوم بيوم، وبينت مدى إجماع الشعوب العربية جميعا على دعم الإنتفاضة والوقوف إلى جانب المجاهدين الفلسطينيين وتوفير الماديات اللازمة لدوام إشتعال إنتفاضتهم حتى يتحقق لهم النصر بإذن الله، كما فضحت هذه الكتابات ألاعيب حكام إسرائيل على إختلاف

إتجاهاتهم الحزبية، وكيف أنهم يقفون الآن فى صف واحد خلف سفاحيهم من أمثال باراك وبيريز وشارون، لا فرق بين صقر وحمامة، كما بين الكتاب العرب فى كتاباتهم مدى الإنحياز الأمريكى وراء إسرائيل وتدعيمه لأساطين العدوان، كذلك مدى التخاذل العربى على المستوى الرسمى وعدم إرتفاع الحكام الى مستوى الأزمة التى تمر بها الأمة العربية، وأسباب الفرقة التى بثها الغرب بينهم وأدت الى تشرذمهم وإنفراط عقدهم وكيفية معالجة ما تمر به الأمة العربية من فرقة وشقاق، وفيما يلى نورد هنا بعض ما سطرته أقلام الكتاب العرب بهذا الخصوص، وكانت صحيفة الأهرام المصرية هى المرآة الكبرى التى عكست أفكار وآراء بعض كبار الكتاب العرب فى كل الأقطار العربية، لذلك إخترت من صفحات هذه الصحيفة الكبرى بعضا من أفضل ما كتب فيها فى مراحل مختلفة من مراحل الانتفاضة:-

١ - كتب السفير إبراهيم يسرى مقالا فى هذا الموضوع، حلل فيه ما يجرى من أحداث على الساحة العربية والفلسطينية تحليلا علميا وثيقا شاملا، جمله بنصوص من بنود القانون الدولى الذى تخصص هو فيه كمحام ومحكم دولى وبدأ ذلك بقوله:- تعدى الجنرال السفاح شارون كل الحدود، وانتهك كل المواثيق والقوانين الدولية، وتنكر لإلتزامات بلاده فى مدريد وأوسلو، وتجاهل بشكل سافر وقبيح آمال وآلام شعبنا العربى فى فلسطين، يشاركهم فيها أكثر من ٢٠٠ مليون عربى وأكثر من مليار مسلم. وآخر حماقاته هو ضرب محطات الرادار السورية فى البقاع اللبنانية وإعادة إحتلال بعض أراضى السلطة الفلسطينية فى غزة، موجها الى الدول العربية والإسلامية على وجه الخصوص أكبر قدر من التجاهل والاستهتار الذى قد يصل الى الإهانة وتعريضها للضغوط الداخلية الشديدة مما يفتح كل الإحتمالات لقيام حرب إقليمية فى المنطقة فى ظل تراخ أمريكى خطير وغير مبرر، وصمت أوروبى غير مفهوم.

وليس بعيدا عن أى تحليل سياسى متعمق ومحايد أن يتوصل بكل وضوح الى أن الجنرال شارون مرتكب المذابح الآدمية والوحشية بشهادة أجهزة الدولة العبرية نفسها، والذى ورط بلاده فى غزو لبنان وهى عملية خاسرة لإسرائيل بكل المقاييس.

إلا أن هذا الجنرال الدموى قد أوقع بلاده بالفعل فى مأزق خطير يفوق حماقه غزو لبنان ومذابح صبرا وشاتيلا بعد أن تسرب منه حلمه الساذج بأن يحقق الأمان للشعب اليهودى

باتباع كل ما تستطيعه الآلة الحربية الإسرائيلية من أساليب القمع والقتل والتشريد، وهدم المنازل والتجويع دون أدنى مراعاة لأبسط قواعد الحرب، أو إقرار لحقوق الإنسان وفقا لأحكام القانون الدولى الإنسانى، وهو أمر ثبت وتحقق فى لجنة حقوق الإنسان وغيرها من المنظمات العاملة فى هذا المجال، كما أن الفضائيات العربية والأجنبية تذيع كل تلك الأعمال الوحشية واللاأخلاقية كل يوم فى نشراتها المتتابعة.

ولقد وفر علينا شارون الكثير من الجهد والجدل الذى كان لابد من الخوض فيه لإقناع حسنى النية بحقيقة أهداف الدولة العبرية العنصرية التوسعية الإستقلالية عندما قاد تطورا مهما وجوهريا بالكشف عن عدم إعترافه بحقوق الفلسطينيين وعن إستهانته واستهزائه بالدول العربية بل والاسلامية والمجتمع الدولى بأسره عندما وجه لقمة عمان صفعة مهينة بتكثيف غاراته الإجرامية غداة إنتهاء القمة، على نهج صفعة وجهتها إدارة بوش باستخدام الفيتو لأول مرة من أربع سنوات وفى أثناء إنعقاد القمة لمنع الحماية الدولية للسكان المدنيين العزل.

وهكذا شن شارون بصمت من أمريكا وصمت مدان من معظم الدول الأوروبية حربا حقيقية للإبادة، وبهذا هدم شارون كل المرجعيات المطروحة للقضية الفلسطينية إبتداء من القرار ١٨١ لتقسيم فلسطين والقرار ١٤١ بحق العودة، وقرارات مجلس الأمن حول عروبة القدس ومئات من قرارات الأمم المتحدة وغيرها من منظمات دولية وفروعها، مما إتفق المراقبون السياسيون فى الغرب وفى الدول العربية والإسلامية على السواء بأنه عودة بالقضية الى المربع الأول الذى بدأت به فى منتصف الأربعينيات.

ومن النتائج المهمة والخطيرة أن ذلك الوضع القانونى الجديد من شأنه أن يضع النظام العربى كله أمام مسئولياته الجسيمة وتتطلب منه بكل قوة أن يعيد النظر فى إدارة الصراع مع إسرائيل ومؤيديها، وأن يتدارس الحكام العرب كيفية التوصل إلى أساليب جديدة للتعامل مع الصراع مستفيدة من دروس خلفتها لنا سلسلة من التنازلات إستمرت بلا إنقطاع ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وأول وأهم هذه الدروس ما دعونا إليه فى أعمال عديدة من حتمية تجديد أسلوب الدبلوماسية العربية فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى، وتطبيق كل قواعد

ومعايير العلاقات الدولية على هذا الصراع وعدم الإعتماد على أى عناصر غير مؤكدة أو غير فاعلة فى رسم السياسة العربية لمواجهة متطلبات هذا الصراع. وفى هذا الإتجاه يمكن تصور أن إستراتيجية إدارة الصراع على الجانب العربى فى المرحلة المقبلة ستأخذ المعطيات التالية محل إعتبارها:-

أولا وقبل كل شيء لابد أن تتجه كل الجهود لدعم الإنتفاضة وضمان إستمرارها والعدول عن الرغبة فى إستعادة الوضع الذى كان قائما قبل ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ لأن ذلك أصبح وهما غير قابل للتحقيق فى ظل سياسة شارون بل وسلفه باراك.

لا مجال بعد الآن للإحتفاظ بشعار خلا من مضمونه وهو شعار أن السلام هو الخيار الإستراتيجى للعرب، ولابد أن يتوقف العرب عن المناداه بسلام عادل وشامل أو بما شاع فى الأوساط السياسية العربية من إيجاد مفهوم وهمى يسمى الشرعية الدولية. فلا يوجد فى كل تاريخ العلاقات الدولية سلام يقوم على العدل بمعناه المجرد، لأنه ليس للعدل مفهوم محدد فى العلاقات الدولية التى تقوم على علاقات القوى، كما لا توجد سوابق لسلام شامل فى منطقة منعزلا عن العلاقات القائمة بين كل وحدة من وحدات النظام وبين القوى الفاعلة داخل وخارج النظام، ولم تنجح حتى الآن اى منظمة إقليمية أو عالمية مثل الأمم المتحدة فى فرض سلام شامل فى مجال إختصاصها.

- لابد أن الا تستبعد الدول العربية من حساباتها أنها قد تستدرج إلى حرب إقليمية عربية إسرائيلية حين يواجه شارون الفشل فى قمع الشعب الفلسطينى بحيث يكون قد مد نطاق العمليات العسكرية العدوانية على إحدى دول الطوق أو كلها ذريعة شارونية لتفجير الموقف وإيجاد واقع جديد بمنطق علّى وعلى أعدائى ويضع هذا الإحتمال مسئولية كبرى على النظام العربى كله حتى لا نواجه هزيمة أقسى من هزيمة ١٩٦٧.

- يجب أن تنتهى خديعة تقسيم الصراع العربى إلى مسارات والنظر إليه كصراع موحد بين الجانبين، فليس من الممكن ولا من المتصور أن يستمر بعض السياسيين فى دول عربية فى الإعتقاد بأنهم بعيدون عن الصراع جغرافيا أو سياسيا أو عسكريا بعد أن ثبت للجميع أن

المخطط الإسرائيلى الغربى يشمل إخضاع وإستغلال جميع أقطار العالم العربى سياسيا وإقتصاديا وعسكريا ويهدف الى النيل من وجودهم الحضارى وهدم مساجدهم وكنائسهم.

– لم يعد العرب يملكون رفاهية التغاضى عن سياسات بعض الدول التى تدعم العدوان الاسرائيلى وتشجع الدولة العبرية على نصب المذابح والمجازر لشعبنا العربى فى فلسطين أو التى تهاجم بطائراتها وآلاتها العسكرية دولا عربية دون أن تضع تلك السلوكيات فى الحسبان عند التعامل معها بحيث لا يوضع العرب بعد الآن فى موقف من يكافىء العدوان على العرب، ومن يدعمونه ماديا بالمال والسلاح أو حتى بالتصويت فى المحافل الدولية، ومن هنا لابد أن يتبلور فى إدارة الصراع مفهوم التعامل من منطق المصالح المتبادلة، بمعنى أنه لا يتصور بعد الآن أن تعقد صفقات عربية مع بعض تلك القوى المناهضة للحق العربى بمليارات الدولارات فى الوقت الذى توجه فيه تلك القوى مواردها ودعمها فى غير صالح العرب.

– ينبغى أن تشحذ كل الأنشطة الشعبية والأهلية إلى جانب الأنظمة العربية لتتحمل العبء الأكبر لدعم الإنتفاضة ماليا وبشريا، بالإضافة إلى تسطير رسالة جادة الى الدول الداعمة للعدوان على العرب أو الصامتة بالتآمر على الإنتهاكات التى تمارس ضد سيادة دولهم بأن مصالحهم مع العرب لابد أن توضع على المحك بحيث تتأثر سلبا وإيجابا بمدى تماشيها مع المصلحة العربية العليا. وقد شهدنا جميعا أن تقرير إدارة بوش قد توافق مع التحليلات الأمريكية السابقة من أن المصالح الأمريكية لن تعانى من أى تهديد نتيجة إنحياز أمريكا الكامل ضد إسرائيل

– إن الصمت المريب لبعض القوى الأوروبية ينبغى أن يترجم إلى مواقف واضحة مع الحق العربى أو ضده حتى وإن إقتصر على إصدار بيانات سياسية ومجرد عدم التصويت ضدنا فى المحافل الدولية.

– من المهم أن تضع الاستراتيجية العربية الجديدة فى إعتبارها الإستفادة بالتطورات التى تمر بها العلاقات بين القوى الكبرى مثل روسيا والصين والإتحاد الأوروبى واستعادة وتوثيق علاقاتها مع الدول العربية، وهو المنهج الذى تأخذ به دبلوماسية الرئيس مبارك،

الذى يواصل إتصالاته بعد حديث صريح مع الرئيس بوش فى واشنطن ولقاءات منتظمة مع شيراك فى فرنسا وزيارة المانيا وروسيا فضلا عن دورية الزيارات الرئاسية بين القاهرة وبكين.

– إنه مازال لدى العرب الكثير من أسباب القوة وعوامل الصمود ومنها غزارة مواردهم البشرية والديموجرافية ومصادر الثروة الطبيعية وحضارتهم الإنسانية، ومازالوا يمثلون القوة الباقية التى تؤكد وجودها فى المنطقة منذ فجر التاريخ حتى نهاية العالم، بينما مازالت إسرائيل كيانا غربيا يحاول تأكيد وجوده وعليه فلن يستعصى على العرب التغلب على أسباب الضعف والتشرذم وتجميع أسباب القوة لتوظيفها فى الصراع.

– البديل الوحيد أمام العرب فى المرحلة المقبلة هو أن يؤسسوا إستراتجيتهم لإدارة الصراع على التوصل لسلام متوازن يقوم على أرضية من توازن القوى العسكرية التقليدية وغير التقليدية على الأرض، ويوفر الردع المتبادل لدى طرفى النزاع دون الإعتماد على تدخل أى قوى أجنبية، بحيث لا تبقى لإسرائيل اليد الطولى بسبب تفوقها العسكرى الساحق على كل الدول العربية، وليس لدى العرب خيار سوى العمل على تعزيز قواهم العسكرية التقليدية وغير التقليدية، ليس بقصد إستخدامها، بل لتوفير الرادع القوى المقنع بأن المعتدى سيدفع الثمن وإرساء توازن القوى من شأنه أن يقود إلى علاقات سلمية فى المستقبل.

– يجب أن يتم ذلك كله تحت مفهوم قوى وعميق بأن العرب أصبحوا فى حاجة ماسة الى معركة تتعلق بوجودهم الى أن يرتقوا الى مستوى مسئوليتهم التاريخية وأن يتعاملوا مع المخاطر التى تواجههم بأسلوب علمى واع بعيدا عن الحزازات والأحقاد القديمة، وبعيدا عن الإنعزال القطرى الذى يعود بالوبال على كل العرب، ومن هذا فلا معنى ولا مبرر للسماح لأى نزاع أو خلاف عربى عربى. ويجب أن يسود الإقتناع بأن المرحلة القادمة يجب أن تكون مرحلة التضامن العربى، وإنه بدون تضامن وعمل عربى فاعل فإن وجود العرب كأمة وحضارة يتعرض لأخطار جسيمة ربما لم يسبق للأمة مواجهتها من قبل، وأن البديل لا يمكن قبوله ولا قبل لأحد بتحمل مسئوليته، وأن حساب الشعوب العربية عليه سيكون قاسيا وعسيرا.

٢ - وأخيرا ظهر فى صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٩ ثلاث مقالات قوية وصلت بتحليلاتها العلمية المدروسة إلى جذور مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى ووصفت الحلول الناجحة لمواجهة المخططات الإسرائيلية والوصول بالإنتفاضة الفلسطينية الى مرحلة الإنتصار، وقد صدرت هذه المقالات الثلاث من كل من د. أحمد صوفى الدجانى «**الإنتفاضة وكيف فندت إدعاءات الإعلام الإسرائيلى**؟» ود. جمال على زهران «العنف والعنف المضاد.. توصيف ردىء»، ولواء على حفظى «**إستقراء ما يدور فى الفكر الإسرائيلى**».

وقام د. أحمد يوسف القرعى بتلخيص المقالات الثلاث فى مختصر وجيز واف جاء فيه ما يلى:- ثمة رسالة جديدة أفصحت عنها الإدارة الأمريكية إثر إيفاد كولن باول وزير الخارجية الأمريكية الى منطقة الشرق الأوسط إيذانا بانتقال الطرفين الفلسطينى والإسرائيلى لتنفيذ مقترحات لجنة ميتشل، وأكدت المواجهة التى إحتدمت بين الرئيس الأمريكى ورئيس وزراء إسرائيل بشأن المستعمرات ومفهوم الأمن المطلوب فى المنطقة حاليا مصداقية العزم على إستئناف الدور الأمريكى وهى المواجهة التى وصفتها الصحف الإسرائيلية بأنها ضربة علنية وموجعة من جانب بوش إلى شارون.

أيا كان الأمر فإن التحرك الأمريكى الجديد لم يأت من فراغ، وإنما جاء إثر مراجعة أمريكية، وفى هذا السياق يؤكد الدكتور/ أحمد صدقى الدجانى أن الإنتفاضة الفلسطينية إستطاعت أن تبدد المزاعم الإعلامية الإسرائيلية والأمريكية التى شنت هجوما على عرفات واتهمته بأنه يدفع بالأطفال لمهاجمة الإسرائيليين والعكس هو الصحيح، فقد هاجمت القوات الإسرائيلية الأطفال والنساء العزل الفلسطينيين، وهدمت بيوتهم.

ويشير الكاتب إلى أن هناك أصواتا معتدلة فى أمريكا وإسرائيل تعترف بالحق الفلسطينى وترفض المزاعم الأمريكية والإسرائيلية التى شاعت منذ كامب ديفيد بخصوص مسيرة التسوية.

وتفنيدا لمثل تلك المزاعم يرفض الدكتور جمال زهران مصطلح العنف والعنف المضاد، مؤكدا أن ما يحدث من جانب إسرائيل هو عنف مرفوض شرعا وقانونا، وأن ما يقوم به

الفلسطينيون مقاومة، هو ما يسمى بحرب التحرير أو الإستقلال من أجل الحرية والسلام، مؤكد أن هناك إصرارا فلسطينيا واضحا على إستمرار المقاومة من أجل الحصول على الحقوق الفلسطينية وأنه لا سلام فى ظل إستمرار الإحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية. ويبرز اللواء على حفظى أهمية إدارة الصراع مع إسرائيل بعقلية إدارة الصراعات والأزمات وأن تكون برشادة ودقة محسوبة.

ما كتب عن الإنتفاضة في الصحف الإسرائيلية:

تتغير لهجة الكتاب الإسرائيليين الذين يكتبون عن الإنتفاضة والصراع الدائر الآن بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ففى بدء الإنتفاضة كانت مقالات معظم هؤلاء تنمو باللائحة على عرفات وشعبه وتقف فى نفس الخندق الذى يقف فيه باراك وبيريز وشارون، ولكن لما طال أمد هذا الصراع دون أن تبدو فى الأفق أن الطرف الأضعف فى هذا النضال (من وجهة نظرهم) سوف يستسلم عما قريب، رغم ما إستخدمه الجيش والمستعمرون ضده من بطش وقوة وتعذيب، بل زادت مقاومته ضراوة وعنفا، وصمد فى وجه القوة صمودا مذهلا لا يعرف الإسرائيليون له كنها، بدأت لهجة الكتاب الإسرائيليين تتغير، وأطلوا ينظرون إلى ساحة النضال بنظرات جادة محللة للأحداث وما يجرى على الأرض، وخفت اللهجة العدائية ضد الفلسطينيين وأخذت تنمو نحو العقلانية.

ونوردها بعض ما كتبه هؤلاء الكتاب فى الصحف الإسرائيلية بعد مرور سبعة أشهر على هذه الإنتفاضة دون أن تنطفأ جذوتها- وفيما يلى نموذجين مما كتبوه بعد مرور بعض الوقت على بدء الإنتفاضة ،٧ أشهر، ونموذجين آخرين لما كتب أخيرا عنها:-

أ - كتب الكاتب الإسرائيلى أورى أفنيرى مقالا فى جريدة معاريف الإسرائيلية فى يوم ٢٠/٤/٢٠٠١ بعنوان ،لماذا فشلت اسرائيل فى قمع الإنتفاضة؟، جاء فيه ما يلى:-

الملاكمان داخل الحلبة- أحدهما بطل الوزن الثقيل وخصمه من لاعبى وزن الريشة، الجميع يترقب حسم الجولة الأولى فى بدايتها بالضربة القاضية، ولكن الجولة الأولى تنتهى دون أن تحسم بالضربة القاضية وكذلك الجولة الثانية أيضا، وحينما نجد أن ملاكم وزن

الريشة يقف على قدميه فى الجولتين الثالثة والرابعة يتبين لنا أنه هو المنتصر، وهذا ينطبق على الوضع الحالى فى المواجهة بين الجيش الإسرائيلى القوى وصاحب القدرات غير المحدودة، والطرف الفلسطينى الذى لا يملك من السلاح إلا النذر اليسير، ومع هنا فشل الجيش الإسرائيلى فى قمع الإنتفاضة بعد أن أستخدم كل الوسائل من طائرات هليوكوبتر ودبابات ومدافع- وتصفية جسدية وهدم المنازل والأحياء السكنية وتجريف الأرضى الزراعية، كل هذا لم يجد شيئا، فالفلسطينيون مازالوا يقفون على أقدامهم يقاومون للشهر السابع على التوالى حكومة شارون بيريز التى تحظى فى هذا الصراع بتأييد ومساندة أمريكية غير محدودة، فالولايات المتحدة تمدها بالأسلحة والأموال، ومن أجل إسرائيل إستخدمت حق الفيتو فى مجلس الأمن، أحد المسئولين الأوروبين أعرب عن دهشته البالغة قائلا «إن إسرائيل هى فى الواقع العضو الدائم والخامس فى مجلس الأمن»، أوروبا تكتفى بالإعراب عن أسفها أما الدول العربية فتتحمس وتشجب وتستنكر فقط. الفلسطينيون من جانبهم يعلقون آمالهم على ثلاثة عناصر:- العنصر الأول هو الإنتفاضة التى أذهلت القادة والمعلقين، فبرغم الإقتصاد المنهار والحياة التى تحولت إلى جحيم، إلا أن المواطنين الفلسطينيين مستمرون فى نضالهم، فالإنتفاضة تحولت إلى حرب إستنزاف، وفى هذه الحالة معنويات من أحتلت أرضه أقوى لأنه يحارب من أجل وجوده وكيانه.

من الأقوال المأثورة عن نابليون عن الحرب يقول العنصر المعنوى يشكل ثلاثة أرباع أما ميزان القوى فيشكل الربع الباقى.

أيضا إسرائيل تدفع ثمنا باهظا من جراء هذه الإنتفاضة التى سببت خسائر كبيرة للإقتصاد الإسرائيلى وأنهكت جيش الدفاع الإسرائيلى.

العنصر الثانى:- الجماهير العربية إضافة إلى المثقفين العرب الذين يتعاطفون مع الفلسطينيين، فالموقف سوف يتغير تماما إذا ما حدث ما يثير تلك الجماهير فى كل الدول العربية.

هناك معارضة وطنية وإسلامية تنتظر أن ترتكب إسرائيل ولو على سبيل الخطأ أى حماقة مثل مذبحة قانا أو تعمد إلى الإضرار بالمسجد الأقصى، حيث يكون الإنفجار.

عندما إلتقيت منذ عدة أيام مع ياسر عرفات فى رام الله، ترك لدى إنطباعا كبيرا بأنه يعلق آمالا كبيرة على مساندة الشعوب العربية، فقد أشار إلى أن المغرب شهدت مظاهرة كبيرة سار فيها مليون مواطن، وفى السعودية حتى عمان البعيدة، نظمت مظاهرات غاضبة ويبدو أن الجميع فى إنتظار أن يقدم شارون على عمل طائش لينفجر الموقف.

العنصر الثالث أن هناك حدودا للتأييد الأمريكى المطلق لشارون وبيريز، ومن وجهة نظر الفلسطينيين فإن إدارة الرئيس بوش هى أسوأ الإدارات الأمريكية على الإطلاق.

وهناك خط أحمر واضح هو النفط، فإذا حدث الإنفجار للموقف فى العالم العربى وأصبح الأمر جد خطير، فسوف تهوى القبضة الحديدية الأمريكية على رأس شارون، وها هو الأسبوع التاسع والعشرون للمباراة ينتهى دون ضربة قاضية.

ب - لا حل إلا مقترحات كلينتون، كان هذا هو عنوان مقال كتبه الكاتب الإسرائيلى دافيد كمحى فى صحيفة جيروزاليم بوست يوم ٢٠/٤/٢٠٠١ حيث كتب يقول:- من أهم خصائص الإنتفاضة الثانية هى إنعدام الفهم التام والكامل فى طرفى الإنقسام فيما يتعلق بأهداف ومواقف الطرف الآخر. فالإسرائيليون بما فيهم معسكر السلام لا يفهمون لماذا رفض الفلسطينيون بهذه القوة اليد التى مدها إليهم رئيس الوزراء السابق إيهود باراك، وتتراوح التفسيرات بأن الوجه الحقيقى للفلسطينيين قد إنكشف، وبين أن الفلسطينيين لن يقبلوا أبدا وجود دولة يهودية فى فلسطين، إلا أن رئيس السلطة الفلسطينية عرفات غير قادر على صنع السلام.

وبالنسبة لمعظم الإسرائيليين فإن عرفات هو الشرير الذى رفض قبول أى حل وسط للسلام، وتختلف الآراء على نحو واسع بالنسبة لدور عرفات وبيانه، فهل خطط للإنتفاضة أم بدأت عفويا بالشكل نفسه الذى بدأت به الإنتفاضة الأولى؟.

هل هو قادر على السيطرة على العنف أم هل فقد السيطرة على الشارع الفلسطينى؟ ما هو هدفه النهائى؟ أهو تدويل الصراع؟ أم التواصل غير المحدود للصراع؟ فيما إذا كان مازال شريكا فى السلام؟

لا توجد أجوبة واضحة، وبحسب التقارير الصحفية ثمة تقديرات واسعة الإختلاف بين أجهزة الأمن والاستخبارات العسكرية حول كيفية إندلاع الإنتفاضة ونيات الفلسطينيين بشكل عام، وزراء كبار يعتبرون عرفات إرهابيا، لا نية له للتوصل الى إتفاقية سلام، ووزراء كبار آخرون يجادلون عرفات لا يزال شريكا فى السلام، ومعظم الإسرائيليين لا يملكون إلا معرفة ضحلة عما يريده الفلسطينيون، أو ما يعنيه كيانهم تحت الإحتلال.

غير ثمة نقصا فى الفهم مشابها فى الجانب الفلسطينى، فبالنسبة للكثيرين فإن تصورهم عن الإسرائيلى هو المستوطن المشاغب لأن هناك من الإستفزازات التى يشعلها المستوطنون أكثر مما تنبىء به وسائل الإعلام الإسرائيلية، وصورة الإسرائيليين المفعمة بالكراهية تجاه الفلسطينيين قد تعززت الآن أثر تصريح الحاخام عوفاديا يوسف الأخير الذى دعا فيه الرب أن يقطع دابر العرب.

أما الفلسطينيون فهم على قناعة بأن إسرائيل لا تريد السلام، وأنها تريد تخليد الإحتلال، وهم يشيرون إلى فشل إسرائيل فى تطبيق العناصر الأساسية فى إتفاق أوسلو كدليل على عدم إخلاصها فى السعى وراء السلام، وهم يزعمون أن إسرائيل لم تنفذ بنود الإنسحاب ولم تطلق سراح المسجونين ولم تلتزم بالجدول الزمنى للتوصل إلى سلام دائم، فواصلت توسيع المستوطنات التى رغم أن أوسلو يحظرها، بقيت فى نظرها نقيضا لروح السعى نحو السلام وكدليل على أن إسرائيل لا تنوى التخلى عن الضفة الغربية بغية الوصول الى سلام دائم حقيقى، وفوق هذا فإن توقعهم أن يضع أوسلو حدا للإحتلال لم يتحقق، وبالفعل فأكثر من أى عامل آخر، فإن الإحباط الرهيب الذى بعثه الإحتلال المستمر قد أدى الى مظاهرات العنف وإستئناف الإنتفاضة، وعلى هذه الحجة قد يرد الإسرائيلى «كان يمكن للإحتلال أن ينتهى والعديد من المستوطنات أن تفكك لو أنكم وافقتم على عرض باراك لأكثر من ٩٠ ٪ من مساحة الضفة الغربية»، والفلسطينيون قد يردون «فى أوسلو وافقنا لأول مرة على حقكم فى ٧٨ ٪ من فلسطين فيما نكتفى نحن بما يتبقى من الـ ٢٢ ٪، هذا كان تنازلنا من أجل السلام، وكبادرة طيبة لكم فى كامب ديفيد، وافقنا أن تكون لكم جيوب من المستوطنين شريطة أن تعطونا كمية مكافئة من الأرض فى إسرائيل على سبيل المبادلة، ولكنكم لم توافقوا». إن الفلسطينيين مقتنعون بأنه كان يمكن التوصل إلى إتفاق ولا يزال هذا ممكنا أيضا وبخلاف

الإعتقاد السائد فى إسرائيل فإن الفلسطينيون يريدون السلام حقا الذى يستند مع ذلك الى الـ ٢٢٪ الذى يتضمن الأحياء العربية فى شرق القدس، وهم يقولون إنه تماما كما إستعاد السادات كل شبر من الأراضى المصرية ولم يكن مستعدا للمساومة حتى على طابا، والأردنيون حصلوا كذلك على كل الأراضى التى إحتلتها إسرائيل، هكذا يطالبون بمعاملة بالمثل، أما بالنسبة للمسائل المحيرة كحق العودة للاجئين الفلسطينيين والحرم القدسى فإن الرئيس الأمريكى السابق بل كلينتون والمفاوضين الإسرائيليين مقتنعون بأنه يمكن إيجاد حل لها شريطة أن تلتئم باقى أجزاء الرزمة.

أين سينتهى كل ذلك؟ الطرفان مقتنعان بأن كل الخطأ يقع فى الطرف الآخر ومع ذلك فإنهما يتفهمان عنصرين أساسيين فى النزاع، العنف لن يؤدى إلى نتائج للفلسطينيين وليس ثمة حلول عسكرية للإسرائيليين وتوجد مؤشرات من الآن على أن العنف قد يتضاءل وعندما تصمت نار المدافع فإنه سيتعين على الفلسطينيين والإسرائيليين العودة إلى طاولة المفاوضات وهناك سيكتشفون بأنه ليس هناك حلول قابلة للحياة إلا تلك التى إقترحها كلينتون.

أما البديل فسيكون إستئناف العنف وستستمر الدائرة المفرغة فى الواقع الى حين يوافق الطرفان على حتمية أن يعيش الشعبان جنبا الى جنب بسلام فى هذه القطعة الصغيرة من الأرض إسرائيل وفلسطين.

ونورد هنا أمثلة أخرى مما كتب عن الإنتفاضة الفلسطينية فى بعض الصحف الإسرائيلية فى الأيام الأخيرة لمعرفة مدى التطور الذى أحدثته الإنتفاضة فى الفكر الإسرائيلى بعد مرور هذه المدة الطويلة على إندلاعها:-

أ - كتب الكاتب الإسرائيلى نداف شرجاى مقالا فى ١٥ يونيه ٢٠٠١ فى صحيفة هارتس تحت عنوان «المستعمرون أصابتهم الأمراض النفسية ويرغبون فى الرحيل» جاء منه ما يلى:-

الأحداث العنيفة فى منطقة الخليل وكريات أربع دفعت وزارة الصحة الإسرائيلية الى تشكيل فرق من الأخصائيين النفسيين وأطباء الأمراض العقلية للعمل فى تلك المناطق فى الوقت الذى يؤكد فيه الأطباء النفسيون أصحاب العيادات فى تلك المناطق تزايد عدد

المترددين عليهم بشكل كبير خلال الفترة الأخيرة برغم انهم فى الواقع لا يعانون أمراضا عضوية بل من الضغوط والتوترات الناتجة عن الأحداث الدائرة هناك وقد نشرت الدكتورة نيتشا كاليش أخصائية الأمراض النفسية دراسة هى الأولى من نوعها فى مجلة عن شئون المجتمع تصدرها نقابة المعلمين الإسرائيليين حول الشباب الإسرائيلى جاء فيها أن عدم الإستقرار الذى يعيش فيه مستعمرو الضفة الغربية أصاب الشباب بحالة يطلق عليها المتخصصون «العجز المكتسب» ومن خلال هذا العجز يتكون لدى هؤلاء الشباب النظرة المتشائمة للمستقبل، وقد أجرت الدكتورة نيتشا دراساتها على ١٤٣ شابا تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ١٨ سنة ينتمون الى ٦٦ مستعمرة فى مارس ٢٠٠١، وقد أعرب ٣١٪ ممن شملتهم الدراسة عن رغبتهم فى مغادرة المستعمرات بينما أعرب ٨٧٪ عن تأكدهم من قيام الدولة الفلسطينية فى نهاية المطاف، وأعرب ٩٤٪ عن ثقتهم فى أن أراضى الفلسطينيين سوف تعود إليهم، فى حين أكدوا أن مدينة القدس سوف تقسم بين الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى فى التسوية النهائية.

والدكتورة نيتسا التى شكلت خلال السنوات الثمانى الأخيرة فرقا من مساعديها فى ٧٠ مستعمرة بالضفة الغربية. لاحظت من خلال هذه الفرق حالة العجز فى أوساط شباب المستعمرين والذى تحول فى النهاية الى عجز مكتسب نشأ نتيجة تعرض الشباب لمرات عديدة إلى أوضاع خارجة عن إرادتهم، والحافز لديهم يتضاءل فى الوقت الذى يتحولون فيه إلى أشخاص متشائمين ويائسين لا يشعرون بالتقدير تجاه أنفسهم ويعتقدون أن الأمور لن تتغير.

وقد أجريت دراسة مماثلة فى مارس ١٩٩٩ عبر خلالها شباب المستعمرين عن التشاؤم فى دراسة مارس ٢٠٠١ بعد إندلاع إنتفاضة الأقصى بأربعة أشهر ونصف.

وفى كلتا الدراستين يتبين أن الشباب يعانون قلقا نتيجة للعجز المكتسب، وكان مستوى القلق أعلى نسبيا لدى من تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٦ سنة، لكن تبين انه كلما إرتفعت السن إنخفض مستوى القلق، أما الفتيات فقد كان مستوى القلق لديهن أعلى من الشباب.

وفى هذه الدراسة أدلى عدد من الشباب والفتيات بشهاداتهم. فتاة عمرها ١٦ سنة ونصف تقول إن والدها بناء على طلب أمها يذهب لمقر عمله وهو يرتدى السترة الواقية والخوذة إلا أنه أخفى ذلك عن أخيها المجند حتى لا يشعره بالخجل.

فتاة أخرى عمرها ١٧ سنة تقيم بإحدى مستعمرات قطاع غزة إنها لم تر جدها وجدتها المقيمان فى منطقة رشيون لتيون منذ إندلاع أعمال الإنتفاضة أما الشباب الذى تحدثت معهم صحيفة هاآرتس منذ عدة أيام فقد أدلو بنفس الآراء السابقة، وأكد عدد من هؤلاء الشباب أنهم عثروا داخل فصولهم الدراسية على منشورات كتب فيها «الحرب بسببكم»، وفى نابلس هاجم بعض الشباب وسائل الإعلام واتهموها بتجاهلهم، وفى منطقة بنيامين، أعرب الكثير من الشباب والفتيات عن الغضب من التضييق عليهم فى تنقلاتهم وإمتناع المدرسين أحيانا عن الوصول الى بعض الأماكن التى توصف بأنها خطيرة، الأمر الذى أدى فى النهاية الى عزلة المستعمرات.

ب – وفى صحيفة يديعوت أحرونوت كتب الكاتب الإسرائيلى اليكس فيشمان بتاريخ ٢٠٠١/٦/١٥ مقالا بعنوان «الخلاف بين قادة الجيش والسياسيين دليل على حالة التخبط الإسرائيلية» جاء فيها ما يلى:-

قيادة الجيش الإسرائيلى تشعر بالإحباط والضيق نتيجة تجاهل القيادة السياسة لها، فالحصار الخانق المفروض على السلطة الفلسطينية بدأ يتلاشى بقرار من مجلس الوزراء دون إستطلاع رأى الجيش حتى من باب الإحترام، فبدءاً من مساء الثلاثاء الماضى بدأت التسهيلات فى صورة السماح بإدخال الوقود والغاز للسلطة والسماح بخروج بضائع فلسطينية.

فى عدة مكاتب بهيئة الأركان جلس الجنرالات غاضبون وبدأوا فى إجراء الإتصالات التلفونية مع مكتب رئيس الوزراء ومكتب وزير الخارجية ومكتب وزير الدفاع فى محاولة لمنع ما إعتبروه تداعى الجدار الصلب الذى بنى أمام عرفات للمرة الأولى منذ إنتفاضة الأقصى.

ومن وجهة نظر الجيش فإن العملية الإنتحارية فى تل أبيب شيدت لأول مرة سورا دوليا وضع عرفات فى الزاوية وطلب منه وقف إطلاق النار دون شروط مسبقة، فى يوم السبت بدأت تظهر النتائج على الأقل بتصريح علنى لم يستطع أحد إنتزاعه منه حتى ذلك الحين،

لقد وقف العالم- والأمريكيون والأوربيون- وحتى الروس فى النهاية الى جانبنا وتمكنا من وقف إطلاق النار، ولكننا وبأنفسنا عدنا للكلام بصوتين فوزير الدفاع من جهة يعلن أن عرفات لا يلتزم بالإتفاقيات وأنه أنهى بذلك دوره التاريخى، ومن جهة ثانية بضغط من وزارة الخارجية يرفعون الضغط عن السلطة.

هذه الأقوال بأصوات مختلفة تثير الجيش، فإن الجدل الخالد مثل «يسيطر على الأرض- لا يسيطر على الأرض- ينهار- لا ينهار» ليس فقط ليس له أهمية بل ألحق أضرارا إعلامية بنا فى العالم والآن يدعون فى الجيش أن العالم معنا ولكننا نضر أنفسنا بأيدينا.

ليس هذا قصورا فى الإتصال بين الجيش والقيادة السياسية، إنه مثال صارخ آخر على الطابع الهيستيرى والسطحى الذى تتخذ فيه القرارات الإسرائيلية حول الموضوع الفلسطينى ففى صباح يوم السبت بعد ساعات قليلة من عملية الدولفين تم طرح خطتين على القيادة السياسية للتصديق عليها: خطة تنفيذية للجيش وخطة خطوات إدارية إقتصادية أعدت كخطة إحتياطية فى مكتب منسق العمليات فى الضفة الغربية وأعدت للتنفيذ فى حالة وقوع عمليات إستراتيجية تستدعى الفصل الفورى بين الجانبين، والخطة تتضمن قائمة من ثلاثين خطوة درست كل منها من جميع جوانبها القانونية والدولية والإقتصادية وغير ذلك، وبعض هذه الخطوات مثل وقف دخول البريد تتعارض مع القوانين الدولية وقد ترتد الى نحر إسرائيل.

وقد تبنى مجلس الوزراء المصغر الخطة الإحتياطية بكل عناصرها بما فى ذلك البند الذى يقضى بإبقاء طائرات عرفات فى المطار دون حركة لمدة ٤٨ ساعة، والواقع أنهم لم يكن لديهم أى خطة أخرى يطرحونها للجمهور الذى طالب بالرد الفورى والخطة التنفيذية إستبعدت بعد إعلان عرفات وقف إطلاق النار، وكان رجال الجيش هم الذين أوصوا المجلس الوزارى المصغر بتأجيل الضربة العسكرية لأن مبادرة عرفات كانت هى الأولى من نوعها، ومن شأنها حشد الرأى العام الدولى ضده، لذا يجب عدم تفويت هذه الفرصة من أجل عملية عسكرية، لذلك بقيت الخطة الإقتصادية، لكن لما بقيت وحدها تحولت عمليا الى خطة عقاب. وجورج تيبيت رئيس المخابرات الأمريكية وصل إلى المنطقة وبذل مساعيه من أجل إقامة إطار دائم يتابع التعاون من أجل إفساح المجال لخطوة سياسية تعقبه.

خاتمة

خاتمـــة

من يقرأ هذا الكتاب سوف يخرج فى النهاية بانطباع حقيقى عن مدى الخطر المحدق ببلادنا وبالبلاد العربية جميعا من جراء زرع هذا السرطان الإسرائيلى فى فلسطين قلب الأمة العربية والإسلامية، وقد تم التخطيط لزرع هذا السرطان الدخيل بواسطة الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا وشارك فى هذا التخطيط دول أخرى أو حثت عليه مثل فرنسا وروسيا وذلك قبل أن تظهر فكرة الوطن القومى عند اليهود بنحو نصف قرن من الزمان أو أكثر، والدافع للأوروبيين فى نشر فكرة وطن اليهود القومى فى فلسطين كان يهدف أولا إلى الإنتقام من العرب والمسلمين بسبب هزيمة دول الفرنجة الصليبية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى وخلفاؤه فى فلسطين فى العصور الوسطى وطردهم للصليبيين من فلسطين ولبنان، وكان على رأس ملوك أوروبا الصليبيين الذين تجرعوا مرارة الهزيمة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وقتئذ، الذى طرده صلاح الدين من القدس فرحل عنه وعيناه تفيض بالدموع، وبعد ذلك بفترة من الزمن جاء الملك لويس التاسع ملك فرنسا على رأس آخر الحملات الصليبية لإحتلال مصر، ولكنه هزم فيها على يد الحكام المماليك هزيمة منكرة، وتم أسره وحبسه فى دار ابن لقمان فى المنصورة ومعه كبار قواده العسكريين والأمراء، ولم يفرج عنهم إلا بعد دفعهم لفدية كبيرة، واستمرت مرارة هذه الهزائم مترسبة فى الوجدان الأوروبى حتى جاءت فرصة الإنتقام باستيلاء الإنجليز على فلسطين سنة ١٩١٨ وتمكينهم لليهود من الهجرة إليها وبناء دولتهم على ترابها بعد تشريد أهلها والتنكيل بهم.

والسبب الثانى وراء تأييد أوروبا لقيام دولة يهودية فى فلسطين كان هو فصل الجزء الآسيوى من العالم العربى من الجزء الإفريقى منه لمنع إتحاد العرب فى دولة واحدة كبرى تهدد مصالحهم الإستعمارية فى المنطقة، وتفوت عليهم فرصة نهب الثروات الطبيعية الموجودة فى المنطقة من بترول وخلافه، كذلك خشيت إنجلترا من تأثر طرق مواصلاتها التى تمر عبر قناة السويس الى الهند عند قيام دولة عربية كبرى فى المنطقة، الخطر التى استشعرته حين احتلت جيوش محمد على والى مصر لبلاد الشام والجزيرة العربية وكان على

وشك بناء هذه الدولة العربية الكبرى لولا تدخل إنجلترا والدول الأوروبية وتحطيمها للأسطول المصرى واجبارها لمحمد على سحب قواته الى مصر.

أما الذين بثوا فكرة الوطن القومى لليهود مثل هرتزل مؤسس الصهيونية فقد إعتمدوا فى ترويجها بين اليهود على نصوص وردت فى العهد القديم من وضع حاخامات اليهود أثناء وجودهم فى السبى البابلى، وكلها تنضح بالعنصرية والكراهية لشعوب الأرض جميعا الذين أطلق عليهم الحاخامات لفظ «الأغيار»، أما هم فشعب الله المختار الذين خلق الكون كله من أجلهم وسخره لهم دون أبناء البشر جميعا، وأحل لهم سفك دماء الأغيار وسلب أموالهم وأراضيهم لأنهم لا وزن لهم عند الرب وتبعا لهذه الأفكار الدينية العنصرية الإستعلائية دخل اليهود فلسطين وأقاموا فيها دولتهم، وساعدتهم جميع دول أوروبا وأمريكا وسلحتهم بكافة أسلحة الفتك والدمار حتى النووية منها حتى يكونوا دائما متفوقين عسكريا على كافة شعوب المنطقة، ثم أمدوهم بالأموال الطائلة التى مكنتهم من زرع المستوطنات على كافة التراب الفلسطينى، وبعد أربعة حروب عامة بينهم وبين العرب ثم أربعة أخرى بينهم وبين الفلسطينيين واللبنانيين، تم لليهود إحتلال جميع أراضى فلسطين وأجزاء من اراضى سوريا والأردن ولبنان، وطردوا معظم الأهالى الفلسطينيين من ديارهم وشردوهم لاجئين فى جنبات الأرض، ولم يبق فى يد الفلسطينيين إلا ٢٢٪ من مجمل أراضى فلسطين، وهى الأرض التى يواجهون فيها الآن عمليات الإبادة والتطهير العرقى والحصار والتجويع، وسيطر هؤلاء المجرمون على القدس بما فيها من مقدسات إسلامية ومسيحية وضموها الى كيانهم الغاصب، وليت الأمر إقتصر على ذلك، بل إن الصهاينة يتنادون الآن بالتخطيط للإستيلاء على باقى الأراضى التى وعدهم بها الرب كما يزعمون وهى الأراضى الممتدة، من الفرات إلى النيل أن يتجمعوا فيها لإنشاء دولة إسرائيل الكبرى.

لذلك كان من الواجب أن يدق ناقوس الخطر حتى يفيق العرب من غفلتهم وإلا ضاعوا وأضاعوا بلادهم كما ضاعت فلسطين، وحينئذ سوف لا ينفع الندم، لهذا ندعو العرب جميعا إلى نبذ خلافاتهم التى بثها بينهم أعداؤهم ليلهوهم مما عما يحيق بهم من أخطار ويشتتوا جهودهم فيما بينهم ويبددوا ثرواتهم وليكن ما يحدث الآن فى فلسطين عبرة لهم، وواجبهم الآن أن يساندوا إخوتهم فى فلسطين بكل ما يملكون من قوة ومال.

المراجع العربية

١ – القرآن الكريم

٢ – الكتاب المقدس – العهد القديم

٣ – الفرعون الذى يطارده اليهود بين التوراة والقرآن

سعيد أبو العينين– كتاب اليوم– أخبار اليوم ١٩٩٧ .

٤ – القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم

موريس بوكاى – دار المعارف القاهرة– ١٩٧٩

٥ – الإسلام ورسوله بلغة العصر

أحمد حسين– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– ١٣٨٨ هـ.

٦ – المؤامرة على فلسطين قبل هرتزل بنصف قرن

د. محمد حسن الزيات– مجلة العربى– الكويت (عدد ٢٢)– ١٩٧٧ .

٧ – إسرائيل ويهود العالم– دراسات سياسية وقانونية

مصطفى عبدالعزيز– مركز الأبحاث– منظمة التحرير الفلسطينية– ١٩٦٩

٨ – إصدارات صحيفة الأهرام المصرية

مقالات للكتاب المصريين والعرب عن الإنتفاضة الفلسطينية– ٢٠٠١

٩ – تفسير الكتاب المقدس:– جماعة اللاهوتين برئاسة د. فرنسيس دافيدسن

دار منشورات النفير– بيروت ١٩٨٦

١٠ – دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم

بيومى مهران– دار التراث العربى– القاهرة– ١٩٧٩

١١ – قصص الأنبياء والتاريخ– الجزء الرابع

د. رشدى البدراوى– المكتبة الأكاديمية بالقاهرة ١٩٩٨

١٢ – قصة الحضارة ومباهج الفلسفة

ك. دورانت– دار الجبل– بيروت ١٩٥٥

١٣ - قصص الأنبياء

الشيخ عبدالوهاب النجار- مكتبة دار التراث- القاهرة ١٩٧٩

١٤- مصر القديمة

د. سليم حسن- جزء ٣، ٤- ١٩٩٩

١٥ - من الصحافة الإسرائيلية- مقالات لكبار الكتاب الإسرائيليين

يديعوت أحرينوت- هارآتس- جيروزوليم بوسن- ٢٠٠١

مراجع أجنبية

1 - The ancient near east. Vol I& II

Amelie Kurt. Routlejge- London $ New York, 1977.

2 - The Bile as a history

Waner Keller- Banton books, New York-London 2 nded. 1982

3 - The Jewish state- Acentury Later.

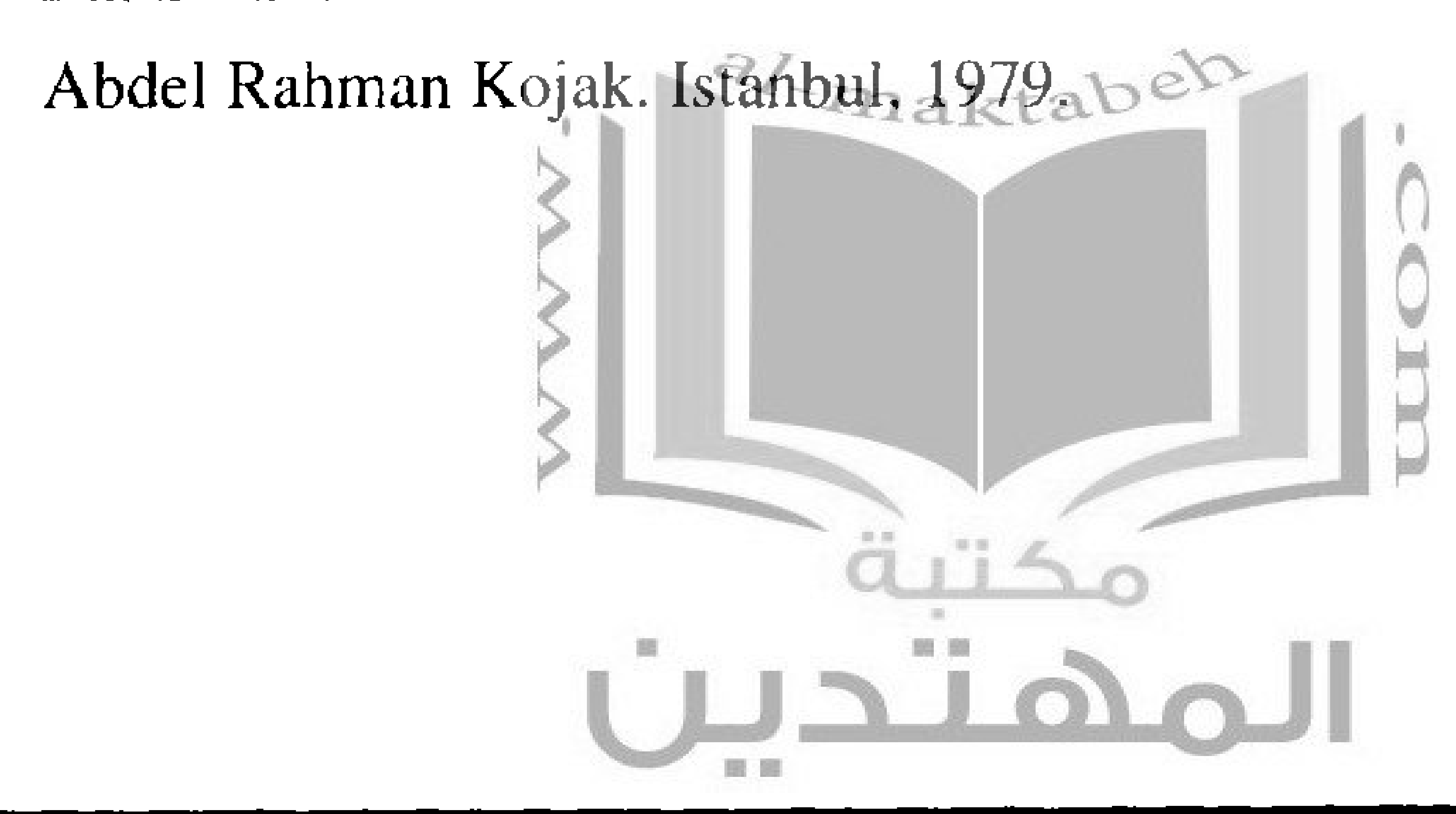
Alan Dowty, Calif. Univ. Press, 2000

4 - Our Parties and their leaders.

Nesrat K. Istanbul, 1975.

5 - Daunena Luk.

Abdel Rahman Kojak. Istanbul, 1979.



رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٦٧٢٦
ISBN : 977-281-178-2



مطابع الدار الهندسية
تليفون/فاكس : ٥٤٠٢٥٩٨



